

892.709:K23nA:c.1

كيلاني، كامل

نظارات في تاريخ الأدب الاندلسي ...

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032710

892.709
K23nA

AP 19 56
JN 156

107

JAN 12 1962

108

JAN 20 1962

109

MAR 1 1962

MAR 22 1962

JUN 8 1962

J. LIB.

- 5 FEB 1979

JUN 1972

- 5 FEB 1973

J. LIB.

3 0 AUG 1981

JAFET LIB.

25 JAN 1994

الفهرست

نَبْلَكَ بِإِشْتَخِيمَةٍ
الْعَرْبُ فِي أَوْرُوبَا

(١٥)	(خطبة طارق)	٢	عبد الرحمن الأموي
١٨	العرب في الاندلس	١٢	الأندلس
		١٣	فتح الاندلس

عبد الرحمن الداخل

٣٦	انصافه	٢٤	فراره من بلاده
٣٧	ميله الى الجد	٢٥	حكاياته عن نفسه
٣٨	فضله	٢٧	ذهابه الى افريقيا
٣٩	أوصافه	٢٨	مهمة بدر
٤٠	أدبه	٣٠	ذهب الداخل الى الاندلس
٤٠	أمثلة من شعره	٣١	فتح قرطبة
٥٢	أمثلة من نثره (محادثته . خطاباته . كتاباته)	٣٣	أخلاق الداخل
٦٣	أثره في الحضارة الاندلسية	٣٥	ديقراطيته

هشام بن الداخل

٦٧	فضله على العربية	٦٦	و حز تاریخه
٦٨	مثال من أدبه	٦٦	مثال من عدله
		٦٧	أثره في الاندلس

الحكم الأول

٧٤	مثال من إقامته	٧٠	رباطة جأشه
٧٤	مثال من شعره	٧٢	صفاته وأخلاقه
٧٥	أثره في الاندلس	٧٢	ميله إلى الله و مثاله
		٧٢	من شهادته

الدين في إسبانيا

٩٣	أثر العقيدة الدينية	٧٦	الإسلام في إسبانيا
١٠٠	المسيحية في إسبانيا	٧٧	يجي بن يجي
		٧٩	شيوخ المذهب المالكي

عبد الرحمن الثاني

١٠٨	أثره في الحضارة الاندلسية	١٠٦	أوصافه
١٠٨	أثره في الحركة الفكريّة	١٠٧	أمثلة من شعره
١١٠	فضله على الغناء	١٠٧	ولمه بنساء

زَرَابِ بْنُ الْمُوسَيْقَى

١١٦	(فضله على الموسيقى)	١١٢ (غيره اصدق الموصى به منه)
١١٦	(سمة حفظه)	١١٤ (رحلته الى الاندلس)
١٢١	<u>أثر الشرق في الاندلس</u>	١١٥ (احتفاء عبد الرحمن الثاني به)

ابن هانئ ومتيني

(١٤٢)	(ترجمته)	١٢٧ تمهيد
١٥٦	المقارنة بينهما	١٢٩ مختار شعر ابن هانئ
(١٦٤)	(أساليب الشهرة)	(١٢٩) (ترجمته)
		١٤٤ مختار شعر المتيني

مُحَمَّلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

١٨٠	المذهب الحنبلي في إسبانيا	١٧٨ موجز تاريخه
		١٧٩ صفاتاته

١٨١ المندري بن محمد

عبد الله بن محمد

١٨٥	أمثلة من نثره	١٨٣ موجز تاريخه
١٨٧	مثال من شعره	١٨٤ أو صافه
		١٨٤ حزنه على أمه

عبد الرحمن بن ناصر

٢٠٦	(احتفاء الاندلسيين به)	١٨٩	نبذة من تاريخه
٢٠٦	(تغور الألبيري منه)	١٩٤	(التاريخ والبلاغة)
٢٠٩	خطبة البلوطي	١٩٩	أثر الناصر في الاندلس
(٢٠٩)	(ترجمته)	١٩٩	سبب تلقيه بالخلافة
٢١٤	طرف من أخبار الناصر مع ابن شهيد	٢٠٠	منشور الخلافة
٢١٧	سيطرة الدين في زمانه	٢٠١	أثره في الحضارة الاندلسية
٢٢١	هنايته بتربيه الحكم	٢٠١	تشييد مدينة الزهراء
٢٢١	مؤامرة عبد الله	٢٠٤	العصر الذهبي
٢٢٣	فشل المؤامرة	٢٠٤	هدية قسطنطين
٢٢٠	مثلاً من شعر الناصر	٢٠٥	ارتباك أبي على القالي (ترجمة القالي)

الحكم الثاني

٢٢١	أشدده في محاربة المخر	٢٢٥	نبذة من تاريخه
٢٢١	مثالاً من شعره	٢٢٠	حربه

الموشحات في الأندلس

٢٣٤	كماذج من الموشحات	٢٣٣	نهيد
-----	-------------------	-----	------

- أثر مجالس الأدب والفناء ٢٧٢
 موسحة ابن المعتر ٢٤٤
 في الشعر (٢٧٢) (ترجمته)
- اختراع الموسحات ٢٧٣ ٢٤٨
 تعمت المقاد
- ابن رشيق والتجديد ٢٧٦ ٢٥٤
 موسحة ابن بقي (٢٥٤) (ترجمته)
 أثر الفناء في اختراع
- شكوي ابن قتيبة ٢٧٧ ٢٥٧
 الموسحات
- سلطان الفناء ٢٨١ ٢٥٨
 كانت الموسحات مما يتغنى به
- أثر الفناء في الشعر العربي ٢٨٣ ٢٦٢
 الفناء
- الشكوي من القافية ٢٦٦

الأزجال ٢٨٨ نماذج مختارة من الرجل

هشام الثاني وحاجبه المنصور

٣٠١	مثال من صرامته	٢٩٢	ولاية هشام
٣٠٢	مثال من فطنته	٢٩٥	كيف وصل المنصور إلى الملك
٣٠٣	نفاذ بصيرته	٢٩٥	وفوده إلى قرطبة
٣٠٤	شعوره بتجده	٢٩٥	تعلقه بالسيدة صباح
٣٠٧	مثال من تأملاته	٢٩٦	قدرجه في المناصب
٣٠٩	أثر البلاغة في نفسه	٢٩٦	طموحه إلى الملك
٣١١	مثال من نثره	٢٩٧	امتيازاته بالسلطان
٣١٦	مثاليان من شعره	٢٩٨	أثره في الأندلس
٣١٨	مجالس الأدب واللهو في زمانه	٢٩٨ ٢٩٩	حق العصبية أشييد الزاهرة ولعه بالغزو
		٣٠٠	

(٣٢٥) (أمثلة من كاذبيه)	٣٢٠	كيف امتحنوا صاعدا
٣٢١ مذاقتها مع ابن المعرف	٣٢٢	بداهة صاعدا
٣٢٣ مجلس انس ورقص	(٣٢٢)	(ترجمته)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِي الْبَشَّارِ شِعْرُ الْأَنْدَلُسِيَّةِ

٣٤٧ (حفظ أبي ضممض)	٣٢٦	ملوك الطوائف
٣٤٨ (حفظ الخطوارزمي)	٣٢٧	أثر التهذيب العربي في الاسپانيين
٣٤٨ (عنابة العرب بالحفظ)	٣٢٨	شكوى الفارو
٣٥٠ (حفظ الحميري)	٣٤٠	شعر العرب الاسپانيين
٣٥١ ابن عبدوز والاصمعي	٣٤٢	الاغانى الدارجة
٣٥٣ أثر الحفظ في الشعر العربي	٣٤٣	عنابة الاندلسيين بالحفظ

نَظَرَاتٍ
فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْإِنْجِلِيْزِيِّ
مُجْمُوعَةٌ مُحَاضَرَاتٌ

القائمة في الجامعة المصرية

وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُكَلِّفٍ وَمِنْ مُكَلِّفٍ
كَاحِكٌ عَنْ خِيَالِ الطَّيْفِ وَسَنَادِ
كَالِبِيلَانِي
بِالْأَوْقَافِ

مَفْوُضُ الْعَابِعِ مُخْفَوظَةُ الْمُؤْلِفِ
الطبعة الأولى

١٩٢٤ - ١٣٤٢ م
58364

يُطَلَّبُ مِنَ الْمَكَتبَةِ الْجَاهِلِيَّةِ الْكَبُورِيِّ بِأَوَّلِ شَارِعِ مُحَمَّدٍ عَلَى بَصَرَهُ
لِصَاحِبِ الْمُصْطَفَى مُحَمَّدٍ

الاهداء

نشأت ميلاً الى الأدب ، وما زال ينمو
هذا الميل حتى أصبح كلفاً بدراسته
وقد وقفت المدارس المصرية حائلاً دون
اشياع هذه النهضة ، ووجدت في الجامعة المصرية
الجو الطلق الذي تأنس اليه نفسي ويلتمُ مع
مزاج تفكيري
وهذه محاضرات كانت الجامعة المصرية
من أكبر المشجعين على اظهارها

* * *

فإلى كل من وضع حبراً في بناء هذا
المعهد العالمي المصري الحر أو فكر في إنشائه ،
والى أساتذته وطلابته ومشجعيه ، أهدي هذا
الكتاب ...
تأمل كيبارني

مقدمة

(١)

طلب إلى حضرة الدكتور أحمد ضيف، أن أترجم الفصل التاسع من كتاب « تاريخ آداب العرب للأستاذ نيكلسون » لأنّفيه في الجامعة المصرية، وهو الفصل الذي أفرده من كتابه الممتع ، لـ الكلام على تاريخ الأدب العربي في إسبانيا

(٢)

لم أكُد أقرأ هذا الفصل حتى بدا لي خطره ونفاسته ، وعرضت لى عدة ملاحظات على بعض ما جاء فيه، ولم أكُد أشرع في مناقشة أهم نقطه الرئيسية ، حتى اتسع أمامي مجال البحث ، وشجعني على موافقته ما رأيته من النقص الشديد الذي يكاد يلمسه كل مطلع على الكتب العربية التي تناولت الكلام في هذا الموضوع ؛ وما علمته من الحاجة الماسة إلى كتاب يوفر على طلبة الأدب الاندلسي وغيرهم من المشتغلين به ، قليلاً مما يتکبدونه من عناء البحث في الأسفار العربية الضخمة المهوشة ، وبخاصة وقتهم الئين من الضياع !

وذكرت أن جلال هضتنا القومية لا يتناسب مع جهلنا عظاءه لفتنا الذين تركوا أوضاع الآثر في بلاغة تستمد منها الحياة والقوة ، فلئن كان من الحق ألا يجهل الإنسان عظاءه الامم ذوي الآثر الكبير في الحضارة العالمية ، فهو أبدر ألا يجهل عظاءه قبل كل شيء !

* * *

دفعتني هذه الاعتبارات الى عدم الاقتصر على ترجمة هذا الفصل الممتع، وثم، تجذّه مرجعاً من المراجع الكثيرة التي رجمت اليها ، بدلاً من اتخاذها موضوع المحاضرة
(٣)

اقتصرت في هذا الكتاب على ترجمة النصف الاول من هذا الفصل ، وقد أقيمت القسم الاكبر من هذه المحاضرات منذ أكثر من عاشرين في الجامعة المصرية ، ثم نشرت بعضها في احدى الصحف الادبية، فلقيت من الاستحسان والرضى ما شجعني على طبعها
(٤)

ولم يفتني أن أورد في حواشى الكتاب كثيراً من التعليلات الضرورية التي اضطرني ضيق الزن الشديد ، الى الاكتفاء بالاشارة اليها دون ذكرها ، وقت القاء المحاضرات وقد تعمدت ذكر امثلة ونماذج شغلت مكاناً من الكتاب ما كانت لتشغله ، لو أن كتاباً حدثينا سبقة الى الاستشهاد بها ، أو لو أنني وثقت أن جهور الأدباء عندنا يعرفونها !
(٥)

(وبعد) فهذه نظرات سريعة أقيمت بها الى تاريخ الأدب الاندلسي ، وسأتابعها بعد قليل بالقسم الثاني منها ، فليقرأها القارئ على أنها مقدمة لدراسة الأدب في ذلك العصر ، ولابتعد عنها نواة الكتاب واف تداول فيه ذلك التاريخ بشيء من التوسع والاسباب اذا أمكننا الفرصة وكان في الاجل بقية ...
كامل كيلاني

اهم المصادر العربية

إلى رجعت إليها

أهتم المقادير اللافتة

Nicholson : a Literary History of the Arabs.

Dozy : l'histoire des musulmans de l'espagne jusqu'à la conquête de l'andalousie par les almaravides (711—1110 .)

Dozy : Recherches sur l'histoire et litterature de l'Espagne pendant le moyen age.

Encyclopédie Islamique

Pizzi : Letteratura Araba.

نَبْلَةُ بَارِتِخَيَّةٍ الْعَرَبُ فِي أَوْرُوبَا (١)

”وما يسترعى النظر، أنه قبل نهاية القرن الاول المجري،
 انتهاء حكم الاموي، الوليد بن عبد الملك (٧١٥ - ٧٠٥ م)
 اجتاز المسلمون، تحت قيادة طارق وموسى بن نصير، البحر
 الا يض المتوسط

وبعد أن هزموا رودريك القوطى في موقعة كبيرة
 قربية من قادس، أخضعوا بسرعة جميع ما تبقى من إسبانيا، ولقد
 طال أمد الشك في مصير هذا الأ Ramirez الجديد، فان ثورة البربر
 التي قاموا بها في افريقيا (٧٣٤ - ٧٤٢ م) امتدت إلى إسبانيا
 وكانت تهدد العرب بزوال مستعمراتهم التي امتهلكوها
 ولم يكدر بزول هذا الخطر حتى عاد المغاربة من فاً ضرموا
 من جديد نار الحزازات والسيخائم، التي ورثوها عن أسلافهم

(١) معركة عن كتاب الاستاذ ذي كاسرد لسمى تاريخ آداب العرب
 A Literary History of the Arabs

من قيس وكلب ، ثم بدأت الأحزاب السياسية . وبدأ المغارون من السورين واليمانيين يلجئون إلى سيوفهم مرة أخرى ، فغرقت البلاد في بحر من الفوضى

عبدالرحمن الاموي

وفي هذه الائتلاف حدث أن عبد الرحمن بن معاوية ، حفيد الخليفة الاموي هشام ، فر من المذبحة العامة التي ختم بها العباسيون انتصارهم على الأسرة الاموية وبعد أن قاتل الشدائدين سألاً مدة خمس سنوات ، لا يراقه في سياحته الابدر ، رفيقه الامين ، وصل إلى مدينة سبنته ، حيث جآ إلى ركن مزعزع بين قبائل البربر ولكن الفتوة والطموح والثقة القامة بالنفس في تحقيق ما يصبو إليه ، جعلت عبد الرحمن يفكر في مشروعه المملوء بالجرأة

فالتي بنفسه في إسبانيا مؤملاً أن يكسب الملك بمساعدة العرب الذين عرف حق المعرفة أن فيهم الكثيرون من المؤلدين لأسرته

وعلى ذلك فقد أرسل بدران في سنة ٧٥٥ م برسالة سرية
عبر بحرها إلى مصر، فاتم له ذلك السفير أكثر مما كان يتوقع منه
ولقد كان الحصول على موافقة العمالء لعبد الرحمن
سهلاً، لأنـه كان رئيسـهم بطبيعة الحال ، ولا نـهم بلا شك
سيـقـامـونـهـ المـائـدةـ اذاـ نـجـحـ ، واـكـنـ عـدـهـ كـانـ عـلـىـ كلـ حـالـ
قلـيلاـ باـتـقيـاسـ إـلـىـ سـوـاـعـمـ

ولـاـ أـمـلـ المـدـاعـيـ فـإـنـجـازـ مـاـ يـدـعـوـ إـلـيـهـ ، إـلـاـ إـذـاـ سـاعـدـهـ
أـحـدـ الحـزـبـيـنـ المـظـيـمـيـنـ ، حـزـبـ السـورـيـنـ أوـ حـزـبـ الـيمـنـيـنـ ،
وـكـانـ يـقـودـ الحـزـبـ الثـانـيـ حـيـنـئـذـ ، الـحاـكـمـ الـضـعـيفـ يـوسـفـ
ابـنـ عـبـدـ الـرـحـمـنـ الـفـهـرـيـ ، وـصـابـطـهـ الصـمـيلـ بنـ حـانـمـ الـذـيـ كـانـ
رـغـمـ كـفـاءـتـهـ قـاسـيـ القـلـبـ ، رـقـدـ كـانـاـ مـسـيـطـرـيـنـ وـصـاحـبـيـ الـكـلـامـةـ
الـنـافـذـةـ ، وـكـانـ يـسـوـمـانـ خـصـوـمـهـاـ سـوـءـ العـذـابـ بـلـارـجـةـ
فـكـانـ ذـلـكـ باـعـتـاعـلـىـ مـسـارـعـةـ الـيـنـيـيـنـ إـلـىـ جـانـبـ عـبـدـ الـرـحـمـنـ ،
لـاـ حـبـاـ فـهـاـ يـدـعـوـ إـلـيـهـ ، بلـ مـدـفـوـعـيـنـ إـلـىـ ذـلـكـ بـعـامـلـ الـاخـذـ
بـالـثـأـرـ وـالـانتـقامـ مـنـ أـعـدـائـهـ ، حـقـاـنـ هـؤـلـاءـ الـاسـيـانـ
الـمـسـامـيـنـ هـمـ مـنـ ذـلـكـ الـجـنـسـ الـبـدـوـيـ !
هـذـىـ الـعـصـامـنـ هـذـىـ الـحـصـيـةـ لـاـ نـلـدـ الـحـيـةـ الـاـ حـيـةـ ؟

* * *

ثم احتل اشبيليا بعد بضعة أشهر من حلوله اسبانيا، وهزم يوسف والصميل تحت أسوار قرطبة، وجعل نفسه واليًا عليها، ورأس في نفس ذلك المساء أهلها الذين اجتمعوا في المسجد الكبير لاداء الصلاة، واعتبر حاكم اسبانيا في

مايو سنة ٧٥٦

وظل عبد الرحمن ي العمل على حماية مملكته وتزيين قواها أثناء حكمه الطويل الذي استمر اثنتين وثلاثين عاماً وكانت تخرج الملائكة من قبضته مراراً - لو لا حذقه وهمته - وكم كان العبر المأق على عاتقه شديداً وشاقاً، فقد كانت أمامة العصبية العربية القوية الشكيمية، التواقه الى الاستقلال بشئونها، والتي تعد الحكومة عدوة لها ولم يكن ثمت من سبيل الى ردهم الا بجيش يفوق قوتهم، ولهذا جاء الى الاستعانة بالجنود المرتزقة (المأجورة) الذين أحضرهم من برابرة افريقيا، ومن ثم نشأت في الغرب نفس الاسباب التي أدت بالملائكة العباسية الى السقوط، ولم يكن شأن هذه الاسباب هنا أقل اثراً من شأن تلك

الاسباب هناك

ثم كان تعصب المسيحيين الذين كانوا يتطلعون ، بما فيهم الحزب الوطنى الإسبانى ، إلى رفع الميرالاجنبى عنهم ، بفاء ذلك صفتا على ابالة ، ومن ثم وجب إيجاد قوة خارقة ، لم يهمن على تلك العناصر المتمردة

* * *

الموافق

نعم ان الدولة الى وضع أساسها عبد الرحمن الثour لم تعيش اكثرا من قرنين ، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تخلد لها ذكراد فيما بين سائر الدول بما نالته اسبانيا على يديها من الرق والمدنية والتحذيب ، مما لم تتمتع به في زمان ما ويعزى الفضل في ذلك كله ، إلى المخاطر الجرىء عبد الرحمن الذي لم يغطه ، حتى أعداؤه ، حقه من الاعجاب والثناء . فقدم قالوا إن الخليفة ^(١) المنصور العباسى سأله حاشيته ذات يوم : «من صقر قريش ؟»

(١) مأخذة عن كتاب البيان المغرب طبعة دوزي (المجلد

(الثاني صحيفه ٦١)

فاجابوه : « ذلك لنبك يا أمير المؤمنين ،، (هذا هو
الجواب الطبيعي لسؤاله)
ووفانت الذى أخضم جبابرة الملك وقع الاتن الداخلية !»
فأجابهم الخليفة « كلاماً ليس هذا القبى ! »
« اذن فعاوية ، أو عبد الملك »
فقال لهم المنصور :
« كلاً - إنما صقر قريش هو عبد الرحمن بن معاوية
الذى جاب مهماته ، افترىقياً بفرده !
والذى استطاع أن يتحقق إرادته من غير جيش وناصره
في أقليم محول وراء البحر !
والذى استطاع أن يخضم اعداءه ويحقق العصافة ،
ويشيد امبراطوريته العظيمة بلا سلاح يوازره غير سلاح
الانارة ومضاء العزيمة !
ان عملاً كهذا لم يأته قبله أحد ،، ا. ه

٢

نقلنا هذه القطعة التي افتتح بها الاستاذ نيكلسون
فصله ^{اللارج} الخادى عشر، الخاص بموضوع بحثنا اليوم، لتفتيتكم منها
بأنفسكم، طريقتها الخاصة في الاداء، وابحاثه الشديدة، وميله الى
الاتيان بمعان كثيرة وآراء شتى في اسطر وجيبة، ولكننا
(كما قلنا في أول المخاضرة) لا يقنعنا مثل هذا القدر الي سير في
الكلام على نشأة أمة زریدأن تختصر في دراستها (لا سيما في
جامعة) ولا نستطيع أن نمر بهذا الجزء من فصله من غير أن
نشعر بنقص، حتى في بعض نقط جوهريه لا نستطيع
اغفالها منها كان المقام ضيقا

* * *

افتتح الاستاذ نيكلسون ذلك الفصل دون أن يتكلم
بشيء عن الانداس نفسها أو يبين لنا جغرافيتها واهمية
موقعها إلى غير ذلك، وقد يكون عذرها في هذا اعتقاده بأن
طلاب الآداب لا بد أن يكونوا مامين المامـاً تماماً مثل هذه
الأشياء، وأنهم يعرفون بلاشك موقعها الجغرافي ومكان البلاد
المهمة فيها من الخريطة، وهو عذر لا تتردد في قبوله

ثم تكلم عن فتح طارق بن زياد وموسى بن نصیر
لهذه البلاد من غير أن يوصح لنا بايحاز اهم الاسباب الى
اطمعت العرب فيها، وروح الفتح التي كانوا امتهنون بها او قتلوا،
والظروف الجمة التي اشتراك في العمل على سقوطها في أيديهم
نعم أنه كتب بمنعة أسطر قليلة جدا في الفصل الخامس
الذى عقده على الدولة الاموية أثناء كلامه عرضنا عن فتوحات
الوليد وبين اهمية هذه الفتوحات ، وقال إنها كانت أعظم
الفتوحات الاسلامية واعودها بالفوائد الجمة ، وأن طارقا
اجتاز البحر الى اسبانيا بعد أن خضعت قبائل البربر القاطنة
شمال افريقيا ولكنه - زيادة على أنه لم يوف بهذه النقطة - لم
يبين لنا نوع الامم التي كانت تقطن هذه البلاد وطبائعهم
ولم يعرفنا كيف وما هي العوامل التي أدت الى
استسلامهم للعرب ، وكيف فتح للعرب باب الامل على
محرابيه واتيحت لهم الفرصة في امتلاكه ، ومن الذى
ارشدتهم الى الطريق المؤدية الى فتحها وامتلاكه ، بهذه
المسؤولية وفي هذا الزمن اليسير ؟

* * *

فليست يقنع من يتصدى لدراسة الادب أو البلاغة
بسرد بعض حوادث مشتقة لا ترجع الى اصل ، أو يكتفى
بالاطلاع على بعض نماذج من البلاغة العربية أو الانداسية
أو سواها ، وبضم ملح وطرف وفكاهات ، أو يقتصر على معرفة
اباع ما كتب وأحسن ما قيل ، ولا الحمد الاقصى الذي
وصلت اليه البلاغة التي يعني بدراستها ، ولا الالمام ببعض
قصائد سامية الخيال جليلة المعنى ، ليتعرف آداب أمة معرفة
تنبع صدره ، وتذكرون مدحمة على أساس ثابت
نعم لن يقنع بمثل هذا القدر الذي يقتصر عليه ، مؤرخو
الآداب عندنا ، من غير أن يدفعه ذلك الى الاستزادة ، والى
البحث والتدقيق عن تاريخها المفصل وارتباطه بأدبها
وثم يستنبط بنفسه من سير الحوادث العديدة مزاجها
وتاثير ذلك المزاج في أدبها ، وليس إنما بدء من معرفة نشأتها
ونشأة أهم ملوكها وانشدتهم أثر فيها وفي أدبها ، ومعرفة أخلاق
أهلهما وادرائهما أثر تبادل اجناسهم ومواهبهم في الادب .
فقد كانوا خليطا من أمم شتى تمتاز كل أمة منهم بواهب

خاصة بها، فتكون من نسلهم أمّة جمعت مواهب لا يستهان
بها ، تفسر لنا ما نشاهد من اثرهم في الحضارة_ في البلاغة
ـ في الفنون _ في الطب _ في الجغرافيا وفي كل شيء ، مما
لا يكاد يصدقه العقل ، لذلك لا تستغرب قط من مؤرخي
الآداب (الغربيين على الأخص) أن يعنوا بالتاريخ العام
للامم التي يحملون أدبها ويدرسون بلاغتها عنایاً لاتقبل عن
عنایتهم بنفسهم الأدب أو البلاغة التي يتعدّدون ليبحثوها
إذن فليامس لنا بد من تخصيص بعض هذه المختارات
لذلك . ليس لنا بد من نظرة إجمالية في تاريخ الاندلس
لنتعرف منها سكان هذه الجزيرة (او شبه الجزيرة إن
شئتم) وماذا آل اليه أمرهم ، وما الذي اطمع العرب فيهم الخ ،
ما نراه جد ضروري لمعرفة المؤثرات التي جعّلت الأدب
الأندلسي ممتازاً عن سواه
لان هذه الاسباب التي تختلف عن سواها ، جديرة
كذلك أن تنتهي آداباً مختلفة عن سواها
وكذا ازدادت عنایة مؤرخي الآداب بدرس التاريخ
العام مفصلاً . وتحليل العظيماء الذين خطوا للتاريخ طريقة ،

كلما ازدادت مقدرتهم على تفهم الروح الادبية
وتطورات البلاغة

* * *

ولئن كان مقام الاستاذ نيكلاسون لا يسمح له بشيء
من ذلك « كما يقول » فان مقامه يسمح لنا بشيء قليل وهو:
وانا لنحتجز في القول اجتنزاء، ونأخذ من لكم هذا الجزء
الضروري الذي اغفله الاستاذ نيكلاسون من كتابه فيما يلى:

(٣)

الأندلس

ترك شرح جغرافية للسبب الذي تركه من أجله الاستاذ نيكاسون، ونبأ بالصحيح من تاريخنا فنقول:

تغلب على بلاد الاندلس من قديم الزمان أمم شتى من الافرجن واليونان والقرطاجينيين والقوط الذين استوْثَق لهم الامر بعد الرومان^(١) وصاروا المهيمنين عليها عدّة قرون قبل الاسلام. ولما سادت المسيحية في الغرب اعتنقواها فيما من اعتنقها، وكان يسمى ملوكهم، وقت الفتح الاسلامي، رودريق

ولم يقتصروا على امتلاك بلاد الاندلس فحسب بل تعدوا ذلك الى طنجة فاستعبدوها كما استعبدوا بلاد البربر التي كان اسم ملوكها حينئذ يليان، وكان خاصّاً لهم، يقطن سبتة وبدين بدينهم

وفي هذه الائمه كان الفتح الاسلامي يتدفق بسرعة

(١) هذا مهم جداً لمؤرخي الآداب، لا هيبة الاثر الذي ينشأ عن هذا الاختلاط

مدهشة في زمن الوليد بن عبد الملك
وكان بطلاً وقتئذ موسى بن نصير الذي ناط به الوليد
هذه المهمة، فذهب في نفر من المقطوعة حتى ورد مصر
وأخذ من جنودها فريقاً، ثم نزل بالقيروان قصبة افريقياً
فاخذ معه عدداً من الأقوياء الشداء، وفي مقدمتهم طارق
ابن زياد البربرى، وظل يفتح بلاد البربر حتى بلغ طنجة
فتتحها ونشر الإسلام فيها، وخلف مولاً طارقاً عليها بعد
أن أخضع يليان ملوكها للإسلام

فتح الأندلس

كيف ولماذا فتحت الأندلس؟ ومن الذي سهل للعرب
الطريق إلى ذلك؟ استبداد رودريك القوطى هو أكبر
العوامل التي أدت إلى ضياع ملكه
فقد كان من عادة كبار القوط بالأندلس أن يرسلوا
أولادهم وبناיהם إلى طرابلس ليتشرفو بخدمة ملوكهم، فإذا
بلغوا، زوجهم ببعض
وحدث أن كان من بين تلك البناء ابنة يليان حاكم

سبتة، وكانت غاية في الحسن ففتنت رودريق، وحاول أخذها
مكرهة، فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك

فأصرmer الحقد في نفسه لرودريق، وحلف ليقوصن
دعائم ملوكه، وأخذ ابنته من رودريق، ثم ذهب من توه
إلى طارق فأفشى له أسرار الفوط، ودله على أماكنهم
وطريقة أخذهم، فسار طارق باذن من موسى بن نصير على
رأس جيش هن العرب والبربر إلى بلاد الانداس

قال صاحب كتاب المعجب وهو من رجال القرن

السابع الهجري :

« وأول موضع نزله - فيما يقال - منها، المدينة المعروفة
بالمجزرة الخضراء اليوم »

نزلها قبيل拂جر، فصلى بها الصبح بوضع منها، وعقد
الرايات لاصحابه، فبني بعد ذلك هناك مسجداً، وعرف بمسجد
الرايات، وهو باق إلى وقتنا هذا، أسأل الله ابقاءه إلى أن
تقوم الساعة !^(١) »

(١) دعوة غير مستجابة

ولما بلغه دنو رودريق، قال خطبته المعروفة، التي لا تقل
بلغة عن أبلغ خطب القواد المشهورين^(١)

(١) قام في أصحابه ، ثم حث المسلمين على الجهاد ورغمهم فيه ، ثم قال :

وَأَيْهَا النَّاسُ ! أَيْنَ الْمَفْرُوضُ الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَالْمَدُو
أَمَامَكُمْ ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَاللَّهُ إِلَّا الصَّدَقُ وَالصَّابَرُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ فِي
هَذِهِ الْجَزِيرَةِ أَضَيْعُونَ الْإِيمَانَ فِي مَأْدِبَةِ اللَّهَمَّ ، وَقَدْ اسْتَقْبَلَكُمْ
عَدُوكُمْ بِجَيْشِهِ ، وَأَسْلَاحَتِهِ مَوْفُورَةٌ ، وَأَنْتُمْ لَا يَرْأُونَ
كُمْ إِلَّا سِيَوفَكُمْ ، وَلَا أَقْوَاتَ إِلَّا مَا تَسْتَخْلِصُونَهُ مِنْ أَيْدِي
عَدُوكُمْ ، وَإِنْ أَمْتَدْتُ بِكُمِ الْأَيَّامَ عَلَى افْتِقَارِكُمْ ، وَلَمْ تَنْجِزُوا إِلَيْكُمْ
أُمْراً ، ذَهَبْ رِيحُكُمْ ، وَتَعَوَّذَتِ الْقُلُوبُ مِنْ رُعْبِهَا مِنْكُمْ الْجَرَأَةُ
عَلَيْكُمْ ، فَادْفَعُوهُمْ أَنْفُسَكُمْ خَذْلَانٍ هَذِهِ الْمَاقِبَةُ مِنْ أَمْرِكُمْ ،
بَعْنَاجِزَةُ هَذَا الطَّاغِيَةِ ؛ فَقَدْ الْقَتَ بِهِ إِلَيْكُمْ مَدِينَتَهُ الْحَصِينَةُ ،
وَإِنْ انتَهَازَ الْفَرَصَةُ فِيهِ لَمْ يَكُنْ ، إِذْ مَيَّتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ لِلْمَوْتِ ، وَإِنْ
لَمْ أَحْذِرْكُمْ أُمْراً أَنَا عَنْهُ بِنَجْوَةٍ ، وَلَا جَلَّنِكُمْ عَلَى خَطَّةٍ أَرْخَصُ
مَتَاعِ فِيهَا النُّفُوسُ أَبْرَأُ مِنْهَا بِنَفْسِي ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ - إِنْ صَبَرْتُمْ
عَلَى الْأَشْقَى قَلِيلًا - إِسْتَمْتَعْتُمْ بِالْأَرْزَانِ الْأَلْدَ طَوِيلًا ، فَلَا تَرْغَبُوا
بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ نَفْسِي ، فَإِنْ حَظِيْتُكُمْ فِيهِ بِأَوْفَرِ مِنْ حَظِيَّيِّ
وَنَدِيْدِي بِأَغْنَمِكُمْ مَا أَنْشَأْتُ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ مِنْ الْحُورِ الْمَسَانِ ، مِنْ

وما كاد ينتهي منها حتى انبسطت نفوس أصحابه وأجاوه : « قد قطعنا الأمال مما يخالف ما عزمنا عليه » فاحضر اليه ، فاننا معك وبين يديك » وفي صباح الغد تأهب

بنات اليونان (على التشبيه بـ هن) الرافلات في الدر والمرجان ، والخلل المنسوجة بالمعيقان (الذهب) المقصورات في قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك – أمير المؤمنين – من الا بطالم عربانا ، ورضيكم ملوك هذه الجزيرة أصهارا وأخوانا ، ثقة منه بارتباطكم لاعمان ، واستباحكم بـ جالدة الا بطالم والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلته واظهار دينه بهذه الجزيرة ، ول يكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله – تعالى – ول انجادكم على ما يكون لكم ذكرآ في الدارين .

واعلموا أني أول محيب الى مادعوكم اليه ، واني عندم لتقى الجميين – حامل بنفسى على طاغية القوم ، لذر يق ، فقاتلته – ان شاء الله تعالى – فاجلو معي ، فان هلكت بعده ، فقد كفيتكم أمره ، ولم يموذكم بطل عاقل تسندون اموركم اليه ، وان هلكت قبل وصولي اليه ، فالخلفون في عزيقى هذه ، واجلو بأنفسكم عليه ، وآكثروا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فانهم بعده يخذلون . »

الجيشان ، وحمل رودريق ، وهو على سريره ، وقد رفع على رأسه دوافع ديباج يظله ، وهو مقبل في غابة من البنود والاعلام ، وبين يديه المقاتلة والسلاح ، وأقبل طارق على أصحابه ، عليهم الزرد ، ومن فوق دؤوسهم العائم البيض ، وبأيديهم القسى العربية ، وقد تعلمدا السيف ، واعتقلوا الرماح ، فاما نظر اليهم رودريق ؛ حاف وقال : « إن هذه الصور هي التي رأيناها بيت الحكمة بيلدنا ، فداخله هنهم الرعب ، فلما رأى طارق رودريق ، قال : « هذا طاغية القوم ، فحمل ، وحمل أصحابه معه ، فتفرق المقاتلة من بين يدي رودريق ، خاص اليه طارق ، فضر به بالسيف على رأسه فقتله على سريره ، وتم اطراق الفوز وانهزم اعداؤه والرعب ملء قلوبهم

ثم تغلغل طارق في بلاد الانداس ، وغنم شيئاً كثيراً كان داعية لحسد موسى بن نصیر عليه ، وقد بذل طارق وسعه في استلال السخيمة من صدر مولاه موسى ، بكل الوسائل ، فحمل اليه كل ما غنم ونسب اليه الفتح ، واسكنه

أُخْفِقَ فِي إِرْضَانِهِ رَغْمَ ذَلِكَ كَلَّهُ
وَفِي أَقْلَ منْ عَشَرْ سَنَوَاتٍ تَمَّ فَتْحُ الْأَنْدَلُسِ ،
إِلَّا بَعْضُ أَصْقَاعِ جَبَلِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ مِنْهَا

الْعَرَبُ فِي الْأَنْدَلُسِ

وَبَعْدَ ذَلِكَ أَخْذُ الْعَرَبِ يَنْظَمُونَ الْبَلَادَ وَيَؤْمِنُونَ أَهْلَهَا ،
وَفَرَضُوا عَلَى مَنْ لَمْ يَسْلِمْ مِنْهُمْ جُزِيَّةً أَقْلَ بِكَثِيرٍ مَا فَرَضَهُ
عَلَيْهِمُ الْقَوْطُ ، دُونَ أَنْ يَسْوِهِ بِأَذْنِيَّ » مَا دَلَّ عَلَى أَنْ دُولَتِهِمْ
سَتَبْقَى أَبْدَ الدَّهْرِ ، وَلَكِنْ حَدَثَ عَكْسُ ذَلِكَ لَا سَبَابَ
سَمِّدَ كَرْهَافِ مَوْضِعِهَا

وَلَيْسَتْ مَسَأَلَةُ التَّسَامُحِ الْدِينِيِّ إِلَّا أَظْهَرَهَا الْعَرَبُ فِي
مَعَالِمِهِمْ مُسِيَّحِي اسْبَانِيَا بِالشَّيْءِ ، الْقَلِيلُ الَّذِي يَسْتَهَانُ بِهِ ، فَانْ
نَظَرَةٌ وَاحِدَةٌ إِلَى دُولَ اُورُوبَا فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ ، وَإِلَى
تَطَاهِنِهَا الْمُخِيفِ مِنْ جَرَاءِ الْعَقِيْدَةِ الْدِينِيَّةِ - نَظَرَةٌ وَاحِدَةٌ
إِلَى الدَّمَاءِ إِلَّا سَفَكَتْ ، وَإِلَى الْحَرْبِ الْهَائِلَةِ إِلَّا أَقَامَهَا
الْتَّهَبُ الْدِينِيِّ - نَظَرَةٌ وَاحِدَةٌ إِلَى الْمَذَاجِ الْعَدِيدِ الْمُتَكَرِّرِ
إِلَى سَبَبِهَا التَّهَبُ الْأَعْمَى لِلْدِينِ ، كَمَذْبُحَةٌ ثَاقِسَ إِلَى حَدَثَتْ

في فرنسا سنة ١٥٦٢ م ومذبح سان بارثولوميو عام ١٥٧٢ م
الى حدثت في باريس وذبح فيها من الهيئجنوت ما لا يقل
عن ٢٠٠٠٠ نسمة . ونظرة اخرى الى معاملة مسيحي
اسبابها لامسالدين بعد أن طردوا من اسبانيا والى الفظائع
الى ترتعـد منها الفرائص ، تلك الفظائع الـى ذكر صالح
الرندى الفليم منها دون الكثير ، في قصيدة له الذونية الـى
يقول فيها :

يا من لذلة قوم بعد عزم
أحال حالم جور وطغيان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
عليهم في ثياب الذل ألوان!
ولو رأيت بهم عنـد بيـعهم
لهـالـكـالـأـمـرـ وـاستـهـوـتكـ أحـزانـ!
يا رب أم و طفل حـيـلـ يـيـنـهـاـ
كـماـ تـفـرـقـ أـرـوـاحـ وـأـبـدانـ
وـطـفـلـةـ مـيـلـ حـسـنـ الشـمـسـ إـذـ طـلـعـتـ
كـانـهـاـ هـيـ يـاقـوتـ وـمـرـجانـ

يقودها العاج المكره مكره

والعين باكية والقاب ولها

لمثل هذا يذوب القلب من كمد

ان كان في القلب إسلام وايمان

ويقول منها في موضع آخر :

نجائح الدهر أنواع منوعة

واللازمات مسرات وأحزان

والحوادث سلوان يسهلاها

وما لما حل بالاسلام سلوان

ومنها

يا غافلا وله في الدهر موعدة

إذ كنت في سنة فالدهر يقطان

وماشيا هرحا يلهيـه موطنـه

أبعد جمـس تـغـرـ المرءـ أـوطـانـ

تلك المصيبة أنسـتـ ما تـقدـمـها

ومـاـ لهاـ منـ طـوالـ الـدـهـرـ نـسيـانـ

ومنها :

يارا كبين عتاق الخيل ضامر
كانها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيف الهند مرهفة
كأنها في ظلام النقم زيران
وراء البحر في دعـة
لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ عن آل أنداس
فقد سرى بحدث القوم ركبان ؟
الا نفوس أبيات لها هم
أما على الحجـد أنصار وأعوان ؟
والقصيدة طويلة وقد اخترنا أحسن ما فيها ، وهي - رغمـا
عن سذاجتها - تدل على شعور صادق ونفس مقاومة ثم هي
أيضا تقدر حقيقة تاريخية وواقع ثابتة ليس من شك في
وقوعها
أقول :
إن نظرة إلى كل ذلك ، بل مائنا نذهب بعيداً - إن

نظرة واحدة إلى ما لا تزال ترتكبه حتى أشد الأمم مدنية
إلى الآن من الجرائم والفضائح وصنوف القسوة بسبب
التعصب الديني، لتبيّن لكم قيمة هذا التسامح الديني العظيم الذي
أظهره مسلمو الأندلس نحو مسيحييها، ونجعوا لكم تكبرون
أمره لاسباب في ذلك الوقت - ~~ولتكن الدين الإسلامي~~
~~الذى بنى على السلام والصفاء والتسامح هو الذى هداكم~~
~~إلي ذلك~~

* * *

جُنُفْ؟ « وتداول على بلاد الأندلس ولاة من قبل بني أمية
أو من قبل من يقيمه بالفيروان أو بصرى ، حتى قتل الوليد
الأخضر ابن يزيد ، فاشتغلوا عن مراعاة أقصى البلاد ، ووقع الاضطراب
بافريقية ، والاختلاف بالأندلس أينما بين القبائل ، ثم
اتفقوا بالأندلس على تقديم قرشي بجمع الكلمة إلى أن
 تستقر الأمور بالشام لمن يخاطب ، ففعلوا ، وقد هموا
 يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، فسكنفت به الأمور ،
 واتفقت عليه القلوب ، واتصات امارته إلى سنة ١٣٨ بعد
 ذهاب دولة بني أمية بست سنين

وفي هذه السنة دخل الأندلس عبد الرحمن بن معاوية
الملقب بالداخل ، فقامت معه اليمانية ، وحاربه وانتصر عليه
واستولى على قرطبة ، دار الملك ، وكان دخوله ايامها يوم
الأضحى من تلك السنة ، فاتصلت ولاليته إلى أن مات
سنة ١٧٢ » (١)

* * *

ولما كنا نعد عبد الرحمن الداخل ، مؤسسًا كبر دولة
اسلامية في الاندلس ، بحق ، ونمزوه اكبر الفضل في تنظيم
تلك البلاد ، ومحاربة الفوضى ، التي كادت تلتهمها ، لو لا
جهوده العظيمة ، وسياساته الحكيمة ، التي نهضت بها
وكانت سبباً في ازهار الآداب والحضارة العربية في
الأندلس ، ولما كان هذا الرجل فذا في نوعه وكان اثره في
رق البلاغة العربية شديداً جداً ، فانا لا ترى بأساساً من التوسع
قليلاً في سيرته الحافلة بالمعظائم ، لنعلم بما لا بد من معرفته من
تاريخ هذا الملك الكبير ، متعمقين مما أغفله الاستاذ نيكلسون
في الصفحات القالية :

(١) ملخصة عن كتاب المعجب في تاريخ اخبار المغرب

عبد الرحمن الداخل

ولد سنة ١١٣ و توفي سنة ١٧١

« لما وقع الاختلال ^(١) في دولة بنى أمية ، والطلب عليهم ، فرع عبد الرحمن ، ولم ينزل في فراره متنقلاً بأهل وولده ، إلى أن حل بقرية على الفرات ، ذات شجرة غياض يويد المغرب ، لما حصل في خاطره من إشارة مسأله ^(٢) »

(١) هذه عبارة ابن حيان التي قلها المقرئ عنه

(٢) يشير بذلك إلى حدثه مع مسلمة بن عبد الملك وهي مشهورة ، وخلاصتها أن عبد الرحمن هذا ، دخل ذات يوم وهو صبي ، على جده هشام ؛ وعند هذه أخوه مسلمة ، وكان شديد الفراسة بعيد النظر ، فأمر هشام أن ينحي عنه ، ففقال له مسلمة : « دعه يا أمير المؤمنين ! هذا صاحب بنى أمية ووزرهم عند زوال ملوكهم ، فاستتوص به خيراً » قال عبد الرحمن : « فلم أزل أعرف من جدي مزية من ذلك الوقت »

ولا نحن بذناب في حاجة إلى التنبيه على ما تركته هذه البشرى في نفسه من الأثر ، وما خلفته فيها من الامل الذى لا حد له في احراز السلطان ، فاجتاز أشد العقبات المؤدية ، وأحرز فيها بعد ، ملك بلاد الاندلس

حکایتہ عن نفسہ

قال عبد الرحمن الداخل :

«إنى جالس يوماً في تلك القرية، في ظلمة بيت
توارثت فيه، لرمد كان بي، وابن سليمان، بكر ولدى،
يلعب قدامى، وهو يومئذ ابن اربع سنين أو نحوها، إذ
دخل الصبي من باب البيت، فازعاً باكيما، فاهوى الى حجري
فعلت ادفمه لما كان بي، وينبأ بالاتصال، وهو دهش
يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، خرجت لأنظر، فإذا
بالروع قد نزل بالقرية، ونظرت فإذا بالرایات السود علىها
منحوطة، وأخذ لي حدث السن كانت معى يشتد هارباً،
ويقول لي «النجاء يا أخي! فهذه رایات المسودة» فضررت
بيدي الى دنانير تناولتها، ونجوت بنفسي، والصبي أخي
معى، وأعلمت اخواتي بتوجهي ومكان مقصدى، وامرتهن
أن يتحققني ومولاي بدر معهن، وخرجت فكمنت في
موقع ناه عن القرية، فما كان الا ساعة، حتى أقبلت الخيل
غاصطة بالدار، فلم تجد أثراً، ومضيت، وخلفى بدر،

فأَتَيْتُ رِجْلًا مِنْ مَعَارِفِ بَشَطِ الْفَرَاتِ، فَأَمْرَتْهُ أَنْ يَدْقَاعَ
لِي دَوَابَ وَمَا يَصْلَحُ لِسَفَرِي، فَدَلَّ عَلَى عَبْدِ سُوَالِهِ، الْعَامِلِ
فَأَرَاعَنَا إِلَّا جَلْبَةَ الْخَيْلِ تَحْفَزُنَا، فَاشْتَدَّدْنَا فِي الْهَرْبِ،
وَسَبَقْنَاهَا إِلَى الْفَرَاتِ، فَرَمِيْنَا فِيهِ بِأَنفُسِنَا، وَالْخَيْلِ تَنَادَيْنَا
مِنَ الشَّطْطِ: «إِرْجِعُوا! لَا بَأْسَ عَلَيْكُمَا» فَسَبَحْتُ حَاثَانِيَ النَّفْسِي
وَكُنْتُ أَحْسَنَ السَّبِيعِ، وَسَبِعَ الْغَلامَ أُخْرِي، فَامْكَنَّا نَصْفَ
الْفَرَاتِ، فَصَرَّ أُخْرِي وَدَهْشَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ لَا قُويَّ مِنْ قَلْبِهِ
وَإِذَا هُوَ قَدْ أَصْنَفَ إِلَيْهِمْ، وَهُمْ يَخْدُونَهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَنَادَيْتُهُ
«تَقْتَلُ يَا أُخْرِي! إِلَى إِلَى!» وَإِذَا هُوَ قَدْ اغْتَرَ بِأَمْانِهِمْ،
وَخَشِيَ الغَرقُ، فَاسْتَهْجَلَ الْانْقَلَابَ نَحْوَهُمْ، وَقَطَعْتُ أَنَا
الْفَرَاتَ، وَبَعْضُهُمْ قَدْهُمْ بِالْتَّجَرْدِ لِلْسَّبِاحةِ فِي أُمْرِي، فَاسْتَكْفَهُ
أَصْحَابُهُمْ عَنْ ذَلِكَ، فَتَرَكُونِي، ثُمَّ قَدَّمُوا الصَّبِيَّ، أُخْرِي، الَّذِي
صَادَ إِلَيْهِمْ بِالْأَمْانِ، فَضَرَبُوا عَنْقَهُ، وَمَضَوْا بِرَأْسِهِ، وَأَنَا
أَنْظَرَ إِلَيْهِ، وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثَةِ عَشْرِ سَنَةً، فَاحْتَمَلَتْ فِيهِ ثَكَلَةُ
مَلَأْنِي مُخَافَةً، وَمُضِيَّتِي إِلَى وَجْهِي أَحْسَبَ أَنِّي طَائِرُ، وَأَنَا
سَاعَ عَلَى قَدْمِي، فَلَجَأْتُ إِلَى غَيْضَةِ أَشْبِهِ، فَتَوَادَيْتُ فِيهَا
حَتَّى انْقَطَعَ الْطَّلَبُ، ثُمَّ خَرَجْتُ هَارِبًا أَرْوَمُ الْمَغْرِبِ، حَتَّى

وصلت الى افريقيا ١٠٥

ذهابه الى افريقيا^(١)

وصل الى افريقيا ، وقد ألحقت به أخته شقيقة ،
مولاه بدراء ، ومولاه سالما ، ومعها دنانير للفقة وقطعة
من جوهر ، فنزل بافريقيا وقد سبقه اليها جماعة من فل
بى أمية

* * *

وكان عند واليها ، عبد الرحمن بن حبيب الفهري ،
يهودي حدثاني صحب مسلمة بن عبد الملائكة ، وكان يتكون
له ويخبره بتغلب الفرشي المرواني الذي هو من أبناء ملوك
الفوم ، واسمها عبد الرحمن ، وهو ذو صفويتين ، يملك
الandalus ، ويورثها عقبه ، فاتخذ الفهري عند ذلك صفويتين
أرسلاها رجاء أن تناه الرواية ، فاما جي عبد الرحمن ، ونظر
الي صفويتين ، قال لليهودي : « ويحك ! هذا هو ، وأنا
قائله » ، فقال له اليهودي : انك ان قتلتنه ، فما هو به ، ولائئ

(١) ملخصة عن كتاب نفح الطيب

غلبت على تركه فإنه لهو ، فاقتضى الفهرى بذلك واستحصوب
رأيه ، وإنما احتال اليهودى بهذا الكلام لينقذ عبد الرحمن
الداخل من شره

* * *

وأخذ الفهرى يضغط به من نزل به من الامويين ،
ويتجنى عليهم ، فلم يسع الداخل الا الفرار من وجهه ،
فاستخفى منه يبرقه نحو خمس سنوات ، وترقب في قبائل
البر إلى أن استقر على البحر عند قوم من زناه ، وأخذ
في تجهيز مولاه بدر لاعبور إلى الاندلس لموالي بنى أمية
وشيعهم بها

مهمة بدر

ذهب بدر إلى بلاد الاندلس ، وأخذ يفتن في استهالة
أشياع بنى أمية ومواليهم ، وما زال يذكرهم بمكان الداخل
منهم ، وينبههم باعلاء الدرجة ولطف المنزلة ، حتى أفلح في
اجتذاب اليهانية بعد أن فشل في استهالة مضر وريعة ، وكان
الميائية قد أوغرت صدورهم على مضر ، فانهزوا هذه

الفرصة للانضمام الى جانبه ^(١)

* * *

وعاد بدر الى مولاه ^(٢) في مركب ومهما احمد عشر
رجالا ، فبهم تمام بن علقة ، فالفوا الداخل يصلى ، وكان
قد اشتغل قلقه وانتظاره لبدر رسوله ، فأسرع بدر اليه سابقا
في الماء ، غير متهم حتى تصل المركب إلى الساحل ، وبشره
بنجاح مسعاه ، وخرج اليه تمام فسألة الداخل :
« ما اسمك ؟ » فقال له : « تمام » قال : « وما كنیتك ؟ »
قال : « ابو غالب » فقال : « الله اكابر ! تم أمرنا وغلينا
بحول الله ! ^(٣) »

(١) وساعد علي ذلك بعد يوسف بن عبد الرحمن الفهري
صاحب الاندلس في الثغر وغيثة الصميميل

(٢) وكان عبد الرحمن قد وجه خانه الى مواليه ، فكتبوها
تحت ختمه الى من يرجونه في طلب الامر ، فبئوا ذلك في الجهات
مادب به امرهم

(٣) هذا دليل على ميل الداخل الى الاخذ بذهب النفائل ،
وفي تاريخه كثير من الادلة على ذلك

ذهاب الداخل إلى الأندلس

وبادر عبد الرحمن بالدخول إلى المركب ، فتعرض البربر
دونه ، ففرق عليهم من المال - حسب اقدارهم - ما ارضاهم به
جميعا ، وسافرت المركب وساعدتها الريح حتى حلوا بساحل
البيرة في دينع الآخر سنة ١٣٨ فنزل بها ، فأناه جماعة من
وجوه الموالي وبعض العرب فيما يعوده ، خرج إلى كورقرية
فدخلت في جماعته وبايده أهلها وأجنادها ، وانتال عليه
الناس اثنين لا فقوى أمره ، واستقضى خم شأنه ، على عمر الأيام
حتى دخل قرطبة بعد سبعة أشهر ، كما سنبينه بعد قليل

* * *

وكان خبر دخوله الأندلس قد صادف صاحبها يوسف
الفهرى بالثغر وقد قبض على بعض الشاذرين بسرقة سطة
وقتلهم ، فجاءه رسول يركض من قرطبة يعلمه بأمر
عبد الرحمن وزوله بساحل جند دمشق ، واجتمع الموالي
المروانية اليه ، وآشوف الناس لأمره ، فانتشر الخبر في
الجيش لسره حظه ، وتمرد كثيرون من الجندي ، فسارعوا

بالانضمام إلى الداخل

وأمطرت السماء مطرا لم يعهد له مثيل، فازداد موقفه
حرجاً، ولم يبق في عسكره سوى عامـانـ انه وخاصته وقوم
الصميمـ ، فأقبل الى طليمطلة واستشار الصميمـ ، فنصح له
بالمبادرة الى قتال الداخل قبل أن يستفحـل أمرهـ ، وأظهر
له خوفـه من انقلاب اليـمانـيةـ ، واـكـنـ يوسف جبنـ لما رأـيـ
انقضاض الناس من حولـهـ ، وافتقارـهـ إلى المالـ ، وشدةـ ماـ منـيـ
بهـ منـ الجـاءـةـ في سـفـرـهـ ، وسـارـ بـجـيـشهـ إلى قـرـطـبةـ رغمـ
فصـيـحةـ الصـمـيمـ

فتح قرطبة

سار عبد الرحمن الداخل إلى اشبيلية فاحسن لقاءه رئيس
عربها أبو الصباح اليحصبي ، وقر الرأي على أن يقصدوا به
إلى قرطبة (دار الامارة) فلما أقبل إليها الداخل ، خرج له
يوسف وكانت الجماعة التي شملت أهل الاندلس ست سنوات
قد أضعفـت قواهم ، فانتهـت العـركة بـفوز الدـاخل ، وفـرار
يوسف الفـهرـي والـصـمـيمـيل

* * *

ومازال عبد الرحمن دائياً ، يذال كل عقبة بمحزمه
وشجاعته ، حتى ثبت ملوكه بين تلك العواصف التي كادت
تفتعله مراراً ، فظفر بالفهري بعد قليل وقتله ، ثم ثى
بالصميم خبسه وأوعز إليه من خنقه
وقد انت في التفكير بالثوار ليعتبر أعداؤه بمصر عليهم
ثم استوحش من العرب ، فما كثر من اتخاذ البربر ، وما زال
يعمل دائياً على توطيد الأمان في الأندلس ، والسير بهافي
طريق الحضارة ، حتى وافته منيته سنة ١٧١ فترك ملوكه
نابتة الدعائم ، زاهرة بالعلوم والآداب ، يوف على ارجائها علم
السلام والرفاية

اخلاق

عبد الرحمن الداخل

— ١ —

صر امته

كان المدخل أمل واسع يصبو إلى تحقيقه، وهو امتلاك بلاد الاندلس^(١) وقد تشبع نفسه بهذه الفكرة الجريئة حتى امترجت باحمه ودمه، وحتى هيمنت على كل مشاعره، فواجه أشد الأخطار في سبيل تحقيقها، ولما ساعده الجد على إدراك اربته، لم يستطع أن يفك لحظة واحدة في التهاون بأذل شيء يحتمل أذيفضى إلى انتكاث أمره بعد تمامه، ومن ثم لم يحجم عن قتل كل من نواه أو

(١) كاطمغ فيها بعد امتلاك الشرق أهذا، والى نزع الملائكة من أيدي العباديين ادراهم وقد هم بذلك، ألم ينفعه عن انفاذه الا اشتغاله بتسكنين النلاق والقضاء على الزوار ببلاد الاندلس، وسيمر بك ذلك في حينه

وقف في طريقه ، كائنة ما كانت منزلته عنده ، أو قرابةه
الشديدة منه ، حتى كان يفضل أن ينسب إلى العقوق
ونكران الجميل في سبيل توطيد ملائكة
وحسبيك دليلا على صرامته فتكه بالغيرة ، ابن
أخيه ^(١) ، حين رأه يطمع في اجتذاب الأمر إليه ، وقتله
أبا الصباح اليحصبي زعيم البانية الذي صدر ذكره والذي
ساعدته على قهر يوسف الفهري ، وقسواه الشديدة في معاملة
مولاه بدر الذي يعزى له أكبر الفضل في نجاحه

(٤) وقد عدوا ذلك من أوجه الشبه بين الداخل والمنصور ،
فقد قاسوه به في رجوليته وحزمه وصرامته ، واجترأه على
الكبائر ، وضبط الملة ، وهو افتقه في أن أم كل منها بربرية
 وأن كل منها قتل ابن أخيه ، فأن المنصور قد قتل ابن السفاح
كما قتل الداخل المنيارة
ولعل هذا الأتشابه في أخلاقها يبين لنا السر في اعجاب المنصور
به ، وتلقينه إياه بصفة قريش ، وسنوره بعد قليل وصف المنصور
إياه ، الذي ملاه اعجبابه وثناء عليه ، وقد صدق علي بن أبي
طالب في قوله إن الأرواح جنود مجنة ، مانعها اختلف
وما تنا كر منها اختلف

ولكن ما أُجدرنا أن نسمى هذه الصراامة حزما
فقد كان مركزه غاية في الخطورة والحرج ، وكان في أشد
الحاجة إلى الطمأنينة على ملوكه المزعزع ، فاخذ من صرامته
وسيلة إلى تثبيت مملكته بين تلك الفتنة والعواصف الموجأة ،
وسلك أمثل الطرق وأخشنها في تأديب العصاة والتآرير
حتى استطاع أن يستبدل الفوضى بالنظام ، والخوف بالأمن
والطمأنينة

٢

دِيْقَرِ اطِّيْتَه

ولم يكن مع صرامته ، وتنكيله بأعدائه ، متكبراً
جاف الطباع ، بل كان على العكس من ذلك ديمقراطياً وديعاً
دمت الأخلاق ، فكان يعتمد للمعونة ، ويسمع منهم ، وينظر
بنفسه فيما يليهم ، ويتوصل إليه من أراده من الناس ، فيحصل
الضيوف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة ، وكان من
عاداته أن يأكل منه من أصحابه من أدرك وقت طعامه ،
ومن وافق ذلك من طلاب الحاجة أكل منه

٣

انصافى

وكان عادلا منصفا ، راجح الحلم واسم الاناة ، لا يملك
زمامه هواه ، وفي الحكایة القالية مثال حسن ، نتبين منه
إخلاصه لاحق ، وتقديره لمواهب الرجال :

* * *

لما فتح سر قسطنطين ، وتم له ما أمله من الفوز على أعدائه
أقبل خواصه يهنئونه ، فجرى بينهم أحد من يوبه به من
الجند ، فهناه بصوت عال ، فقال : ” والله لو لا أن هذا
اليوم يوم أسبغ علي فيه النعمة من هو فوق ، فأوجب على
ذلك أن أنعم فيه على من هو دوني ، لاصفيتكم ما تعرضت
له من سوء النكال ! من تكون ، حتى تقبل مهنتها ، رافعا
صوتكم ، غير متجلجج ولا متهيب لمكان الإماراة ، ولا عارفا
بقيمتها ، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخيك ؟ وإن جهلك
ليحملك على العود لمنها ، فلا تجد مثل هذا الشافع في منهاها
من عقوبة ! ”

فقال : « ولعل فتوحات الامير يقترب اتصالها ،
باتصال جهلي وذنبي ، فتشفع لي متى أتيت بعشل هذه الزلة ،
لا أعد منها الله ! »

فتنهى وجه الامير ، وقال : « ليس هذا باعتذار
جاهل ! » ثم قال : « نبهونا على أنفسكم ، اذا لم تجدوا من
ينبهنا عليها ! » ورفع مرتبته ، وزاد في عطائه .

(٤)

ميمه الى الجد

ولولا تكاليف العلى ، ومقارن
ثقال ، وأعقاب الأحاديث في غد
لأعطيت نفسي في التخلص مرادها

فذاك مرادي مذنشأت ومقصدى (١)

ولاحسينا في حاجة الى التدليل على ميل الداخل الى
الجد وعزوفه عن الملاهي ، فمقد يكون في كل ما مر أمثلة
مقنعة ، يتجلى فيها دوّبه وميمه الى الجد ، على أنفالاً زرى ،

(١) الشعر للطغرائي

مع ذلك ، بأسم الاستشهاد بالمثاليين التاليين :

« لما خرج من البحر أول قدومه إلى الأندلس ، أتوه بخمر ، فقال : « إنى محتاج لما يزيد في عقلى ، لا لما ينقصه ! ولما أهديت له جارية جميلة ، نظر إليها و قال :

« إن هذه من القلب والعين بعكان ، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ، ظلمتها ، وإن اشتغلت بها عمماً أطلبه » ظلت همتي ، ولا حاجة لي بها الآن » وردها على صاحبها وهكذا أنساء الطموح إلى المجد ، وشغالت فكرته النبيلة عن مواطن اللام و السرور
وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها إلا جسام

(٥)

فضله

كيف وصفه أبو جعفر المنصور

وقد اعترف له بزياته النادرة التي انفرد بها دون غيره ،
أبو جعفر المنصور الذي كان (كما يقولون) ، بصدق حسه ،
وبعد غوره ، وسعة احاطته ، يسترجع الداخلي كثيرا ، ويعدله

بنفسه ويكثر ذكره، ويقول :

« لاتعجبوا الامتداد أمننا، مع طول مراسه وقوه
أسبابه ، فالشأن في أمر فتى قرياش الا حوذى الفذ في جميع
شؤونه ، وعدهم لا اهله وذنبه ، وتسليميه عن جميع ذلك ببعد
مرقى همةه ، ومضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه في لج المهالك
لابقاء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطعم ، عصبية
الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته وقع بعضهم ببعض
بقوة حياته . واستهال ثلوب دعيمها بضيئه سياساته ، حتى انقاد
له عصبيتهم ، وذل أيهم ، فاستولى فيها على أديكته ، ملما
على قطيمته ، قاهر الاعدائهم ، حامي الدماره ، مانعا لحوزته ،
خالط الرغبة اليه بالرهبة منه ، إن ذلك فهو الفى كل الفتى ،
لا يكذب ماده (١) ،

أوصافه

كان أصهب ، خفيف العارضين ، بوجهه خال ، طويلا
القامة ، نحيف الجسم ، له صفيرتان ، أعيور ، أخشم (٢)

(١) هذا أبدع ما قرأتناه في وصف الداخل (٢) لا يشم

أدبها

شعرها^(١)

- ١ -

ورث الأمويون عن أسرتهم حب الشعر والموسيقى
والبلاغة الراقية ، وقد هاموا بها ، واحبواها كثراً مما أحبوا
القرآن ، ولأنه صحت نسبة تلك الأبيات المشهورة ، التي
قيمت في النخلة ؛ إلى صقر قريش ، عبد الرحمن الأول ،
لدل ذلك على أنه يجن تحت منظرة الخارجى الخشن ، احساسا
غاية في الرقة ، فقد حكم رأى في أحدى حدائق
قرطبه نخلة منفردة ، جلبوها من سوريا ، وإنه ليشخص
ببصره اليها ذات يوم ، إذ تذكر أرض وطنه ، وأحس ببرارة
النفف والغربة ، فقال^(٢)

(١) معرية عن كتاب الاستاذ زيكارون

(٢) لم يتحقق لما الرجوع الى الاصل العربي لملك الأبيات ، وقت

يَا نَخْلٌ ! أَنْتَ فَرِيدَةٌ مُثْلِّهٌ
فِي الْأَرْضِ ، نَائِيَّةٌ عَنِ الْأَهْلِ

القاء الحاضرة ، فاضطربنا الى ترجمتها حينئذ ، ولا بأس من اثبات تلاميذ الترجمة بعد ان عثرنا بأصواتها العربية ، لتكون في هذه المرة شرحا لابيات :

« أَيْتَهَا النَّخْلَةُ ! أَنْتَ هُنَا غَرِيبَةً فِي بَلَادِ الْمَغْرِبِ أَنْتَ بَعِيْدَةٌ
عَنْ مَوْطِنِكَ الشَّرْقِيِّ ، أَنْتَ شَبِيهُنِي فِي النَّعَاسَةِ - ابْكِي أَيْتَهَا
النَّخْلَةُ ! وَلَكَذَكَ لَا تَسْتَطِعُ بَيْنَ الْبَكَاءِ ، أَيْتَهَا الشَّجَرَةُ الْخَرْسَاءُ
الْكَسِيْفَةُ الْبَالِ . لَيْسَ مُثْلِكَ مِنْ يَرْثِي لَهَا ! آه ! لَشَارَكْتَنِي فِي
الْبَكَاءِ ، لَوْ كَانَ لِدِيلِكَ مِنْ دَمْوعٍ أَسْكَبَيْنَهَا ، عَلَى رَفَاقِ لَكَ عَلَى شَوَّاطِيِّ
الْفَرَاتِ ! وَلَكَنِكَ لَا تَذَكَّرِينَ شَيْئاً حَمَاهَا هُنَا لَكَ فِي تَلَكَ الْأَحْرَاسِ
الْبَاسِقَةِ كَمَا اذْكُرُ أَنَا ! فَلَقَدْ انسَانِي اصْدَقَائِي كَرَاهِيَّتِي لِلْأَعْدَاءِ !
وَقَدْ وَرَدَ فِي الشَّطَرِ الْآخِيرِ بَدْلَ كَلَمَةِ الْأَعْدَاءِ فِي الْأَصْلِ بَنْوَ الْعَبَاسِ .

O Palm, thou art a stranger in the West,
Far from thy Orient home, like me unblest.
Weep ! But thou canst not. Dumb, dejected tree,
Thou art not made to sympathise with me !
Ah ! thou wouldst weep, if thou hadst tear
to pour,

For thy companions on Euphrates'shore,
But yonder tall groves thou remembrest not
As I, in hating foes, have my old freinds forgot.

بَكَى، وَهَلْ تَبَكَّى مَكْمَة
عِجَاء، لَمْ تَجْبِلْ عَلَى جَبْلِي؟
وَلَوْ آتَاهَا عِقْلَاتْ، إِذْنَ لِبَكْتْ
مَاءَ الْفَرَاتْ وَمَنْدَتْ النَّخْلْ
إِلَكْنَهَا حَرَمَتْ، وَأُخْرَجَنْيْ
بَغْضَيْ بَنِي الْعَبَاسْ عَنْ أَهْلِ
وَقَدْ ذَكَرْ لَهُ الْمَقْرَى أُبَيَّا تَا اخْرَى قَالَهَا فِي النَّخْلْ، ١٠٥

٢

وَالْأُبَيَّاتْ إِلَى عَنَاهَا نِيكَلَسُونْ هِيْ :
تَبَدَّلْتْ لَنَا وَسْطَ الرَّصَافَةِ نَخْلَة
تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ بَلْدِ النَّخْلِ
فَقَلَّتْ : وَشَبِيهِي فِي التَّغْرِبِ وَالنَّوْيِ
وَطَوْلِ ابْتِعَادِي عَنْ بَنِي وَعَنْ أَهْلِي،
نَشَأْتْ بِأَرْضِ أَنْتْ فِيهَا غَرِيبَة
فَنَمَلَكْ فِي الْأَفْصَاءِ وَالْمَنْتَأَى مِثْلِي
سَقْتَكْ غَوَادِي الْمَزْنِ فِي الْمَنْتَأِي الَّذِي
يَسْعِحُ وَيَسْتَهْرِي عَلَيْهَا كَيْنَ بِالْوَبْلِ

ولقد تتبينون من هذه الأبيات، حنينه وشغفه ببلاده
وعطافه على وطنه

وقد صدق، فأى إنسان حساس شريف النفس؛ يستطيع
أن يتلهى عن وطنه الذى نشأ فيه، ولو بكل نعيم العالم
ولذاته؟ وليس مثل عبد الرحمن من ينسى بلاده إلى انطبع
جها في شغاف قلبه. فلقد مات وهو يذكرها، وقد حن
إليها مراراً في أشعاره

ولن يكون عبد الرحمن الداخل أفل حنينا إلى أرضه
ووجداً إلى عيشه الأول - من تملك العربية المشهورة التي آثرت
عيشهما الخشن على كل ما فيه من قصور ملوك بنى أمية من
صنوف اللذات وأفاني الترف والآهـ، وقالت يديها المشهورة:
ولبس عباءة وتقر عيني أحب إلى من ليس الشفوف

٣

وقد روى له الشيخ محى الدين بن علي التميمي المراكشي
صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار الغرب، الأبيات
التالية التي بعث بها إلى اخته وهي الشام وهي :

أيها الراكب الميغم ارضي
افر من بعفي السلام ابعضي
إن جسمى كما نامت بأرض
وهوادى وساكنيه بأرض
قدر البين يدننا فافترقنا
وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفارق علينا
فعسى باجتماعنا سوف يقضى !

وائى صحت نسبة هذه الاشعار اليه وعرفنا من عزم قائلها :
وهمامة نفسه الى اصغرت كل مأرب، ما عرفناه - فاز قوله
في البيت الأخير
قد قضى الله بالفارق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى
يدل على احلام وامان بعيدة ، كان يحيش بها صدره ،
وتنطوى عليها نفسه الوذابة الى لم تقف عند حد
نعم يدل على أنه كان يطمح لو مد الله في عمره الى غاية
يصغر أمامها كل ما أدركه من ذلك العظيم الذي كان يعد
الحصول عليه حلما . . . !

وماذا يريد بقوله : «فعمى باجماعنا سوف يقضى»
الآن أنه كان يحلم أيضاً بالتعزب على الدولة العباسية ، التي اجتثت
شأفة الامويين ، والقضاء عليهم ، بعد أن يوطد ملوكه في الاندلس ،
وليس يعلم الا الله وحده ماذا كان يكون لو لم تعترضه
تلك العقبات المؤئنة ، من إباء العرب وعصبيتهم ، وتمرد
المسيحيين من الأسبان ، إلى غير ذلك . وربما كان اشتغاله
بإطفاء تلك الفتنة ، وتوطيد دعائم مملكته وسحق العصابة ،
الأمر الذي استغرق كل مدة حكمه على طولها ، هو الذي
جعل هذه الأممية في عداد الأحلام ! ولقد يعوزه هذا
الاستنتاج ، البرهان التاريخي ، ولكننا قد نجد من وصف
العلامة ابن خلدون لعبد الرحمن الداخل ما يزيدنا استقراضاً كـ
ـ بهذا الرأي وبجعلنا أميل إلى ترجيحه ، قال :
ـ «وكان (عبد الرحمن الداخل) يدعو إلى المنصور ،
ـ ثم قطعها لما تم له الملك بالأندلس ، وهو هدأ أمرها ، وخلد لبني
ـ هروان السلطان بها ، وجدد ما طمس لهم بالشرق من معالم
ـ الخلافة وأثارها ، واستلهم الثوار في نواحيها ، وقطع دعوة
ـ العباسيين من منابرها ومد المذاهب منهم دونها »

فَلَقَدْ تَبَيَّنُونَ مِنْ ذَلِكَ طَرِيقَتِهِ الْحَكِيمَةِ فِي التَّدْرِجِ
مِنْ صَغِيرٍ إِلَى كَبِيرٍ، فَقَدْ كَانَ يَطْمَعُ، فِي أُولَأَمْرَهُ،
إِلَى جَمْعِ الْأُمُورِ فِي يَدِهِ. وَلَوْ تَحْتَ سُلْطَةِ الْعَبَاسِيِّينَ، وَسَاعَدَهُ
ذَلِكَ عَلَى بَلوغِ إِرْبَاتِهِ، فَلَمَّا تَمَّ لَهُ هَذَا الْخُطُوةُ الْكَبِيرَةُ،
خَطَا خُطُوةً ثَانِيَةً لَا تَفْلُغُ عَنْهَا شَأْنًا، فَنَادَاهُ الدُّعَوَةُ الْعَبَاسِيَّةُ
وَعَمِلَ عَلَى إِبْطَالِهِ، فَنَجَّحَ فِي سَعيِهِ، وَاسْتَقْبَلَ بِأَعْبَاءِ هَذَا
الْمَلَكِ الْعَظِيمِ، وَنَظَمَ الْبَلَادَ وَمَحَقَ الْمَعْصَيَا وَأَخْمَدَ الْفَتْنَ، بِعِزَّتِهِ
صَادِقَةً، وَهُمْ دَائِبَةٌ لَا تَعْرِفُ الْكَلَالَ، فَلَا غَرَوْ إِذَا
اسْتَنْتَاجْنَا مِنْ قَوْلِهِ :

فَعَسَى بِأَجْمَاعِنَا سُوفِيَّةَ قَضَى
قَدْ قَضَى اللَّهُ بِالْفَرَاقِ عَلَيْنَا أَنَّهُ كَانَ يَحْلِمُ أَيْضًا بِكُلِّ الْعَبَاسِيِّينَ، وَتَنْتَيْهُ نَفْسُهُ بِالتَّغْلِبِ
عَلَيْهِمْ ! وَهَذَا مِنْ اسْتِنْتَاجْنَا الْخَاصُّ، وَرَبِّنَا أَيْدِنَاهُ أَوْ عَدَلَنَا
عَنْهُ، إِذَا اطْلَعْنَا عَلَى مَا يَؤْيِدُهُ أَوْ يَنْفِيهِ فِيهِ بَعْدَ (١)

(١) نَاقَشَنَا بِعِضٍ أَخْوَانَنَا فِي هَذَا الْاسْتِنْتَاجِ فِي حِينَهِ ؛
وَاتَّهَمُنَا بِعِضُوهُمْ بِالْمُفَالَةِ وَالْأَغْرِقَ فِي الْخَيَالِ، وَحَسِبُوا أَنَّنَا
أَمْرَفَنَا فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْبَيْتِ، وَزَعَمُوهُمْ بِعِضُوهُمْ، بِكُلِّ جَرَأَةٍ، أَنَّ
نَارَنْجِيْخَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلَ تَقْسِهِ يَنْاقِضُ هَذَا الْاسْتِنْتَاجَ وَيَثْبِتُ

3

وَمَا نَخْتَارُهُ مِنْ شِعْرٍ قَوْلُهُ - بَعْدَ أَنْ اسْتَقَامَتِ الدُّولَةُ
لَهُ - حِينَ بَلَغَهُ عَنْ بَعْضِ مَنْ أَعْانَهُ أَنَّهُ قَالَ : " لَوْلَا أَنَا ،

فساده ، وقد أصررنا حينئذ على رأينا حتى نعثر بمستند تاريخي
يعززه أو ينفيه ، أما الآف فقد توافرت لدينا الأدلة التاريخية ،
التي لا تدع مجالا للشك في صحته ، وعليك ما قاله ابن خلدون
في ذلك

ما توصل لهذا الملك ، وكان منه أبعد من العيوق ، وأن آخر قال : « سعده أعاذه لاعقله » ، فقال مفند الملك المزاعم :

لا يلف ممتن علينا قائل :
« لولاي ماملك الا نام الداخل ! »

ملوكه ، ولقي منهم خطوبًا عظيمة ، وكانت العاقبة له ، واستراسب في آخر أمره بالعرب لكثره من قام عليه منهم ، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم ، واتخاذ الموالي ، ثم غزا الأفرنج والبشكنش ومن وراءهم ورجع بالظفر »
وهذا يقول ابن خلدون :

« وكان في نيته أن يجدد دولة بنى مروان بالشرق فات دون ذلك الأمل »

ومما قاله المقرى في ذلك :

« وأشاع (الداخل) سنة ١٦٣، الرحيل إلى الشام؛ لأنزاهها من بنى العباس ، وكتب جماعة من أهل بيته ومواليه وشيعته ، وعمل على أن يستخلف ابنه سليمان بالأندلس في طائفة ، ويذهب بعامة من أطاهه ، ثم أعرض عن ذلك بسبب أمر الحسين الانصاري الذي انزى عليه بسر قسطه ، فبطل ذلك العزم » ا . ه

سعدى ، وحزمى ، والمهند ، والقنا
 ومقدار بلغت ، وحال حائل
 إن الملوك مع الزمان كواكب
 نجم يطالعنا ، ونجم آفل
 والحزم كل الحزم ألا يغلووا
 آيروم تدبر البرية غافل ؟
 ويقول قوم : « سعده لا عقله »
 أبى أمية ! قد جبرنا صدعكم
 بالغرب رغما ، والسعود قبائل
 ما دام من ذسل إمام قائم
 فالملك فيكم ثابت متواصل

* * *

وقوله يحيى ببعض من وفدى عاليه من قومه ، لما سأله
 الزيادة في رزقه ، واستقبل ما قابلته به ، وذكره بحثة ، فلكتب
 اليه بالأبيات التالية :

شتان من قام ذا امتعاض
منتهى الشفترین نصلـا
نجاب قفراً، وشق بحراً
مساميـا لـة ومحلاً
دبر ملـكاً، وشاد عـزا
ومنبراً لـ الخطاب فـ صـلا
وجند الجـ مدـ حينـ أـودـيـ
ومصر المـصرـ حـيفـ أـخـلاـ
ثم دعا اـهـلهـ إـلـيـهـ
حيثـ اـنـتـأـواـ آـنـ هـلـمـ أـهـلاـ
بغاءـ هـذاـ طـرـيدـ جـوعـ
شدـيدـ روـعـ، يـخـافـ قـتـلاـ
فـنـالـ أـمـناـ، وـنـالـ شـبـعاـ
ونـالـ مـالـاـ، وـنـالـ أـهـلاـ
أـلـمـ يـكـنـ حـقـ ذـاـ عـلـىـ ذـاـ
أـعـظـمـ مـنـ مـنـعـ وـهـولـيـ؟

وفي هذه الأبيات والتي قبلها صورة صادقة تتمثل
عندما نفس عبد الرحمن الوثابة، ونطاع فيها صفة موجزة
من تاريخه الحافل بالعظائم .

ناشر

أما نثره ، فقد حاقد في سماء عالية من البلاغة ، لم يسم
إليها شعره الجميل ، الذي يعجبنا فيه جمال الصدق المتجلى به ،
وتأثير العاطفة المنبعث عنها ، وطموح نفس قاتله ، وما ينفعنا
به أثناء قراءته من الذكريات الجليلة ، وما نحسه فيه من
العزمات الصادقة ، التي تزيد إعجابنا به

* * *

ولكن نثره - زيادة على أنه قد جمع كل هذه الميزات
النادرة - يمتاز عن شعره بما فيه من الانسجام والعمق
والإحكام وإن شاركه في الدقة والحسن
وإليكم بعض أمثلة من نثره ، نستبدل بها على شدة
عارضته ، وقوة حجته ، وعلو طبقته في البلاغة ، سواء في
ذلك بداهته ورؤيته :

— ١ —

حادي عشر

ونبدأ بالحكاية التالية التي نتمثل فيها سرعة جوابه
وحضور ذهنه ، ووفور أدبه :

حكوا أنه كان في بعض مجالسه ، فسئل بين يديه رجل
من جند قنسرين يستجديه ، فقال له : « يا ابن الأخلاق
الراشدين ، والسادة إلا كرمين ، إليك فردى ، وبك عدت
من زمن ظلوم ، ودهر غشوم ، قلل المال ، وكثر العيال ،
وشئت الحال ، فصبرت إلى نداك المال ، وأنت ولي الحمد
والحمد ، المرجو للمرفد » ،

فأجابه عبد الرحمن مسرعاً :

« قد سمعنا مقالتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بموتك
على دهرك ، على كرهنا لسوء مدة المالك ، فلا تعودن ولا سواك
لمثله ، من إرافة ماء وجهك بتصریح المسألة واللاحاج في
الطلبة ، وإذا ألم بك خطب ، أو حزبك أمر ، فارفعه إليينا
في رقعة لا تغدوك ، كما تستر عليك خلقك ، وتکف

شمات العد و عنك ، بعد رفعك لها إلى مالك و مالكنا
عز و جه ، - بخلاص الدعاء ، و صدق النية ،

قالوا : « وأمر له بجائزه حسنة ، و خرج الناس يعجبون
من حسن منعطفه ، و براءة أدبه . وكف فيما بعد ذوق الحاجات
عن مقابلته بها شفافها في مجلسه »

* * *

أو جز ما يقال في هذه الكلمة ، أنها تشرع حكيم ،
و قانون عادل ، سنه لشعبه في هذه الاسطور القليلة ، حتى
لا يتورط أحد منهم في مثله مرة أخرى ، وقد لام في هذا
التشريع الموجز ، بين ما تطالبه دين قراطية نفسه ، وما تقتضيه
أدرست قراطية الملك ، و جم في ذلك الجواب بين الحزامة
والارتجالية ، والتعنيف والعطف ، ولم يعزب عن باله أن
حرماه هذا السائل .. على ما قد يكون به من عوز - قتل
له ، و مجال لشمانة أعدائه به ، كما أن صلته من غير تقييع
شدید ، قد تفتح عليه بابا يستنفذ كل ما في خزانة من
المال ، دون أن يفني بحاجة كل محتاج ، وفي جملة الأخيرة
آبعد رد على عبارة الماق التي ختم بها ذلك السائل كلامه .

أما الأسلوب الذي صيغت فيه هذه الكلمة المرتجلة فهو
في نظرنا ، في ذروة البلاغة العربية ، لفصاعته ودقته ، وهذا
ميزان كاد ينفرد بهما أسلوبه من بين الأماء

* * *

وإيمكم ، شالا آخر من بلاغته :

حدث بعض موالي عبد الرحمن الخاصين به ، أنه دخل
عليه ، إثر قتله ابن أخيه الغيرة بن الوليد ^(١) وهو مطرق
شديد الغم ، فرفع رأسه إليه وقال :

” ما عجبني إلا من هؤلاء القوم ، سمعينا فيما يصيغون
في مهاد الأم من النعمة ، وخطرنا فيه بحياته ، حتى إذا

(١) كان الداخل بعد أن استتب ملائكة بالأندلس ، شهدوا
الارتفاع إلى وفود أقاربه من ذي مروان ، ليشاهدو أنهم الله عليه
فتواحدوا عليه ، وكان منهم اليزيدي وعبد الله ابن أبيان بن معاوية
وهو ابن أخي الداخل ، وكانت تحت تدبير يبرمانه في طاب الأمر ،
فوثقى بها أحد موالي الثاني ، وما قاله بعد فتاهها : « اعظم
ما أنتم الله به علي ، بعد تكثي من هذا الأمر ، القدرة على ايواء
من يصل إلى من أقاربي ، والتوسيع في الاحسان إليهم ، وكبرى
في أعينهم وأهمها لهم ونفوسهم ، بما منحني الله من هذا السلطان
الذي لامنة على فيه لا حد غيره »

بلغنا منه مطلوبنا ، ويسرا الله أسبابه ، أقبلوا علينا أمم
السيوف ، ولما اوليائهم وشاركتناهم فيما أفردنا الله به حتى
أمنوا ودرت عليهم أخلاق النعم ، هزوا وأعطافهم ، وسمحوا
بأنفهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحنا الله ، نخذلهم
بكفرهم النعم ، إذ أطعننا على عوراتهم ، فما جلناهم قبل أن
يعاجلوна ، وأدي ذلك إلى أن ساء ظننا في البريء منهم ،
وساء أيضا ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغييرنا عليهـ ،
ما نتوقع نحن منه ، وإن أشد ما علىـ في ذلك أخي ، والد
هذا المخذول ، كيف تطيب لـ نفس بجاورته ، بعد قتل ولده ،
وقطع رجـه ، أم كيف يجتمع بصرـي مع بصرـه ، اخرجـ اليـه
الساعة فاعتذرـ اليـه ، وخذـ خمسـة آلاف دينـار ادفعـها إـليـه ،
واعزمـ عليهـ في الخروـج عنـي منـ هذهـ الجـزـيرـة إلىـ حيثـ شـاءـ
منـ برـ العـدوـة (١) ،

(١) قال : « فـلـما وصلـتـ إلىـ ابنـ أخيـه ، وـجـدـهـ أـشـبهـ بالـأـمـوـاتـ
ـمـنـهـ بـالـاحـيـاءـ ، فـآنـتـهـ وـعـرـفـتـهـ وـدـفـعـتـ لـهـ المـالـ ، وـأـبـلـغـتـهـ الـكـلامـ ،
ـفـتـأـوـهـ وـقـالـ : « اـذـ اـمـشـؤـومـ لـاـ يـكـوـنـ بـلـيـغاـ فـيـ الشـؤـومـ حـتـىـ يـكـوـنـ
ـعـلـىـ نـقـسـهـ وـعـلـىـ سـوـاهـ ، وـهـذـاـ الـوـلـدـ الـعـاقـ الـذـيـ سـمـيـ فـيـ حـتـفـهـ ،

- ٣ -

خطابته

أما خطبه فلم يصان منها إلا بعض كلامات وجيزة ، كان يحث بها هم أصحابه ، ويأب نار الحماس في قلوبهم ، فلن ذلك قوله لهم حين اشتد الضرب بين يديه ، يوم حربه مع الفهري :

« هذا اليوم هو أساس ما يبني عليه ، إما ذل الدهر ، وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تنتهي ، تريحوا بها بقية أعماركم فيما تشهرون » (١)

قد صری ما سعی فيه الى رجل طلب العافية وقنع بكسر بيت في كشف من يحمل عنه معاشرة الزمان وكله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، ولا مرد لما حکم فيه به وقضاء في الحركة الى بر العدوة »
قال : « فلما رجعت الى الامير ، فأعلمه بقوله قال : « انه نطق بالحق ، ولكن لا يخدعني بهذا القول بما في نفسه ، والله لو قدر أن يشرب دمي ما اعف عنه لحظة ، فالحمد لله الذي أظهرنا عليهم بما ذويناه فيهم ، وأذهم بما نووه فيها »

(١) وقد ذكر له المرحوم محمد دياب بك في كتابه « تاريخ

— ٣ —

كتاباته

ولعل أسمى ذروة وصلت إليها بلاغته ، هي ما نشاهده

العرب في إسبانيا ، خطبة قالها رداً على تمام (الذى قدمنا ذكره في ص ٢٩) حين عرض عليه إمارة الاندلس باسم الوفد الذى أتى معه ، متقدماً إليه ، فائلاً :

«أجمع المسلمون الصادقون على انتخابك أمير الجزيرة ،
فيسمك أن تبني فيها ملكاً مشيداً لarkan ، موطداً للدجاءم ، على
أساس أقوى من الجبال ، معتمداً على عزائمهم القوية ، وطاهتهم
الصادقة ، لا ريب أن ستتجدد مقاومتك وبعض خطر ، ولكنك
لست وحدك ، بل بجانبك فتيان أشداء من أبناء من فتحوا
الغرب ، وشعوب ترحب فيك وتدعوك إليها ، ونحن جميعاً نهب
إلى الولي ، ونبذل الأرواح في سبيل ارتقاءك إلى عرش الإمارة
التي تلقى مقايليدها إليك ، وتحفظ بنيانها من أن يثلم »

فسكت عبد الرحمن هنئه يتوقع منه أن يتم خطابه ، لكنه
شهر أن الوفد ينتظر أجابتته فخطبهم بقوله :

أيها السراة الاجماد ! اجابة لرغائبكم ، وسعياً وراء أمانكم
في اصلاح شؤون مسلمي إسبانيا ، أذهب ممكم ، باذلا النفس ، في

في رسائله مع مولاه بدر، حين غضب عليه، لشدة
عجبه وامتنانه عليه، ففي تلك الرسائل تتمثل ذلك القلب
الكبير مضطربا جائشا، كما يصطبخ الخضم الراخر، عند
اشتداد العاصفة، وثم نرى صفحات مشرقة من البلاغة العربية،
متفردة بأسلوبها القوى، ومحانيمها الباهرة:
ونبدأ بما كتبه إلى مولاه بدر، ردًا على رسالة بعث
بها إليه ^(١) قال:

سبيل الدفاع عن هذه الفانية الحميدة، فإذا صدق عزائمكم،
ودامت طاعتكم وفتح الله لنا باب النفوز، رأيتم مني أخلاقة
يقاومكم الشقاء والهباء، يعلم الله أني لا أخشى الشدائد ولا هوا
الحروب ولا أرعب الموت الأجر، فقد عركني الدهر وعركته،
وકثيراً ما ركب متون الآثار على حداثة سنى، وإذا كان
ما يدعوني إليه هو رغبة مسلحي الانداص الاشراف، فأنا أجي
نداءهم وأقبل أن أكون أميرهم، وحامي ذمارهم إن شاء الله»

* * *

ونحن نرتاب في اسلوب هاتين الخطبيتين، لضعفه وبعده عن
اسلوب ذلك المصر، ولعلهما ترجمتا عن لغة أجنبية - بعد ان ضاع
اصاها العربي، أو لعلنا واهموذ في ذلك!
(١) بعد ان سمع بدر في نأسيس دولة عبد الرحمن، صحبه

”وقفت على رقعةٍ من البَيْهَةِ عن جهلك، وسوء خطملك،
وَذِنَاءَةِ أَدْبِكَ، وَائِمَّ مُعْتَقَدِكَ، وَالْمَجْبُ أَنْكَ مَتَى مَا أَرْدَتَ
أَنْ تَبْنِي لِنَفْسِكَ عِنْدَنَا هَذَا نَاراً، أَتَيْتُ بِمَا يَهْدِمُ كُلَّ مَقَاتٍ مُشَيَّدَ
فَمَا تَمَنَّ بِهِ - مَا قَدْ أَضْجَرَ الْأَسْمَاعَ تَكْرَارَهُ، وَقَدْحَتْ
فِي النُّفُوسِ إِعَادَتِهِ - اسْتَغْنَرَنَا اللَّهُ مِنْ أَجْلِهِ، عَلَى أَنْ أَمْرَنَا
بِاسْتَهْصَالِ مَالِكَ، وَزَدَنَا فِي هَجْرَكَ وَإِبْعَادِكَ، وَهَضَنَا جَنَاحَ
إِدْلَاكَ، فَهَلْ ذَلِكَ يَقْعُمُ مِنْكَ وَيَرْدُعُكَ، حَتَّى يَلْغُ بِكَ

عجيب وامتنان فبدأ يقول : « بعثنا أنفسنا ، وخارطنا في شأن
من هانت عليه لما بلغ أقصي أمره ، » وقال مرة حين أمره بالخروج
إلى غزوة : « إنما تعينا لفترة أخيراً ، وما أرانا إلا في أشد مما
كنا » واكثر من تردید مثل هذا الكلام وأشباهه فأعرض عنه
الداخل وهجره ، فتمادي بدور في تبرهه ، حتى كتب له رقعة منها :
« أما كان جزائى في قطع البحر وجوب القفر ، والاقدام على
تشتت نظام مملكته ، واقامة أخرى ، غير الهجر الذي أهانى
في عيون أكفارى ، وأشئت بي اعدائى ، وأضعف أمري ، ونحي
عند من يلوذ بي ، وبتر مطامع من كان يكرمني ويحمدني على
الطعم والرجاء ، وأظن اعداءنا بنى العباس لو حصلت بأيديهم ،
ما بلغوا في أكثر من هذا ، فانا لله وانا إليه راجعون ! »

ما نريد - إن شاء الله - فنحن أولى بتقاديمك من كل أحد ،
إذ شرك مكتوب في مذابحنا ، وخيرك معدود في مناقبنا ^(١) ،

* *

وبعث إليه بدر برسالة ^(٢) فكتب يحييه :

”إن لك من الذنوب المترادفة ، ما لو سلب معها
روحك ، لكان بعض ما استوجبه ، ولا سبيل إلى رد
مالك ، فإن تركت بمعزل ، في باهنية الرفاهية ، وسعة ذات
اليد ، والتخلى من شغل السلطان ، أشبعه بالنعمه منه بالنقمه ،
فلا يأس من ذلك ، فإن اليأس مريح ،“

* *

وكتب إليه بدر يستغطفه في يوم عيد ، ^(٣) فكان

(١) وقد أشفع عبد الرحمن هذا الوعيد بتوجيهه من
استئصال ماله ، وألزمته داره ، وهتك حرمته ، وأسقط جاهه
(٢) يقول فيها : « قد طال هجرى ، وتضاعف ههى وفكري ،
واشد ما على كوني سليبا من مالى ، فعسى ان تأمرلى باطلاق
مالى ، وأنحدبه في معزل ، لا أشتغل بسلطان ، ولا أدخل في شىء
من أموره ما عشت »

(٣) لما وفاه العيد ، ورأى حاجة من يلوذ به ، وهمهم بما

جوابه عليه أَنْ أَمْرَ بِنَفْيِهِ عَنْ قِرْطَبَةِ إِلَى أَفْصَى النَّغْرِ ،
وَكَتَبَ لَهُ فِي ظَهَرِ رَقْعَتِهِ :

وَلَمْ يَلْمِمْ أَنْكَ لَمْ تَزَلْ بِعِقَدِكَ ، حَتَّى ثَقَلَتْ عَلَى الْعَيْنِ طَلْعَتِكَ
ثُمَّ زَدَتْ إِلَى أَنْ ثَقَلَ عَلَى السَّمْعِ كَلَامَكَ ، ثُمَّ زَدَتْ إِلَى أَنْ
ثَقَلَ عَلَى النَّفْسِ جَوَارِكَ ؛ وَقَدْ أَمْرَنَا بِأَفْصَائِكَ إِلَى أَفْصَى
النَّغْرِ ، فَبِاللَّهِ إِلَّا مَا أَفْصَرْتَ ، وَلَا يَلْمَعْ بِكَ زَانِدَ الْمَقْتَ إِلَى
أَنْ تُضِيقَ بِكَ مِنِ الدُّنْيَا
وَرَأْيَكَ تَشَكُّو بِفَلَانَ ، وَتَقَالِمُ مِنْ فَلَانَ وَمَا تَقُولُوهُ
عَلَيْكَ ، وَمَا لَكَ عَدُوٌ أَكْبَرُ مِنْ لِسَانِكَ ، فَإِذَا طَاحَ بِكَ غَيْرُهُ ،
فَاقْطُعْهُ قَبْلَ أَنْ يَقْطُعَكَ ،

يُفْرِحُ بِهِ النَّاسُ ، كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِ رَقْعَةً مِنْهَا :
« وَقَدْ أَنْتَ هَذَا الْمِيدُ الَّذِي حَالَفْتَ فِيهِ مِنْ أَسْاءِ إِلَيْكَ ، وَهِيَ
فِي خَرَابِ دُوايْكَ ، مَنْ عَفَوْتَ عَنْهُ فَتَبَذَّكَ النِّعْمَةُ فِي ذِرَّكَ ،
وَاقْتَمَدَ ذِرْوَةُ الْعَزِّ ، وَأَنَا عَلَى ضَدِّ مِنْ هَذَا ، سَلِيمًا مِنِ النِّعْمَةِ ،
مَطْرَحًا فِي حَضِيرَنِ الْهَوَانِ ، أَيْأَسًا مِمَّا يَكُونُ ، وَاقْرَعَ السَّنَنَ عَلَى
عَلَيْ مَا كَانَ »

أثر الداَخِل فِي الْحُضَارَةِ الْإِنْدُلُسِيَّةِ

نَظَرَةٌ خَتَامِيَّةٌ

وَجَهَ الدَاَخِلُ عَنْيَاهُ خَاصَّةً إِلَى الْآدَابِ وَالْعِلْمَوْنِ وَالْفَلْسَفَةِ ،
وَأَكْثَرُ مِنْ عَقْدِ الْاجْتِمَاعَاتِ الْأَدِيَّةِ وَالْعَامِمَيَّةِ وَالْفَلْسَفَيَّةِ ،
بِالرَّغْمِ مِنْ اشْتِغَالِهِ بِإِطْفَاءِ الثُّورَاتِ وَمَكَافَةِ الْمُغَيْرِينَ ؛
وَالْقُضَاءُ عَلَى الْفَوْضَى الَّتِي كَانَتْ تَنْذِرُ الْبَلَادَ الْإِنْدُلُسِيَّةَ
بِالْخَرَابِ بَيْنَ آنَّ وَآخَرَ .



وَلَمْ يُشَغِّلْهُ ذَلِكُ عَنِ الْعُنْيَاهُ بِفَنِي الزَّرَاعَهُ وَالْعَمَارَهُ أَيْضًا
فَعَمِلَ عَلَى انْهَاضَهَا ، وَمَا زَالَ بِهَا حَتَّى بَلَغَا شَأْوا بَعِيْدَهَا ،
وَأَصَبَّهُتْ قَرْطَبَهَا عَلَى عَهْدِهِ - تَحَاكَى مَدِينَهُ بَغْدَادَ ، فِي
اَتِسَاعِ شَوَارِعِهَا ، وَضَخَامَهُ مَبَايِهَا ، وَكَثُرَتْ فِيهَا الْحَمَامَاتِ
وَالْفَنَادِقَ ، وَانْتَشَرَتِ الْبَسَاطَيْنِ عَلَى طُولِ ضَفَّهَا الْوَادِيِّيِّ
الْكَبِيرِ ، وَزَادَ عَدْدُ الْمَدَارِسِ الَّتِي أَكْثَرَ مِنْ بَنَاهُهَا



وَشَرَعَ فِي بَنَاءِ الْجَامِعِ الْمُشْهُورِ بِجَامِعِ قَرْطَبَهَا سَنَةَ ١٧٠

واخرج عليه مائة الف دينار (كما يقولون) ، وقد ذكره
أن ذلك الجامع كان فذا في نوءه ، وأن من بدائعه
احتواه نحو ثلاثة وسبعين طاقا ، على عدد أيام السنة ،
تدخل الشمس كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود ،
وأن فيه نورا من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، وأن
فيه مصحفا يحيط عمان بن عفان

* * *

أكثراً الداخل ، من ضروب الاصلاح ، وعمل على
توطيد الأمان ، فرغم كثیر من المشارقة في الذهاب إلى تلك
البلاد ، وقد شجّعهم الداخل على ذلك ، بكل الوسائل
الممكنة ، وافاتح في لم شعث أفراد بني أمیة ، فـكان لهم
أكبر فضل على اللغة العربية والأدب العربي ، وانتفت
الأندلس بهواههم ، التي ظهر اثرها واضحاً في البلاغة
الأندلسية .

* * *

(وبعد) فـإن عبد الرحمن الداخل رجل عبقري فذ ، وهو
واحد من قليلين ممن يفخر بهم التاريخ العربي والأدب العربي

والآن فلنودعه - وفي قلوبنا له أجمل الذكرى -
ونحن على أمل بلقياه في فرصة أخرى - نرجو أن تكفنا
الظروف منها ، فنفي له ببعض حقه علينا في رسالة نفرده بها ^(١)

(١) أخبار الداخل طويلة ممتدة ، فليرجع إليها من شاء التوسع
في المراجع الآتية .

- ١ الجزء الأول من نفح الطيب من ص ١٥٥ إلى ص ١٥٨
- ٢ « الثاني منه من ص ٧٦١ إلى ص ٧٠١
- ٣ « الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر ،
وديوان المبتدأ والخبر ، من ص ١٢٤ إلى ص ١٢٠
- ٤ كتاب تاريخ العرب في إسبانيا للمرحوم محمد دباب بك
من ص ٦٥ إلى ص ٦٨
- ٥ كتاب المعجب في تاريخ أخبار المغرب ص ٩ و ص ١٠
- ٦ الجزء الأول من كتاب دوزي المسمى « تاريخ مسلمي إسبانيا »
Histoire des Musulmans d'Espagne.

من ص ٢٩٧ إلى ص ٣٨٧

هشام بن الداخل

(١) ١٧٢ - ١٨٠

مات عبد الرحمن الداخل في سنة ١٧٢، خلفه ابنه هشام، وكان عادلاً رحيمًا، ورعاً يتفقد أحوال رعيته بنفسه ويُساعد من يستحق المساعدة من الفقراء، وقد ذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز، فكان يبعث ثقاته إلى الكور، فيسألون الناس عن سير عماله، ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه عن أحدهم حيف، أو قمع به، وأسقطه، وانصب منه، ولم يستعمله بعد، ففرح الناس بولايته، ولقبوه بالعادل وبالرضى، وارتفع شأن الفقهاء في زمانه

مثال من عدله

اعتراض له يوماً مقتظلاً من أحد عماله، فقال له هشام :

(١) ولِيَ الْمَلَكَ وَعُمْرَهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً تَقْرِيبًا وَمَاتَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَعْوَامٍ وَتَسْعَةِ أَشْهُرٍ مِّنْ خِلَافَتِهِ

وَوَاحْلِفُ عَلَى كُلِّ مَا ظَلَمْتُ فِيهِ ، فَإِنْ كَانَ ضَرْبُكَ فَاضْرِبْهُ ،
أَوْ هَتَّكَ لَكَ سَتْرًا ، فَاهْتِكْ سَتْرَهُ ، أَوْ أَخْذَ لَكَ مَالًا ، نَخْذِ
هُنَّ مَالَهُ مِثْلًا ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَصْبَابُ مِنْكَ حَدَامِنْ حَدَودَ
اللَّهُ . . . !

أَثْرَهُ فِي الْأَنْدَلُسِ

وَقَدْ وَجَهَ هَمَّهُ إِلَى الْعِزَابَةِ بِقُرْطُبَةِ ، فَأَكْثَرُ مِنْ بَنَاءِ
الْمَسَاجِدِ الَّتِي كَانَ يَدْرِسُ فِيهَا الْأَنْجَوَهُ وَالْعِلُومُ الْعَرَبِيَّةُ ، وَأَتَمَّ
جَامِعَ قُرْطُبَةِ الَّذِي شَرَعَ الدَّاخِلُ فِي بَنَائِهِ ، وَلَمْ تَشْغُلْهُ حِرْبُهُ
مَعَ أَخْوَيِهِ الَّذِينَ شَقَّا عَصَمَ الطَّاءَهُ عَلَيْهِ^(١) وَلَا غَزْوَاتُهُ
الكَثِيرَهُ وَكَفَاحُهُ الشَّدِيدُ لِاسْتِئْصَالِ شَأْفَهُ الشَّاعِرِينَ عَنْ
هُوَ اصْمَلَهُ اصْلَاحَهُ الْعَدِيدَهُ

فَضَادُهُ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ

وَقَدْ حَظَرَ عَلَى النَّصَارَى أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَإِنْ
كَانَ قَدْ أَبَاحَ لَهُمُ الْكِتَابَةَ بِلِسَانِهِمُ الْلَّاتِينِيِّ ، وَبِذَلِكَ
أَصَبَّحَتِ الْلُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ هِيَ الْمُلْهَهُ الْعَالَمَيْهُ ، وَسَادَ اللِّسَانُ

(١) وَقَدْ اخْضَعُهُمْ ، ثُمَّ عَفَا عَنْهُمْ فِيمَا بَعْدَ

العربي في الأندلس

مثال من أدبه

قالوا : « وكان هشام إذا حضر مجالساً ممتلأً أدباً وناديهذا
وذكر أمور الحرب وموانف الْبَطَال ، ^(١) وكان واسع
الاطلاع ، بارع الذوق ، سأله أبوه (الداَخِل) يوماً ، عن قائل
هذين البيتين :

وَتَرَفُّ فِيهِ مِنْ أَيْمَهْ شَهَانَلَا
وَمِنْ خَالَهْ ، أَوْ مِنْ بَزِيدْ ، وَمِنْ حِجَرْ
سَهَاهَةْ ذَا ، مَعْ بَرْ ذَا ، وَوَفَاءْ ذَا
وَنَائِلْ ذَا ، إِذَا صَحَا ، وَإِذَا سَكَرْ
فَقَلْ لَهْ : « يَا سَيِّدِي لَامْرِيَ القَيْسِ مَلَكِ كَنْدَةَ ،
وَكَانَهُ قَالَهُ فِي الْأَمْيَرِ أَعْزَهُ اللَّهُ ، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ اسْتَحْسَانًا بِمَا سَمِعَ
مِنْهُ ^(٢) وَأَمْرَ لَهُ بِالْحَسَانِ كَبِيرٌ ، وَزَادَ فِي عَيْنِهِ ^(٣) »

(١) كَمَا كَانَ أخْوَهُ سَلَيْمَانُ كَلَا حَضَرَ مَجَالِسًا مَمْتَلَأً مِنْ خَفَاظَ هَذِيَّاتِهَا

(٢) وَقَدْ سَأَلَ سَلَيْمَانَ عَلَى إِنْهَا رَادَ - عَنْ أَسْبَابِ هَذِيَّاتِهِنَّ فَقَالَ :

« لَعْلَهَا لَاحِدٌ أَجْلَافُ الْمَرْبَ ، أَمَّا لِي شَغَلُ غَيْرُ حَفْظِ أَقْوَالِ
بَعْضِ الْأَعْرَابِ ؟ » فَأَطْرَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَعْرَفَ قَدْرُ مَا بَيْنِ الْأَثْنَيْنِ
مِنَ الْمَزِيَّةِ ^(٣) وَيَكْنُ الرَّجُوْنُ إِلَى أَخْبَارِهِ فِي الْجَزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ تَفْعِيلِ

الحكم الأول^(١)

٢٠٦ - ١٨٠

ولما مات هشام سنة ١٨٠ ، وليه ابنه الحكم^(٢) بعهد
منه اليه ، فاستكثر من الماليك ، وارتبط الخيل ، وبasher
الأمور بنفسه ، وكان من المجاهرين بالمعاصي ، وفي أيامه

الطيب من ص ١٥٨ الى ١٦٠ وفي تاريخ ابن خلدون ص ١٢٥ وفي
كتاب العرب في اسبانيا من ص ٩٦ الى ص ١٠٦

(١) ولد سنة ١٥٤ ومات سنة ٢٠٦ ، وولي الحكم وسنة

أقل من خمس وعشرين سنة

(٢) وقد نازعه الحكم عممه (سليمان ، وعبد الله اخوه هشام
وابن الداخل) وثارا عليه ، فانتصر عايهما بعد حرب شديدة ،
قتل فيها عممه سليمان ، وطعنه سبابك الخيل ، وفر عبد الله عممه
الثاني ، ثم طلب الصلح بعد ذلك ، فصفع عنه الحكم سنة ١٨٦
قالوا : « لما جىء بجثة عممه سليمان الى ابن أخيه الحكم ، بعد قتله
في تلك الحرب - بكاه وشبع جنازته باجلال واحترام وكان ذلك
في سنة ١٨٤ . »

أحدث الفقماء أنشاد أشعار الزهد ، والحضور على قيام الليل .
في الصوامع بالمساجد ، وجعلوا يخاططون بذلك كثيراً من
التعريض به ، مثل أن يقولوا : « يا أيها المسرف التمادي في
طغيانه ! المصر على كبره ! المتهانون بأمر ربه ! أفق من
سکرنيك ، وتنبه من غفلتك ^(١) » ، وما نحنا هذا النحو
فهاجه ذلك من الفقهاء ، وصب سخطه عليهم ، وكأنوا
بحرصون العامة عليه ، حتى هاجوا فصره يريدون قتله ^(٢)

ر باطة جأشه

ومما يحسن ذكره هنا ، ما رواه ابن حيان ^(٣) من أنه
لما تصور عليه القصر ، وأحس بالشر ، قل لآخر غلامه :
« اذهب إلى ثلاثة (أحدى كرامه) قل لها تعطيك قارورة
الغالية ، فابطأ الغلام وتراكاً ، فأعاد ذلك عليه ، فقال :

(١) وكان بهضم يقرئ في أذانه « العصالة ياخمور ! » تعريضاً به

(٢) لما انهمك الحكم في لذاته اجتمع أهل الالم بقرطبه ، مثل

يعي بن يحيى الائبي ، فنادوا به وخادره ^(٣) مانحة عن كتاب
المعجب .

«يا مولاي هذا وقت الغالية ؟» فقال له : «ويلك يا ابن
الا بم يفرق رأسى من رؤس العامة إذا قطع ، إن لم يكن
محض حما بالغالية ؟»

ومن حسن حظه أن داهم جنوده العامة من ورائهم،
فشتتوهم، ثم أمر بتنقيتهم وهدم ديارهم ومساجدهم وحرقها
ونفي من بي منهم عن البلاد، خرجوا حتى نزلوا جزيرة
افريطش من جزائر البحر الرومي، المقابلة لبر برقة أول
بلاد المغرب، فلم يزالوا هناك سنين، إلى أن تفرقوا فرجع
بعضهم إلى الأندلس، وأخтар بعضهم سكناً صقلية، وانتقل
آخرون إلى الإسكندرية^(١)

(١) «كان الحكيم في صدر ولايته قد انهمك في لذاته، واجتمع أهل العلم بقرطبة مثل يحيى بن يحيى، وطالوت الفقيه وغيرها، فثاروا به، وامتنع، فخلعوه وبايعوا محمد بن القاسم، من عمومة هشام، وكان بالرحب الرابي من قربة سيدة متصلة بقصره، وحاصره سنة تسعين وستة، وقاتلهم، فغلبهم، وافتلقوا وهدم دورهم ومساجدهم، ولحقوا بفاس من أرض العدوة، ولحقوا بالسكندرية» . هـ ملخصاً عن ابن خلدون

صفاته وأخلاقه

كان عالماً، فطننا، فصيحاً، شاعراً، حازماً، لكنه متكبر قاسي القلب، سريع الغضب، قالوا: «وكان أخل بني أمية بالأنداس واشدهم افداماً ونحوة، وكان يشبهه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بنى العباس في شدة الملك وتوطيد الدولة، وقع الأعداء».

مياله إلى الله

وكان شديد الولع بمحالس الغناء واللهو، لا يخرج من قصره زهـنـ السـلـمـ، فهو صـانـ شـائـونـ المـلـكـةـ إلى ابنـهـ عبدـالـرحـمـنـ وكان يـقـضـيـ أـوقـاتـهـ فـيـ مـحـالـسـ الطـارـبـ وـنـلـجـرـ، فـيـ حدـائقـهـ بينـ غـامـانـهـ وـنـسـائـهـ اللـاءـ كـنـ يـحـسـنـ الغـنـاءـ

مثال من شهادته

أما شهادته فلعل أبدع ما رأيناها من الأمثلة الدالة عليها، ما حكاه المقرى من أن العباس الشاعر توجه إلى الشجر، فاما نزل بوادي الحجارة، سمع امرأة تقول: «واغوثاه بك

يا حكم ! لقد اهملتنا حتى كلب العدو علينا فأيمنا ، فسألها
عن شأنها ، فقالت : « كفت مقدمة من البداية في رفقة ،
خرجت علينا خيل عدو ، فقتلت ، وأسرت ، فصنع قصيده
الى فيها :

وَتَدَارِكَ نِسَاءُ الْعَالَمِينَ بِنَصْرَةِ

فإنك أحرى أن تغيث وتنصرنا ،

فلما دخل عليه انشده القصيدة ، ووصف له خوف
النغر ، واسمه صرخ المرأة باسمه ، فأنف ، ونادي في الحين
بالجهاد ، وغزا تلك الذاخنة وفتحها ، وقتل كثيراً من أهلها
ثم أمر باحضار المرأة ، وأمر بضرب رقب الأسرى بحضورها
وقال للعباس : « سلها هل أغاثها الحكم ؟ » فأجابه :
« والله لقد شفى الصدور ، وإنكى العدو ، واغاث الملهوف
فأغاثه الله ، وأعز نصره » ، قالوا : « فارتاح لقوتها ، وبدا
السرور في وجهه » وقال :

« ألم تري عباس أني اجبتها

على البعد أقاد الخمس المظفر !

فأدركت أوطاراً وبردت غلة
ونفست مكره وباؤ أغنية معاشراء،

مثال من أقدامه

ولما هجم سكان البعض الجنوبي من قرطبة على حرسه
وزاد هياجهم حتى فرقرا شمله ، وانتهوا الى قصر الامير ،
مهديه بالدمار ، تقلد الحكم سلاحه ، وهم بالنزول ، فألح
عليه من معه بالتريث في أمره ، فلم يسمع لهم قولًا ، وجمع
فرسانه وركب في مقدمتهم وخرج الى الناثرين فنكصوا
على أعقابهم

مثال من شعره

وما عثرنا به من شعره ، قوله لما قتل أهل البعض ، وهدم
ديارهم وحرقها :

رأبت صدوع الأرض بالسيف راقعاً
وقدم المأمة الشعـبـ مذكـنـتـ يافـعاـ
فسائلـ نـغـورـىـ ، هلـ بـهـ الـيـوـمـ ثـغـرـةـ ؟
أـبـادـرـهـاـ مـسـتـنـفـىـ السـيـفـ دـارـعاـ

تبثك أني لم اكن في قراءهم
بوان، وقد ما كنـت بالسيف فارعا
وهل زدت إـذ وفيتهم صـاع فـرضـهم
فوفـوا منـايا قـدرـت ومـصـارـعا
فـهـنـى بـلـادـى ، إـنـى قد تـرـكـتـها
مـهـادـا ، وـلـم أـنـرـكـ عـلـيـها مـنـازـعا
وقـولـهـ منـ قـصـيـدةـ :
منـ لـى بـعـقـةـ ضـبـاتـ الـروحـ منـ بـدـنـىـ
يـغـصـبـنـىـ فـىـ الـهـوـىـ هـزـىـ وـسـاطـنـىـ

أثره في الانداس

أول من جند الاجناد المرتزقة بالانداس (كما يقول ابن خلدون) وجـعـ الاسـاحـةـ والـعـدـ ، واستـكـثـرـ منـ الحـشـمـ والـحـواـشـىـ ، وارتـبـطـ الخـيـولـ عـلـىـ بـابـهـ ، واتـخـذـ المـالـيـكـ ، وـكـانـ يـسـعـيـهـمـ الخـرسـ لـعـجـعـتـهـمـ ، وبلغـتـ عـدـتـهـمـ خـمـسـةـ آـلـافـ ، وـكـانـ باـشـرـ الـأـمـورـ بـنـفـسـهـ ، وـكـانـ لـهـ عـيـونـ يـطـالـعـونـهـ بـأـحـوالـ النـاسـ .

الدين في إسبانيا

* تغلب العرب على الإسبانيين كما قدمنا في المحاضرة الأولى
فانتشر الإسلام في إسبانيا وأصبح هو الدين السائد على الأغلبية من
السكان وقد شرح لنا الاستاذ نيكلسون الإسلام في إسبانيا والآراء
الدينية التي كانت سائدة بين المسلمين، في القطعة التي سنتلوها عليكم
الآن - وشرح لنا العلامة دوزي المسيحية في إسبانيا، واثر
الإسلام في المسيحيين، والآراء التي كانت سائدة بينهم ، في قطعة
أخرى، ونحن نبدأ بما قاله نيكلسون لاحقته، ثم نختتم هذا الفصل بما
قاله دوزي في هذا الصدد ، واليمك ما قاله الأول *

(١)

الإسلام في إسبانيا

لم يكن العرب ليكونوا الأقلية الصغيرة من مسلمي
إسبانيا، فحسب، بل كانوا ازيدة على ذلك يظهرون عدم مبالاتهم
بالدين، واحتقارهم لقوانين الإسلام، مما هو منتظرا من رجال
تشبعوا بتقالييد البدو وكانوا كل أيامهم على اتصال بأمويي
دمشق الديويين، وعلى النقيض من ذلك كانت الحال مع

البرابرة ، ومع مؤمني إسبانيا المسمون بالصابئين ، أو
المولدين ، الذين يعيشون كوال في كنف أشراف العرب ، فلقد
تمسكت تلك الطوائف بالدين الذي اتبعته استقساكا يتناسب
مع مزاجها السوداوي الحار ، الذي كانت تمتاز به داءا -
ومن ثم ساد بين مسلمي إسبانيا إيمان صارم ، يتمثل في يحيى
ابن يحيى المتوفى سنة ٨٤٩ م وهو أحد البرابرة ونموذج لهذا
الصنف .

يحيى بن يحيى

سافر إلى الشرق وسنة وقته مذ مازان وعشرون سنة ، وتلقى
العلم على أستاذة مالك بن أنس الذي أملأ عليه كتابه المعروف
بالموطأ ، وحدث أن كان يحيى ذات يوم في إحدى دروس مالك
ومعه عدد من الطلاب رفقاؤه ، فقال قائل : « حضر الفيل فخرروا
جميعاً لرؤيته ، ولم يتحرك يحيى من مكانه ، فسأل مالك : « لم تذهب
لتراه وليس في إسبانيا مثل هذا الحيوان ؟ » فاجابه يحيى : « لقد
ترك بلادي لأراك واتلقى عنك الدروس ، ولم آت هنا الرؤية
الفيل » فسر مالكا هذا الجواب وقال عنه انه عاقل إسبانيا ، ولما

عاد يحيى إلى إسبانيا ، بذل كل ما في وسعته لنشر تعاليم
مذهب سيده - وإن كان يحيى لهذا قد أصر بسبب تورعه
ونسكه على رفض أي منصب من المناصب العامة - فقد
عظم تأثيره رغم ذلك وذاع صيته إلى حد ان وصلا - كما
يقول ابن حزم - إلى أنه كان لا يولى قاض في الأندلس إلا
بعد أن يؤخذ رأي يحيى فيه ، وإلا بعد أن يبين من يفضله
على سواه من الناس ^(١)

(١) هذا ما أورده ابن خلkan في الجزء الرابع صحيفـة ٢٩
واليمـكـ ماقالـه المـقـرىـ في ذـلـكـ :

« ومن الراحلين من الأندلس الفقيـهـ المـحدـثـ ، يـحيـيـ بنـ يـحيـيـ الـليـبيـ
راـوىـ المـوـطـأـ عنـ مـالـكـ رـضـىـ اللـهـ تـعـالـىـ عـنـهـ ، وـيـقـالـ انـ اـصـلـهـ مـنـ
بـرـابـرـةـ مـصـمـودـةـ - وـحـكـيـ انهـ لـمـ اـرـتـحـلـ إـلـىـ مـالـكـ وـلـازـمـهـ ، فـبـيـنـماـ
هـوـعـنـدـهـ فـيـ مـجـلـسـهـ مـعـ جـمـاعـةـ مـنـ أـصـحـابـهـ ، اـذـقـالـ قـائـلـ «ـ حـضـرـ الفـيـلـ
فـخـرـجـ اـصـحـابـ مـالـكـ كـلـهـمـ ، دـلـمـ يـخـرـجـ يـحيـيـ »ـ فـقـالـ مـالـكـ :ـ «ـ مـالـكـ
لـمـ تـخـرـجـ وـلـيـسـ الفـيـلـ فـيـ بـلـادـكـ ؟ـ »ـ فـقـالـ «ـ اـنـجـاـجـتـ مـنـ الـانـدـلـسـ لـاـ نـظـرـ
إـلـيـكـ وـأـتـلـمـ مـنـ هـدـيـكـ وـعـلـمـكـ ، وـلـمـ أـكـنـ لـاـ نـظـرـ إـلـىـ الفـيـلـ »ـ فـأـجـبـ
بـهـ مـالـكـ وـقـالـ :ـ «ـ هـذـاـ عـاقـلـ الـانـدـلـسـ »ـ وـلـذـاكـ قـيلـ «ـ اـنـ يـحيـيـ هـذـاـ
عـاقـلـ الـانـدـلـسـ »ـ وـعـيـسـيـ بـنـ دـيـنـارـ فـقـيـهـاـ ، وـعـبـدـالـلـهـ بـنـ حـبـيـبـ

وعلى ذلك فقد أصبح مذهب مالك يلي الحديث مباشرة في آنذاك شرعاً للبلاد - قال عالم من كتاب القرن العاشر «لقد كان الإسبانيون لا يعرفون القرآن والموطأ، فكانوا إذا وجدوا تابعاً من أتباع مذهب أبي حنيفة أو الشافعى

الله، ويقال ان يحيى رايتها ومحذها، وتوف يحيى بن يحيى سنة ٥٢٣٤
في رجب وقبره يستسقي به بقرطبه » وقال المقرى :
« وكان مع أمانته ودينه معظمًا عند الامراء يكنى عندهم
عفيفا عن الولايات منها جلت رتبته عن القضاة، وكان أعلى من
من القضاة قدرًا عند ولادة الامر بالاندلس ، لزهده في القضاة
وامتناعه - قال الحافظ بن حزم - « مذهبان انتشر في بدء أمرها
بالرياسة والسلطان ، مذهب أبي حنيفة ، فأنه لما ولت القضاة ابو يوسف
كانت القضاة من قبله ، من أقصى المشرق إلى أقصى حمل افريقيا ،
فكان لا يولى الا أصحابه والمتسبين لمذهبة ، ومذهب مالك عندنا
بالاندلس ، فأن يحيى بن يحيى كان مكتينا عند السلطان ، مقبول القول
في القضاة وكان لا يلي قاض في اقطار الاندلس الا مشورته و اختياره
ولا يشير الا باصحابه ومن كان على مذهبة والناس سراع الى
الدنيا ، فاقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به - على ان يحيى لم
يقل قضاة فقط ، ولا أجاب اليه - وكان ذلك زائدا في جلالته عندهم
وداعيا الى قبول رأيه لديهم » ١ . ٢

طردوه من اسبانيا - والويل ان يصادفونه من المعتزلة او الشيعة او من طائفة تنتهي لمذهب ما ، فانهم كثيرون ما كانوا يخدمون أنفسهم^(١)

وقد كان علماء الدين الاسلامى متغطرين مفترطين في التعصب الاعمى والطامع في احراز القوة ، فلم يشاءوا أن يرأسهم أحد في المملكة - فاما في زمن هشام (٧٨٨ - ٧٩٦) خاف عبد الرحمن ، فقد رأوا أنه يرى وفق ما يتمنون ، فقد كانت تقواه وورعه مما لا يدع لهم مجالا لـ الكلام ، وكان على شاكلتهم فاهم بشئونهم وأما الحكم (٧٩٦ - ٨٢٢) فقد كان أقل منه مراعاة لهم - نعم انه كرم رجال الدين وبجلهم ولكن في الوقت نفسه أراه أنه لن يسمح لهم بالتدخل في الشئون السياسية مطلقا فنقموا عليه ، وعلى رأسهم يحيى بن يحيى الشرس واجابوه بالتهديد والاهانات ، واستثاروا جهود قرطبة ولا سيما الصابئين - وكانوا في الجزء الجنوبي من المدينة وهو المسمى بالربض - ليقوموا في وجه ذلك الظالم وجنوده السفهاء - وفي

(١) المقدمي صحابة ١٤٤

ذات يوم من أيام رمضان (١٩٨٥) (مايو سنة ٨١٤) وجده الحكم نفسه وقد أقصيَت عنه حاشيته وحاصره الغواء المتهيرون في قصره، ولكن شجاعته لم تفارقه، وقد اتجاه من مأزقه الخطير الذي كان فيه، برونته وإنقاذ جيشه المدرب له.

وكان نصيب تلك الصلاحية الناشرة أن دكها دكاً ونفي من سلم من القتل من أهلها إلى بلاد بعيدة، وبلغ عددهم نحو سنتين ألف نسمة - والحق أن المجرمين الأصليين لم يقعوا تحت طائلة العقاب - ثم كف الحكم عن اضطهاد رجال الدين الحافظين الذين شعروا بأنهم يستطيمون أن يصلوا منه باللين إلى ما أخفقوه في الحصول عليه بالقوة - وإذ كان أغلبهم من الرب أو البربرة، فقد بشوا الدعوة الشديدة في الناس لاحترام الحكم، فعادت إليهم قوتهم في الحال - وفي زمن عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ - ٨٥٢) أدار دفة السياسة المثلية، يحيى بن يحيى زعيم الثودة بنفسه، وتولى توزيع مناصب القضاء كما أراد. ١٠٥

* * *

هذا هو الجزء الذى تناول فيه الاستاذ نيكاسون ،
الكلام على الاسلام فى اسبانيا ، ولما كنا لا نستطيع
مناقشة فى كل ما قاله ، لـ كثرة الأغراض الأخرى التي
نريد الكلام عنها ، فـ إِنما نكتفى بأهم تلك النقط وألزمها الان
وحسينا أن نقى بنظرية سريعة على ما قاله :

* * *

فـ أما اسلوبه فهو دائماً لا يتغير - اسلوب موجز مملوء
بالمعنى كـ دأبـ يـمـ ، وكـا تـرـونـ فـ كـلـ ماـ نـقـلـهـ لـكـمـ عنـهـ ،
وـ أـمـاـ النـتـائـجـ الـتـيـ خـرـجـ بـهـ مـنـ هـذـهـ القـطـعـةـ فـانـنـاـ نـسـوـقـهـ مـزـوـجـةـ
بـأـرـاءـ غـيرـهـ مـنـ المؤـرـخـينـ ، معـ إـبـدـاءـ مـلـاحـظـاتـنـاـ عـلـىـ أـهـمـهـاـ
إـيجـازـاـ لـ الـكـلامـ :

يتـبيـنـ لـنـاـ مـرـ ماـ يـلـىـ :

أولاً : قـوـةـ نـفـوـذـ الـفـقـهـ اوـ وـهـيـمـ نـتـهمـ التـامـةـ عـلـىـ عـقـولـ العـامـةـ
ثانـيـاـ : رـغـبـهـمـ الشـدـيـدـةـ فـىـ الـاسـتـئـارـ بـكـلـ شـىـءـ
وـالـتـدـاخـلـ فـىـ كـلـ اـمـورـ الـمـلـكـةـ تـقـرـيـباـ

ثـالـثـاـ : شـدـةـ تـشـبـعـ النـاسـ بـالـعـقـيـدـةـ الـدـيـنـيـةـ وـشـدـةـ اـنـتـصـارـهـمـ
لـهـاـ إـلـىـ حـدـ أـنـهـمـ كـانـواـ يـحـارـبـونـ كـلـ مـنـ يـغـضـبـ رـجـالـ الدـيـنـ أوـ

يُتعدى عليهِم

رابعاً : معرفة الفقهاء كيف يستثمرون ذلك النفوذ
الديني العظيم ، وكيف ينتهزون فرصة تشبع الجمود بالعقيدة
الدينية وتفانيه في حمايتها - في انفاذ ما تسلوه لهم نقوصهم
من الرغبات وفي تحويله إلى حيث شاءت لهم اهواؤهم - وقد
شاهدتم كيف أنهم استطاعوا أن يهددوا السلطان نفسه
خامساً : أن مسألة الدين في الاندلس كانت غيرها في
الشرق ، بل أنها كانت على النقيض ، فبينما كنت ترى المذاهب
العديدة ، والنحل المختلفة ، سائدة في المشرق ، إذ تشاهد
عكس ذلك تماماً في الاندلس ، فلم تكن ترى هنا إلا مذهبها
واحداً قد هيمَن على كل أهلها تقريراً ، ذلك هو المذهب
السنفي الذي لم يشذ عنه إلا بعض أفراد غاية في الندرة ، ممن
مالوا إلى مذهب المعزلة والظاهرية

سادساً : أن تعصب الناس لمذهب مالك ومغالاتهم
في الاتتصار له ، وصل إلى حد الجنون ، فقدرأيت أن افتتاحهم
بهذا المذهب ، وتهوسيم في الولوع بكتاب الموطأ ، وصل بهم
كما يقول ذلك العالم الذي أشهد به نيكلاسون - إلى حد

أَنْهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا الْقُرْآنَ وَالْمَوْطَأُ
بَلْ لَقِدْ بَلَغَ جِنُونَهُمْ بِالْمَوْطَأِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَدْ حَكَى
لَنَا بَعْضُ الْمُؤْرِخِينَ - أَنَّ تَعَصُّبَهُمْ لِلْمَوْطَأِ أَنْسَاهُمُ النَّظَرَ فِي
الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ

* * *

فَامَّا عَنِ النَّقْطِ الْأَرْبَعَةِ الْأُولَى فَلَا أَدْلُ عَلَيْهَا مَا سَرَدَهُ
نِيكَاسُونَ عَنِ الْحَكَمِ هَذَا وَعَنِ حَالِهِ مَعَ الْفَقِيرِاءِ فَقَدْ رَأَيْتَ
مِنْ حَكَايَتِهِ جَرَأَةَ الْفَقِيرِهَا فِي اسْتِعْمَالِ نَفْوِ ذُمِّهِ عَلَى الْعَامَةِ بِاغْرِيَّهِمْ
إِيَّاهُمْ حَتَّى عَلَى مَهَاجَةِ قَصْرِ الْمَلَكِ وَمَحَاوَلَةِ قَتْلِهِ
وَقَدْ كَادُوا يَفْعَلُونَ لَوْلَا حَسْنُ حَظِّهِ - وَلَوْلَا أَنْ أَغَانَهُ
جَنُودُهُ الَّذِينَ دَاهِمُوهُمْ وَشَتَّتُو شَمْلَهُمْ
وَاعْلَمُ مَا يَسْتَلْفِتُ النَّظَارُ فِي هَذِهِ الْحَكَايَةِ الَّتِي سَرَدَهَا
عَنِ الْحَكَمِ ، هُوَ قَوْلُهُ عَنْهُ :

” وَقَدْ أَنْجَاهُ مِنْ مَأْزَقِهِ الْخَطَرُ الَّذِي كَانَ فِيهِ بِرُودَتِهِ
وَجِيشُهُ الْمَدْرَبُ ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْحَكَمَ قَدْ بَلَغَ مِنْ دِرَازِتِهِ
وَثَبَاتِ جَائِشِهِ فِي هَذَا الْمَأْزَقِ الْحَرْجُ ، أَنَّ دَاعِبَ خَادِمِهِ بِتَلْكَ
الْجَمَلَةِ الَّتِي سَقَنَا هَا الْحَكَمَ فِي مَحَاضِرِنَا السَّابِقَةِ - فَقَدْ أَمْرَهُ أَنْ

يأتيه بزجاجة الغالية ليتطيب بها، وقت أن كان الجبّور يحاصر قصره ويحاول اغتياله، فلما أبطاً الخادم، أعاد عليه السؤال ثانية، فقال له خادمه :

” يا سيدي أهذا وقت الغالية ؟ ”، فاجابه :

” ويلك يا بن الفا ... بم يعرف رأسى من دعوس العامة إذا قطع ، إن لم يكن مضى معا بالغالية ؟ ”،
ولقد سمعنا حكايات عديدة عن رزانة بعض الناس وعن ثبات جأشهم وبرودتهم ساعة الخطر المميت، فلم نر فيما يامناه مداعبة أغرب من هذه المداعبة ، ولا رباطة جأش وصلت إلى أكثر من هذا الحد ”

* * *

شاهدنا شدة ازدياد نفوذ الفقهاء في ذلك العصر .
ولكن لا يفوتنا أن نقول أن هذا النفوذ العظيم الذي شاهدته لم يكن ليقاس بما وصل إليه سلطانهم في الاندلس وقت انحطاط الدولة وتقهقرها ، فلقد كان نفوذهم يتعاظم كلما ازدادت الدولة في الانحطاط ، وقد كان ذلك أكبر مساعد للدولة على توالى انحطاطها وتقهقرها

ولقد كانت وطأة التعصب المدين والانتصار للعقيدة
تخف حين يقبض على ناصية الدولة ملك قوى كالحكام
الثاني مثلاً الذي استطاع حماية الفلسفه ورجال العلم وأحرار
المفكرين من عنف العامة والمتنطعين في الدين - كاسترون
ذلك في حينه - فسترون أنه أطلق حرية التفكير للناس
وأن العلوم قد وصلت في عصره إلى أقصى مدى - وأن
الآداب أزهرت وأن حرية الفكر وصلت إلى حد عظيم
جداً، وأنه أخذ بناصر المفكرين؛ وأن الحرية الدينية لم تصل
في عصر ما إلى ما وصلت إليه في زمنه . سترون كل ذلك في
حينه، ولكنكم سترون أيضاً أن الحرية الدينية رغم ما وصلت
إليه في ذلك الزمن لم تصل حتى في زمن هذا الملك العظيم -
إلى ما وصلت إليه في زمن المؤمن الخليفة العباسى

* * *

بقي علينا أن نتكلّم عن الفقطتين الخامسة والسادسة
فتقول : «إن وصول المذهب المالكي إلى حد أن أناسهم
القرآن نفسه، وإن وصوله يعنيهم إلى حد أنهم كانوا لا يطيقون
رؤيه أي مذهب آخر، وإلى حد أنهم كانوا يطردون أي

ووصلت الى الانداس - كما سترون فيما بعد - و الى حد انهم
كانوا لا يطيقون النظر في كتاب فلسفة ،

نقول: «إن وصول الذهب المالكي إلى هذا الحد ، كان بلا شك نذير سوء بما سنسمعه من المدهشات والغرائب التي حصلت وقت انحطاط الدولة، وسنورد أهمها في حينه»

• • •

قلنا أن العقيدة الدينية تكفلت من نفوس المسلمين في إسبانيا، وإن الفقهاء تعهدوا بحرسها وإناءها وفق ما يشهدون وإنهم أولوا النصوص الدينية والآيات القرآنية على حسب رغباتهم فماذا نشأ عن ذلك؟؛ نشأ عن ذلك أن الجمود فيما بعد، وقف عقبة كاداء في سبيل كل من حاول البحث بحرية فكر، فـكان لا يتزدّد في رجم كل من سمع عنه الاشتغال بعلوم الفلسفة، متى رأى ما يفكّره عليه - بل لقد وصل نفوذ الفقهاء وسيطرة المأمة إلى حد أن كان الملك إذا حاول استرضاً الرعية تقدم إلى واحدٍ من مشهورى الفقهاء وفوض إليه الامر في حرق كل ما يراه في مكتبة منهـا - يفعل ذلك بعد

أن يكون قد احتاط ووضع أهلهما في مكان لا يهتم به الفقيه
وكان الجمود يحارب الآراء الحرة من غير أن يفهم
 شيئاً عن حقيقتها، وأية ذلك أنه كان يخلط الفلسفة بالتنجيم،
فكان يطلق على كل من حاول البحث بحرية فكر، اسم
المشغّل بالفلسفة والتنجيم - وكان الفقهاء يحاربون الآراء
الحرة والمذاهب الفلسفية لأسباب عديدة، قد يكون أهلهما
ان اغلبهم كان يخشى على نفوذه إذا انطلقت الأفكار من
عقالها وتحررت العقول من رقبة التقليد - وإذا كانوا قد
استقروا بذلك النفوذ العظيم من سيطرتهم الدينية، فقد
أيقنوا أن سلطانهم الديني باق على الجمود ما دام جاهلاً،
وعرّفوا أنه إذا استنار أدرك ما في أقوالهم من التناقض
والغرائق، وفي ذلك القضاء على نفوذهم، وكأنهم كانوا يرون
رأي أبي العلاء في قوله :

الدين متجر ميت، فلذاك لا تلقاء في الاحياء الا كاسدا

* * *

وقد يكون الدافع شيئاً آخر، هو وجود بعضهم على
فكرة واحدة، وعدم قدرته على التمشي مع الآراء الحرة

القصر مداركه - كما أنه قد يكون ناشئاً عن سوء نية -
الكثيرين منهم وأنانيةهم وجفونهم بالسيطرة ، لكننا مع
ذلك جديرون أن لا ننسى أن بعضهم كان يفعل ذلك عن
محض أخلاقه ، لاعتقاده أن انتشار الفلسفة وحرية الفكر
بين الجاهير هو أكبر باعث على السير بهم في طريق الاحاد
والزندقة وزلزلة العقيدة - فكان لذلك يعتقد أن التضييق
على الآراء الحرة خير معاون على بقاء الدين ثابت الدائم ، آمنا
من تطرق الشك إلى نفوس عامة الناس - ومها يمكن من
شيء فقد أدى ذلك التضييق إلى عكس الغرض الأساسي
منه ، فقد حبب الفلسفة إلى نفوس الكثيرين وزادهم هياما
بهما ، كما كانت الحال في البلاد الشرقية -

وإذا كان أكثر ملوك الاندلس كانوا يخشون نفوذ الفقهاء ،
ويقيّبون سطوةهم ويفذلون جهودهم في نشر العلم ، ويشجعون
حرية الفكر سرا ، لأنهم لم يجرؤوا على مخالفة ارادة الفقهاء ،
وإذا شكا العلماء والفلسفه والملوك شدة بأس الفقهاء في أوائل
الدولة ، فقد انقلب الحال في أواخرها تغيريا ، وأصبحنا نرى
في الملوك أنفسهم من هو على رأي الفقهاء المقطعين ، في التضييق

على الفلاسفة، وستتبينون ذلك من القطعة القالية^(١) وهي :
” وقام بأمره (بأمر الملك) من بعده، ابنه على بن يوسف بن
تاشفين، وتلقب بلقب أمير المسلمين، وسمى أصحابه المرابطين،
وجري على سنه أبيه في الجهاد، وكان إلى أن يُعد في الزهاد
والمتبتلين، أقرب منه إلى أن يُعد في الملوك والمتغلبين -
واشتهد بإشاره لا هُل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً في
مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولَّ أحداً من قضائه
كان فيما يعهد إليه أن لا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في
صغير من الأمور ولا كبير إلا يحضر أربعة من الفقهاء ،
فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في العصر - در
الاول من فتح الاندلس ، ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور
المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة
عليهم طول مدة - فمعظم أمر الفقهاء - كما ذكرنا - وانصرفت
وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم
وفي ذلك يقول أبو جعفر المعروف بالبني الاندلسي :

(١) منقوله عن كتاب المعجب في أخبار المغرب تأليف محيي الدين المراكشي صحيفۃ ٩٥

أهل الرياء ببسم ناموسكم
كالذهب أدرج في الظلام العائم
فلا يكتفون الدنيا بذهب مالك
وقد ستموا الأموال بابن القاسم

• • •

ولم يكن يقرب من أمير المؤمنين ويحظى عنده إلا من علم الفروع -أعني فروع مذهب مالك - ففاقت في ذلك الزمان كتب الذهب وعمل بمقتضاهما ونبذ ما سواها ، وكثير ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسوله (صلعم) فلم يكن من مشاهير أهل هذا الزمان من يعتني بها كل الاعتقاد ، ودان أهل ذلك الزمان بتکفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أئم المسامين تقبیح علم الكلام ، وكرابته السلف له ، وہجرهم من ظهر عليه شيء منها ، وأنه بدعة في الدين ، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقيدة ، وأشبهوا هذه الأقوال ، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله - فـكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منها ، وتوعد

من وجد عنده شيء من كتبه - ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب ، أمر أمير المسلمين باحرارها ، وتقديم الوعيد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها ^(١) ، ١٥٠

(١) وما قاله ابن سعيد في ذلك ، في كتابه المسمى بالشعب الثاقبة في الانصاف بين المشارقة والمغاربة ؛ ونقله عنه المقربي ، قوله : « وأما قواعد أهل الأندلس في دياناتهم فانها تختلف بحسب الاوقات ، والنظر الى السلاطين ، ولكن الأغلب عندهم اقامة الحدود ، وانكار التهاون بتعطيلها ، وفي ام العامة في ذلك ، وانكاره ان تهاون فيه اصحاب السلطان ، وقد ياج السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبؤن بخيله ورجله ، حتى يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير في اخبارهم .

وأما الرجم بالحجر للقضاء والولاة للأعمال - اذا لم يعدلوا - فكل يوم « الى أن قال :

« وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، الا الفلسفة والتنجيم ، فان لها حظاً عظيماً عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة ، فانه كلما قيل : « فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم » اذلقت

* * *

نكتفى الآن بسرد تلك القطعة في هذه الالمامة
الموجزة، من غير أن نعاقب عليها بشيء من عندنا، ففيها وحدتها
تدينون صورة واصحة لحال الدينية في عصر من عصور الدولة

شيء من الآثار الفعلية

المعقيرة الدينية

ولا يفوتنا بعد كل ما ذكرناه أن نبين لحضراتكم أثرا

عليه الالمامة اسم « زنديق » وقيدت عليه انفاسه ، فان زل في
شبهة ؛ رجوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ،
أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم
باحرار كتب هذا الشأن ، اذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور
ابن أبي عامر لغلوهم أولئك وضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال
بذلك في الباطن »
وقال :

« وقراءة القرآن بالسبعين ؛ ورواية الحديث عندهم رفيعة ؛
ولفقه رونق وجاهة ، ولا مذهب لهم الا مذهب مالك ، وخصوصهم
يحفظون من سائر المباحث ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوى
الهمم في العلوم »

فعليها واصنحا من آثار تمكّن العقيدة في نفوس أصحابها، متى
ووجدت محركا قادرًا على تصريفها، واستغفاراً لعاطفة الدينية
فيها - فإن الفاء نظرة سريعة على قصيدة أبي اسحق الفقيه
ورؤبة أثرها العظيم الذي أحدثته في نفوس الجمود، ليكفي
وحده في انبات ذلك، وإنكم لنرؤن فيها امبالغ التحمس الديني
العظيم، وكيف أنها كانت السبب في القضاء على ما يربو على
أربعة آلاف يهودي، ونهب أموالهم، وتدمير منازلهم،
وكانت السبب في حدوث تلك المذبحة المماثلة في القرن الرابع

المجري سنة ٣٥٩ م

وقد دعا صاحبها إلى قوله أنا يوسف ابن نعزيز اليهودي
الوزير ^(١) وشى بأبي اسحق قائل هذه القصيدة فقصاه

(١) قال صاحب تفتح الطيب : « ولما استوزر باديس، صاحب
غرناطة، اليهودي الشهير بابن نفذلة، وأفضل داؤه المسلمين،
قال زاهر البرة وغرناطة أبو اسحق الأبيري، قصيدهاته التونية
المشهرة التي منها في أغراء صنهاجة باليهود الخ . »

« وهي قصيدة طويلة، فثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا
منهم مقتلة عظيمة، وفيهم الوزير المذكور، فراح الله البلاد
والعباد، ببركة هذا الشیخ، الذي نور الحق على كلامه باد ! »

السلطان عن بلاده - قالوا - وكان ذلك الوزير قد تعرض
لتسيفه بعض الاراء الدينية الاسلامية ، وكان عظيم الخطر
واسع النفوذ - فوجد ابو اسحاق من ذلك دافعا الى انشاء
تلك القصيدة البليغة التي سنتلو على حضراتكم احسن
ما فيها والتي دفعه الى قولها غيظه من عدوه ذلك الوزير
الخطير ، فلأها تحريراًضا وأفعموا حجاجا وبراهين ، أفالح في
التأثير بها على العامة وحملهم على انفاذ رغباته - وما زال
يتقى في ضروب الاحتشاث والتهييج حتى اشتعل الجمود
الساذج حماسا ، وهجم على ذلك الوزير فقتله في قصر السلطان
نفسه - وليس من شك في أن أبا اسحاق بذل كل مواهبه
في الضرب على النغمة الدينية واظهار التفجع الشديد على
ما انتاب الدين من المهاون به وعرف كيف يوالى فيها اطراد
الادلة وتساقها وتتدفق المعانى وغازارها مع دقة في التعبير
عن أغراضه وخواجه بكلام نخم ، يتطاير حماسا ويتأجج
نارا وشعرآ صارخ

خارج من قلب قائله مثلاً يزفر برకات
وبهذا استطاع أن يوم ساميها أن قتل أولئك اليهود

(أخصامه) فرض لا مناص من ادائه وواجب حتم لا يصح السكوت عنه - وانهم، إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى، فهم خليقون أن يتداركوه في الحال، حتى لا تصب عليهم لعنة الله، أو يحيق بهم غضبه. فيخسف بهم الأرض، أو تنقض عليهم السماء، وكذلك لم يترك ناظمها وسيلة من الوسائل التي تستفز أخفى العواطف الدينية الكامنة إلا استخدمها، ولا نغمة من نغمات القهقحب للعقيدة الدينية، إلا ضرب على وثيرها - كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل اسمه واته إلى حد الركاكة في بعض الآيات، مع أنه من أجمل الشعر وأبدعه - وإن شئت فقل، وأروعه، واليكم هذه الفصيدة الفريدة في بابها :

الا قل لحسنها جة اجمعين بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذي مقة مشفق يمد النصيحة زلفى ودين
لقد ذل سيدكم ذلة تقر بها اعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به ، وابتخر را وتابوا، وكانوا من الارذلين

ومنها:

فِكْم مُسْلِم رَاغِب رَاهِب
وَمَا كَان ذَلِك مِن سَعِيهِم
فَهُلَا افْتَدِي فِيهِم بِالْأَلِي
وَأَنْزَلْهُمْ حِيث يَسْتَأْهِلُون
فَلَم يَسْتَخْفُوا بِأَعْلَامِنَا
وَمِنْهَا لَخَاطَ السُّلْطَان

لَارْذَلْ قَرْد مِنَ الْمُشْرِكِين
وَلِكُنْ مِنَّا يَقُومُ الْمَعِين
مِنَ الْقَادِهِ الْخَيْرَ الْمُتَقِين^(١)
وَرَدْهُمْ أَسْفَلَ السَّافَالِين
وَلَم يَسْتَطِيلُوا عَلَى الصَّاحِين

أباديس^(١) أنت امرؤ حاذق تصيّب بظنك نفس اليقين

(١) في هذا البيت شيء كثير من الركاكة في قوله (بالأعلى من القادة الخيرة المتقيين) ولكننا نفتخر بما في تالييه من تتمة تلك الصوره الشعريه المنطقية البديعه

(١) الْهُمَزةُ لِلَا سَتْفَهَامٍ ، وَبَادِيسُ هُوَ بَادِيسُ بْنُ حَبْوَسٍ ،
صَاحِبُ غَرْنَاطَةَ ، وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْتَضِدِ حَرْوَبٌ شَدِيدَةَ ،
قَالَ بْنُ خَلْدُونَ : « وَلِيٌّ (بَادِيسٌ) مَلِكُ غَرْنَاطَةَ بَعْدَ أُبَيْهِ ،
وَاسْتَوَى عَلَى سُلْطَانَهُ أَبْنَاعِيلَ بْنَ نَفْزُولَةَ الْذَّمِيِّ » ثُمَّ نَكَبَهُ وَقَتَلَهُ
سَنَةُ تَسْعَ وَخَمْسِينَ وَارْبِعَائِةَ ، وَقُتِلَ مَعَهُ خَلْقًا مِنَ الْيَهُودَ ، وَتَوَفَّى
بَادِيسُ سَنَةُ سَبْعَمْ وَسَتِينَ وَارْبِعَائِةَ ،

فكيف خفي عنك ما يعبثون
وفي الارض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراغ الزنا
وقد بغضوك الى العالمين
وكيف يتم لك المرتاق
اذا كنتم تبني وهم يهدمون
وكيف استنتم الى فاسق
وقارنته وهو بئس القرىن
ومنها :

وإنى حملت بغرناطة فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها ففهم بكل مكان لعنة
ومنها :

وَمَنْ أَمْنَاكُمْ عَلَى سَرْكِمْ وَكَيْفَ يَكُونُ امْبِيْنَا خُؤُونْ؟
 وَيَا كُلْ غَيْرَهُمْ دَرْهَمَا فِيْقَهِيْ وَيَدْنُونْ اذِيْأَ كَلْوَنْ
 وَقَدْ نَاهْضُوكُمْ إِلَى دَبْكِمْ فَإِيمَنْهُونْ وَمَا يَنْكِرُونْ
 وَمِنْهَا :

ورخم قردم داره وأجري اليها نمير العيون
وصارت حواًجنا عندـه ونحن على بابه قائمون
ويضحكـكـ مـنـاـ وـمـنـ دـيـنـناـ فـانـاـ إـلـىـ رـبـنـاـ رـاجـعـونـ^(١)

(١) يرى القاريء في هذا البيت اسلوبه الشيطاني في استفزاز العاطفة الدينية عن طريق التفجع على ما أصاب الدين من ضعف أدى بذلك اليهودي الى السخرية منه

ولو قلت في ماله إنه
كالم كفت من الصادقين
فبادر إلى ذبحه قربة
وضع به فهو كبش سمين
فقد كرزوا كل علق زين
ولا ترفع الضغط عن رهطه
فأنت أحق بما يجمعون
وقرق عراهم وخذ ما لهم
ولا تخسبي قناتهم خدرة
بل الغدر في تركهم يعيشون
فقد نكثوا عندنا عهدهم
فكيف تكون لما همة
ونحن خمول وهم ظاهرون
كانوا أساناً وهم محسنوون
فأنت رهين بما يفهمون
فلا ترض فيما بافة لهم
وراقب المرك في حزبه خزب الاله هم المفلحون

* * *

تملك هي الفھميّدة البليغة التي استفزت الناس الى الفتكت
باليهود وأخذ البريء منهم بذنب المسيء، وكان من تناجها
تملك المذبحة الكبيرة التي أشرنا اليها والتي لا يؤخذ بجزيرتها
الابو اسحاق ناظمه الذي عرف كيف يذلة قوم لفسه عن
طريق التشيم المدين والظهور بظهور التفاني في الدفاع :

المسيحية في إسبانيا^(١)

بعد الفتح الإسلامي اعتنق كثير من المسيحيين دين الفاتحين - حفظتهم لهذا المنافع من جهة واقتضى لهم بأن الدين لا لائى هو الذي الحق من جهة أخرى . فقد جددوا فلسفتهم في نظرية الصراع - يعتقدون أنه حيث تكون القوة يكون الحق ، ويقولون لا كهنة : « لو كانت المسيحية حقاً فلماذا أسلم الله بلادنا وهي مسيحية اشيمه نبي كاذب - وقد ذعمتم أنه أخذ الكاثوليكية تحت رعايته وقصصتم علينا

(١) مهرة عن كتاب دوزي المسمى

Recherches sur les Musulmans & Litt. d'Espagne

ومن هذه القطعة تنبئون حال المسيحيين في إسبانيا بعد الفتح الإسلامي ، وكيف تسلب الإيان إلى الكثيرين ومنهم الذين أسمائهم نيكلسون بالصابئين أو المولددين وكان لهم أكبر أنور في الدين الإسلامي وعاشوا كحوال في كنف أشراف العرب ووصل تمسكهم بالإسلام إلى حد عظيم جداً - ولقد يضطرنا إلى الاكتفاء بهذه الكلمة دون تمليل على بعض ما جاء فيها من النقط الظاهرة - رغم تناقض الأيجاز الشديد الذي يدعونا إليه ضيق الوقت .

جموعة من تلك المعجزات التي وقعت غيره على هذا الدين أيام المظالم الارية - لم لا تبعث هذه المعجزات مرة أخرى؟» وقد كانت هذه الاعتراضات في العصور السابقة تسبب الحيرة والارتباك للكثرة انفسهم الذين كانوا يجهلون كذلك لم خضع المؤمنون وذلوا أمام الملحدين ! - فاما تقادم زمان الفتح حلت هذه الاعتراضات بأن الآخرين من ملوك القوط بل كهنةهم وأشرافهم كانوا أئمة مجرمين وأن القوارع التي قرعنهم لم تكن الا عقابا عادلا من الله - وقد كان اعتبار النكبات قصاصا عادلا ، من فلسفة الاقدمين على العموم واليهودية على الخصوص - ولقد تتجلى في أمثال سليمان سعادة الابرار وشقاوة الفجار في صور مختلفة - ولما تولت النكبات على يعقوب لم يكن أصحابه ليزروا عن اعتباره مجرما ولو لأن برهن على طهارته وفضيلته - وكانت القرون الوسطى تطبق على التعماسة نفس هذه النظرية فكان انتصار المسلمين على الخصوص آية الغضب الالهي كما كانت انتصارات المسيحيين في رأى المسلمين - وكانت تردد هذه الجملة في ايطاليا كذلك وهي « اذا انتصر المسلمون فذلك لأن الله

يريد عفافنا على خهالينا » وكذلك كان يقال في اسبانيا -
وفي سنة ٨١٢ اذاع الفونس الثاني منشوراً باملاء الكهنة
قال فيه « أبها الله - ان الفوط اهواك بكبريائهم فلما
أهل لافت تمزقهم السيف العريبة » وفي سنة ٩٢٤ قال
سفكودي نقار في منشوره عناسبة انشاء معبد اليمان

وقال سبستيان بدوره «وانما هلك الجيش القرطى
لان الملوك والكهنة تركوا شريعة الله»، وقال كاهن باشيلوس
«عاقب الله أسلافنا في هذه الحياة الدنيا حتى لا تكون
هنا لك حاجة إلى عقابهم في الحياة الأخرى»، كذلك نرى
المؤرخين المقدمةيين من أهل الشمال اتهموا وزيتا ومعاصريه
بأنهم كانوا غلاملاً ملحدين فاهان الكهنة برمود الثاني

ومعاصريه بسبب ذلك - وفي رواية كاهن بشيليوس أقدم المؤرخين الذين ينقلون عنده ، أن برمود كان عاقلاً رحيمًا عادلاً وانه كان يعمل على فعل الخير واجتناب الشر ولكنكه كان سىء الحظ فقد حدث في عهده وقت ان كان يشغل عرش ليون - ان وجه المنصور الى المسيحية أشد الضربات التي أصابته امنذ الهجوم العربي فلم ينج شئ من سيوف المسلمين ولم تكن لنرى حينذاك الا مداين مخربة واديرة خاوية وكنايس مدمرة - بل اقى وصلات الحال الى أن سقط سبستبول وهيكل سان جان رأساً على عقب - وهنا راجع السؤال لماذا تغلب المسلمين على المسيحية ؟ وأجاب الكهنة على سبق عادتهم ذكر عقاب على خطاياانا والمنصور هو مطرقة الغضب الالهى ^(١) على أنهم كانوا جديرين أن

Almanzor a été le fleau de la colère céleste (١)

« المنصور مطرقة الغضب الالهى » هكذا كانوا يسمونه ، وله الحق في ذلك ، فلقد باع به حبه الشديد لغزو ، أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد ، خدثت له نية في ذلك ، فلا يرجع إلى قصره بل يخرج بعد اصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجماد ، فتنبعه عما كره وتتحقق به أولاً ذاؤلا ، فلا يصل إلى أوائل بلاد

يبيّنوا لنا أين كانت تلك الجرائم التي استوجبت هذه العقوبة المهائلة ؟ وكيف تم ذلك رغم أن الإيان بالخلود كان في ذلك الزمان أكثر منه في أي زمان آخر ؟ ولكن لا غرابة في ذلك فـ *مدآلي كتاب الفرق الثاني عشر* على أنفسهم أن يقعموا بهذا الواجب ^(١) مؤلف التاريخ الكشطالي على الرغم من أنه من رجال الكنيسة صحي بلا رؤية بالكمنة الذين ترأسوا كنيسة رمبو ستيل في القرن

الروم ، الا وقد لحقه كل من أراده من العساكر ، غزا في أيام مملكته نيفا وخمسين غزوة ، وفتح فتوحاً كثيرة ، ووصل إلى معاقل امتنعت على من كان قبله ، وملاً الانداس غنائم وسيباً من بنات الروم ، وأولادهم وأنسائهم ، وفي أيامه تفألي الناس الانداس فيما يجهزون به بنائهم من الثياب والحللى ، وذلك لشخص أمان بنات الروم ، حتى نودى على ابنة عظيم من عظام الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع ، فلم تساو أكثر من عشر بن ديناراً وكان في أكثر زمانه لا يدخل بأني يغزو غزوتين في السنة » اه ملخصاً عن كتاب الموجب

(١) وهو اتهام كل من أصابته نكبة بالعصيان لـ *هل عليهم*

فعليه ذلك

العاشر وأظهراهم بظاهر الفسقة المجرمين قساوة القلوب (١)
وعنى في لاح أثيبيو بشخص بر مود - ألا ترى كيف أنه
يبدأ كلامه بنشر صحفة طويلة من سيداته ومحازيه فإذا انتهى
منها وصل إلى هذه النتيجة فقال : « وإنما بسبب جرائم
بر مود وجرائم شعبه ان المنصور الخ ، وهكذا بروا عمل
الأنوبي التي سمحت للإسلام أن يكتسح المسيحية

* * *

ولما كانت الأقاصيص الشفوية قد حفظها كثير من
التجارب في زمان سبستيان ولم يكن قد اغترف إلا من ذلك
المتبع فقد وجب أن تقابل كل معلوماته بالحذر المشروع ، ا.ه

(١) فعل هذا ليتوصل به إلى اثبات أن سقوطهم كان
عقاباً عادلاً من الله

عبد الرحمن الثاني^(١)

٢٣٨ - ٢٠٦

ولامات الحكم بن هشام ، خلفه ابنه عبد الرحمن
الاوسيط ، وله انتصارات كثيرة على المسيحيين ، وقد ارتفع
ذ كره عند بني العباس ، وكان يتحجب عن العامة^(٢)

اثرة في الحضارة الاندلسية

كانت أيامه أيام هدوء وسكون ، وكثرت الأموال
عنه ، فاتخذ الفصور والمتزهات ، وجلب اليها الماء من
الجبال ، وأقام الجسور ، ونبذت في أيامه الجوامع ، وزاد في
جامع قرطبة رواقيين ، ومات قبل أن يستقر ، فاته من
بعده ابنه محمد^(٣)

(١) ولد سنة ١٧٦ وحكم احدى وثلاثين سنة

(٢) وقد وصل اجلاله وحبه ، ليعيي بن يحيى البياني الغفري
زعيم الثورة الدينية التي قامت ضد الحكم ، الى حد عظيم ، وقد
سبق الكلام على هذه الثورة ، فليرجع اليها في ص (٨١)

(٣) ملخصة عن المقرى

اثر لا في الحركة الفكرية

كان عبد الرحمن النافى عالما ، فاشتهر ميله إلى العلامة ،
وكان أدبيا فرفع مكانة الأدباء ، وكان عالما بالفلسفة والشريعة
فيجل الفقهاء ، ومن ثم ازدهر بلاطه بالعلماء والشعراء
ورجال الأدب والفقهاء ، ووصلت الحركة الفكرية في
الأندلس إلى مدى بعيد

ولعنة النساء

وكان شديد الولع بالنساء ، فاكتظ قصره بأحسن
الجوادى وأجملهن ، وقد خلف منها مائة وخمسين من
الذكور ، وخمسين من الإناث
وحكايته مع جاريه طروب أشهر من أن تتصدى لها
وخلاصتها أنه أغضبها ، فعقابته بالحجر والصدود ، وحاول
أن يتربصاها بكل الوسائل ، فأخذ حق ، فأرسل إليها من خاصة
خصيماته من يرغمها على الحضور ، فأغلقت باب حجرتها
دونهم ، فاستأذنوه في كسر الباب عليهم ، فلم يطأوه قلبا ،

ولما اعيته الحيل ، جأ إلى ترصنيةها ، فسد عليها الباب من
خارجه بيدر الدراع ، وتضرع إليها أن تراجه ، على أن لها
جميع تلك النقود ، نخرجت اليه مكبة على رجله تقبلها ،
وأحرزت المال كاه

أوصاف

كان أسمرا اللون ، طويلاً القامة ، أقنى الأنف ، أكحل
العين ، عظيم اللحية

أمثلة من شعره

لم نعثر من شعره ، بما يكتننا من الحكم على شاعريته
وربما كان في البيتين التاليين ، دليل على اصالة حكمته وبعد
نظره ، وصدق شاعريته ، والبيتان :
ولقد تعارض أوجه لا وامر
فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ ، إن يحو النهي بتجارب
فشباب رأى القوم عند شبابها
أما أيامه الأخرى ، فتخطط كثيرا ، عن هذه المزلة ،

فمن ذلك قوله في جاديته طروب ، التي مر ذكرها :
إذا ما بدت لي شمس النها ر طالعـة ذكرتني طروبـا
أنا ابن المـشـامـين من غالب أـشبـ حـربـاـ وأـطـفـيـ حـربـاـ
وليس فيـ الـبـيـتـ الـأـوـلـ مـعـنـيـ يـذـ كـرـ ، وـلـأـبـسـ بـجـمانـ
ذلك الصـورـةـ الـتـيـ يـحـويـهـ الـبـيـتـ النـانـيـ

وقوله يتשוק اليها ، وقد طالت غيابته في غزوة من
غزواته :

الافى بوجھى سوم المھجیر
اذا کاد منه الحصى ان یدزوا

تدرك في الله دين المدى
الصلبيا ف أحيةته، وأمت ~~الصلبيا~~
وسرت إلى الشرك في جحفل
ملأ الحزون به والشهوة
ولا بأس بنظم هذه الآيات الثلاثة في القوة (١)

(١) ومن أحسن ما عثروا به من نهره ، ما كان يكتبه في بعض
توفيقاته : « من لم يعرف وجه طلبه ، فالحرمان أولى به »

فضله على فن الغناء

ولى عبد الرحمن الثاني ، الحكم في سنة ٢٠٦ ، كأرسلينا ،
 فقدم عليه في تلك السنة الأولى من حكمه زرياب^(١) المغني
 المشهور ، من العراق ، فركب للقاءه ، وبلغ في اكرامه ،
 فكان بذلك أكبير نصيري لهذا الفن الجليل في بلاد الأندلس
 إلى عرفت كيف تنتفع بعواهبه هذا الفنان العبقري^(٢) ،
 وسترون في حينه - الأثر الجليل الذي أحدثه رق الغناء في
 نظام الشعر العربي في الأندلس^(٣)

(١) قال في المقتبس : « زرياب لقب غالب عليه بيبلده ، من
 أجل سراد لونه ، مم فصاحة لسانه وحلاؤه شائقه ، شبه بطاً أو
 أسود ~~عجم~~ عندهم ، وكان شاعراً مطبوعاً »

(٢) من شاء أن يتبع حرفة الغناء في الأندلس ، ويتعرف
 أثر زرياب الموسيقي فيها ، فليرجع إلى الجزء الثاني من كتاب
 العلامة دوزي « تاريخ مسلمي إسبانيا »

ص ٨٩ (L'histoire des Musu'mans d'Espagne)

(٣) سيرى القارئ أن الغناء كان السبب الأول في اختراع
 المؤشحات في الأندلس

(١) زریاب الموسیقی

” كان موسيقى فارسي في بلاط عبد الرحمن الثاني (٨٢٢-٨٥٢) الحظوة الأولى - ذلك الموسيقى هو زریاب (١)

(١) معرية عن كتاب نيكلاسون

(٢) نشأ ببغداد ، وكان تلميذاً لاسحق الموصلى ، فتلقف من أغانيه استراقاً ، وهدى من ذهب الصناعة ، وصدق العقل مع طيب الصوت ، وصورة الطبع الى ما فاق به اسحق ، واسحق لا يشعر بما فتح عليه ، الى أن جري للرشيد مع اسحق خبره المشهور في الاقتراح عليه بعنوان غريب ، بجيـد للصنـعة ، لم يـشتـهر مكانـه ، فذـكر له تلميـذه هـذا ، وـقال : « اـنه مـولـى لـكـم ، وـممـتـ له نـزعـات حـسـنة ، وـنـفـهـات رـائـفة ، مـلـاطـة بـالـنـفـس ، اـذـا اـنـا وـفـقـتهـ على ما اـسـتـغـرـبـ منـهـ ، وـهـوـ منـ اـخـتـرـاعـيـ وـاسـتـبـاطـ فـكـرـيـ ، وـاـحـدـسـ أـنـ يـكـونـ لـهـ شـائـنـ » فـقـالـ الرـشـيدـ : « هـذـا طـلـبـتـيـ ، فـأـحـضـرـنـيـ ، لـعـلـ حاجـتـيـ عـنـدـهـ » فـاحـضـرـهـ فـلـمـ كـلـمهـ الرـشـيدـ ، أـعـربـ عنـ نـفـسـهـ بـأـحـسـنـ منـطـقـ وـأـوـجـ خطـابـ ، وـسـأـلـهـ عنـ مـعـرـفـةـ بالـغـنـاءـ ؛ فـقـالـ : « أـحـمـنـ مـاـ يـحـسـنـ النـاسـ ، وـأـكـثـرـ مـاـ أـحـسـنـهـ لاـ يـحـسـنـونـهـ ، مـاـ لـاـ يـحـسـنـ الـاـ عـنـدـكـ ، وـلـاـ يـدـخـرـ الـاـ لـكـ » فـانـ أـذـنـتـ غـنـيـتـكـ ، مـاـ لـمـ تـسـمـعـهـ اـذـنـ قـبـلـكـ »

مولى الخليفة المهدى وناميد المغى النابه اسحق الموصلى الذى

فأمر باحضار عود استاذه اسحق ، فلما أدى اليه ، وقف عن تناوله ، وقال : « لي عود ، نحته بيدي ، وارهفته بأحكامى ولا أرتفى غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لي أمير المؤمنين في استدعائه »

فأمر بادخاله ، فلما تأمله الرشيد ؛ وكان شبيها بالعود الذى دفعه ، قال له : « ما منعك أن تستعمل عود استاذك » فقال : « إن كان مولاى يرغب فى غناء استاذى ، غنيمة بعوده ، وإن كان يرغب فى غدائى ، فلا بد لي من عودى » فقال له : « ما أراها إلا واحدا » فقال « صدقت يا مولاى ؛ ولا يؤدي النظر غير ذلك لكتن عودى وإن كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه - فهو يقع من وزنه في الثاث أو نحوه ، وأوتاره من حرب لم يغزل بماء سخن يكسبها أناة ورخاؤه ، وبعها ومثلثها (وتران من أوتار العود) أتخدتها من محران شبل أسد ، فاهما في الترم والصفا والجهارة والخدة ، أضعاف ما لغيرها من محران سائر الحيوان ، ولهما من قوة الصبر على تأثير وقム المضارب المتعاونة بهما ، ما ليس لغيرها » فاستبرع الرشيد وصفه ، وأمره بالغناء ، فجلس ، ثم اندفع فغناء :

يا أيها الملائكة الميمون طئره

هارون ، راح اليك الناس وابتكروا

رأى فيه منافسا خطرا فاغراه بمعادرة بغداد وتامس جده في أسبانيا حيث تلقاه عبد الرحمن الثاني مرحبا به، وأعطاه

فأئم النوبة، وطار الشيد طربا، وقال لاسحق: « والله لو لا أني أعلم من صدقتك لي على كثيّر إياك لما عنده، وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل، لازلت بك العقوبة، لنركك اعلامي بشأنه، فخذله اليك، واعتن بشأنه، حتى أفرغ له، فإن له فيه فيه نظرا» فسقط في يد اسحق، وهاج به من داء الحسد، ما غالب صبره، فخلأ بزرياب وقال: « يا على ! ان الحسد أقدم الا أدواه وأدوها ، والدنيا فتاتة ، والشركة في الصناعة عداوة ، لا حيلة في حسمها ، وقد مكررت بي فيما انطويت عليه من اجادتك وعلو طبقتك ، وتصدت منعك ، فإذا أنا قد أتيت ذنبي من مأمنها بادنائك ، وعن قليل تستطع منزاني ، وترتفني أنت فوقى ، وهذا ما لا اصحابك عليه ولو أذنك ولدى ، ولو لا رعنى لذمة تربيتك لما قدمت شيئا على ان أذهب ذرك ، يكون في ذلك ما كان ، فتخير في ثفتين ، لا بد لك منها ؛ اما أن تذهب في الارض العريضة ، لا أسمع بخبرك ، بعد أن تعطيني على ذلك الايان المؤقتة ، وأمهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، واما أن تقيم علي كرهي ورغبي مساعدة الى ، فخذ الان حذر كنهني

فغير اتفاقاً وأجرى عليه راتباً كراتب الامراء، ومنحه كل
ما يتصوره الانسان من مراتب الشرف، فأحرز شهرة

فلاست والله أبقي عليك ، ولا أدع اغتيالك ، باذلا في ذلك بدني
ومالي ، فاقض قضاياك »

رحلته إلى الأندلس

فسكن الرشيد الى قول اسحق، وقال : « علي ما كان به فقد
فاتنا منه مرور كثير ! »

卷之三

أم زوياب الحكيم، وكتب اليه يستأذنه في الوصول اليه

واسعة وصلت الى حد أنه كان يضع الاسلوب الأمثل لكل ما يختص بالذوق والعادات ، ويحدد الرزى ، ويصدق على الطهى ، ويعين من الملابس ما يمكن ارتداؤه في فصول

ويعلم به مكانه من صناعة الفناء ، ففرح الحكم بكتابه ، وأظهر له رغبته الشديدة في ذلك ، فسار اليه زرياب بعياله وولده فلما بلغ الجزيرة الخضراء ، وفاه ذمي الحكم فهم بالرجوع الى العدوة ، فثناء عن ذلك منصور اليهودي المغربي ، رسول الحكم الذى كان يرافقه ، ورغبه في قصد عبد الرحمن الثاني خلف الحكم

* * *

احتفاء عبد الرحمن الثاني به

فكتب الى عبد الرحمن ؛ فأحسن الرد عليه ، ورحب به ، وكتب الى حماله على البلاد أن يحسنوا اليه ، ويوصلوه الى قرطبة وأمر خصيا من أكابر خصيائنه أن يتلقاه ، حتى وصل الى البلد فنزل في دار حسنة ، واستدعاه بعد ثلاثة أيام ، وبدأ بمحاسنته على النبيد ومقاع غنائه ؛ فما هو الا أن مممه ؛ فاستهوله واطرح كل غناء سواه ، وشفف به وقدمه على كل المغنيين

* * *

وكتب له في كل شهر بمائى دينار راتبا ، وأن يجري على يديه الاربعة عشر دينارا كل واحد منهم ، وأن يجري على

السنة ، وكان يتذمّر ملوك أسبانيا - إن وذجا لهم ، وما زال
يعظم سلطانه حتى صار يستشعّ به ، وعرف ذلك عنه جميع
سكان المملكة حتى آخر أيام حكم المسلمين ^(١)

زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، وأقطعه كثيراً
من إساتين قرطبة

فضل زرياب على الموسيقي

وَمَا أَدْخَلَهُ فِي الْمُوْسِيقِيِّ الْعَرَبِيِّةِ مِنَ التَّحْمِيمَاتِ - عَدَا
الْأَنْغَامِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَدْخَلَهَا فِيهَا - إِنَّهُ زادَ فِي أَوْتَارِ عُودِهِ وَتِرَا
خَامِسًا ، اخْتَرَاعًا مِنْهُ ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَرَعَ بِالْأَنْدَاسِ مِنْ رَابِّ الْعُودِ
مِنْ قَوَادِمِ النَّسْرِ بِدِلَالٍ مِنَ الْخَشْبِ فَأَبْدَعَ فِي ذَلِكَ ، لَاطْفَقَ فَشَرَّ
الرِّيشَةَ وَنَقَائِهِ وَبَخْفَتَهُ عَلَى الْأَصْبَاحِ وَطُولَ سَلَامَةِ الْوَتَرِ عَلَى كُثُرَةِ
مَلَازِمِهِ أَيَّاهُ ، فَلَا غَرَوْ إِذَا غَطَى فَضْلُهُ عَلَى كُلِّ مَنْ اشْتَهَرَ بِغَنِّ
الْفَنَاءِ فِي الْأَنْدَاسِ مِنْ قَبْلِهِ .

سعة حفظه

وَقَدْ حَفِظَ نَحْوَ هُشْرَةِ آلَافِ مَقْطُوْعَةٍ مِنَ الْأَغَانِيِّ بِالْحَانَهَا ،
فَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى سُعَةِ اطْلَاعِهِ ، وَوَفَورِ ذَكَارِهِ . ا . هـ مَلْخَصًا عَنِ
المُقْرِيِّ بِتَصْرِيفِ

(١) وَالْقَارِيِّ مَا قَالَهُ الْمُقْرِيُّ فِي ذَلِكَ أَيْضًا ، لِيَتَبَيَّنَ مِنْهُ مَهَارَةُ
زَرِيَّابٍ وَأَثْرُهُ الشَّدِيدُ فِي الْحَضَارَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ بَعْدَ أَنْ عَرَفَ فَضْلَهُ

* * *

ولم يكن زرياب إلا واحداً من كثيرين من النواوبي
ورجال العلم الذين وفدوا على إسبانيا من الشرق فان قائمة

من قبل على الغناء الاندلسي
« وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه ، الاشتراك في كثير
من ضروب الظرف ، وفنون الأدب ، ولطف المعاشرة ، وحوى
من آداب المجالسة ؛ وطيب المحادثة ، ومهارة الخدمة الملوكيّة ،
ما لم يجده أحد من أهل صناعته ، حتى اتّخذه ملوك أهل الاندلس
وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه واستحسنوه من أطعّمه
فضصار إلى آخر أيام أهل الاندلس مذسوباً إليه ومعلوماً به
فإن ذلك أنه دخل إلى الاندلس ، وجميع من فيها من رجال
أو امرأة يرسل شعره مفروقاً وسط الجبين ، غاماً للصدغين
وال حاجبين ، فلما عاين ذوي التحصيل ، تحديقه هو وولده ونساؤه
لشعرهم ، وتقصيرها دون جيابهم ؛ وتسويتها مع حواجبهم ،
وتدويرها إلى آذانهم ، واسداها إلى أصحابهم - حسناً عليه
اليوم الخدم الخصية والجواري - هو تاليه أفتقدتهم واستحسنوه
وما سنه لهم ، استعمال المرنن المتخذ من المردانسنج ، لطرد
ريح الصنان من مغاربهم ، ولا شيء يقوم مقامه ، وكانت ملوك
الأندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل

العلماء الذين رحلوا في طاب العلم إلى أفريقيا ومصر والى
المدن المقدسة في بلاد العرب والى حواضر سوديا العظيمة
ذلك من ذوات القبض والبرد، فكانوا لا تسلم ثيابهم من وضره،
فقطهم على تصعيدها بالماج، وتبسيط لونه، فلما جربوه
أحبوه جدا

* * *

وما اخترعه من الطبيخ اللون المسمى عندهم بالتفايا، وبائيه
عندهم لون التقلية المنسوبة إلى زرياب

* * *

وما أخذه عنه الناس بالأندلس، تفضيله آنية الزجاج الرفيع
على آنية الذهب والفضة، وايشاره فرش أنطاع الاديم لتقديم
الطعام فيها على الموائد الخشبية، اذا الوضر يزول فيها عن الاديم
بأقل مسحة.

وابسه كل صنف من الثياب في زمانه الذي يليق به، فإذا
رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم الملون من
يوم وهرجان أهل البلد في ست بقين من شهر يونيو، فيلبسوه
إلى أول شهر أكتوبر ثلاثة أشهر متواصلة، ويلبسون بقية السنة
الثياب الملونة، ورأى أن يابسو في الفصل الذي بين الحر والبرد
ـ المسمى عندهم بالربيع ـ من صبغتهم جباب الخز، والماجمـ

والعراق . والى خراسان وترانسكسنيا . بل والى بلاد الصين أحياناً - كانت تحوى كل نابغى الادباء ورجال البلاغة العربية الذين أنجبتهم اسبانيا الاسلامية كما يرى ذلك من يتصفح الفصل الخامس من كتاب المجرى - ولهذا كانت حركة مبادلة الآراء في دوّوب ونشاط ، فلم يستأثر أحد من رجال الشرق والغرب بشيء خاص ، وعرف الناس كل شيء حتى أن مشاهير شعراء الاندلس كابن هانئ وابن زيدون كانوا يفعّلهم الفقاد الشرقيون المعجبون بهما بعذبي الغرب وبمحترفيه ^(١) .

* * *

والمحرر ، والدراريم التي لا بطائن لها ، لقربها من اطاف ثياب البياض الظاهرة ، التي ينتقلون اليها ملتحفتها وشبة المحاشي ، ثياب العامة ، وكذا رأى أن يلبسوها في آخر العصيف ومن أول الخريف ، المحاشي المروية ، والثياب المصممة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذات الحشو والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد في الغدوات ، الى أن يقوى البرد فيقتلون الى أثخن منها من الملؤنات ، ويستظهرون من تحتها اذا احتاجوا اليه - صنوف الفراء ^(١) يجده القاريء في ختام هذا الفصل كلة في هذا الصدد

لعل أول ما يتبادر إلى أذهاننا ويسترعى انتباها هنا
وغيرنا من هذه القطعة، هو تقدير الاندلسيين لزدياب، الذي
وصلوا فيه إلى حد التقديس - رحب به عبد الرحمن الثاني،
وأغدق عليه نعما لا تتحصى، واجرى عليه راتبا كراتب
الامراء وزاد افتقاته به وثقة - إسلامة ذوقه إلى حد أن
حكمه في كل ما يخص بالأذواق والعادات وتعييز ما يصح
ارتداؤه في فصول السنة

هذا الاحتفاء النادر الذي اقيمه هذا المغني اللمعى -
وذلك التقدير الذي تغالوا فيه إلى هذا الحد، يدللنا على
شيئين غاية في الأهمية :

أولهما شفف الاندلسيين بفن الغناء وعنائهم بأمره
عنابة ربما رجحت عنابة الغربيين اليوم بهذا الفن وأهله^(١)
وثانيةهما مغالاة الاندلسيين في الافتتان بكل شرقى

(١) سمعتني مع بهذا الاستنتاج في موضعه حين تكلم عن
الموشحات الاندلسية ونشأتها وأثر الغناء في الشعر العربي -
وكيف أنه كان - ببدا في تحطيم أكبر قيد من القيود التي وقفت
بالشعر في مكانه وأخرته عصورا طويلا

والهيا م بكل ما يمت بعلاقة الى المشرق ولم يقتصر ذلك على طبقة خاصة من الاندلسيين بل كان عاما في كل الطبقات من الملوك الى احقر افراد شعبه وقد اظهر لكم حضرة الدكتور صنيف احتفاء الشديد بأبي على القالي بما يعزز رأينا في ذلك، فاما الاستدلة الاولى فلما عودة اليه في موضعه، وأما النقطة الثانية فانا نوجزها في ما يلي :

اثر الشرق في الاذلس

ان تقديس الاندلسيين لكل شرقى، مما يكاد يامسه كل مطلع على تاريخهم في كثير من المواقف ، فلقد تغالوا في اجلال الشرق حتى كانوا ينظرون اليه نظرة الابن الى أبيه ولعلكم تلمحون ذلك فيما ذكره نيكلاسون من تلقفهم ابن هاني وابن زيدون بعندي الغرب وبختريه^(١) فقد كان أقصى ما يطمح اليه الشاعر الاندلسى هو أن يلقب باسم شاعر

(١) لذا عودة قريبة الى هذه التسمية ومناقشتها، لنتبين مقدار صحتها او خطئها ، فليس من العدل أن نمر بها من غير تعريف عليها ، وسنتناول ذلك في ختام هذا الفصل

شرقي مشهور ، أو أن يقال أنه شبيه بمعاصره الشرقي فلان ،
كما كان أقصى ما يطمح إليه النحوي ، هو أن يشبه بنابغ من
نحوة الشرقيين كسيبوه ، وكذلك كان أقصى ما يطمح إليه
الملك هو أن يتشبه بملوك بنى العباس ويقلدهم في كل شيء

* * *

قال العباس بن الأحنف على لسان هارون الرشيد
تملك الأبيات الشهيرة المنسوبة إلى ثانيةها ، وهى :
— ملك ثلاث الآنسات عنانى

وحلان من قابى بكل مكان
— مالى تطاوعنى البرية كلها
وأطيعهن وهن فى عصياني ؟
— ما ذاك الا أن سلطان الموى

— وبه قوين أعزـ من سلطاني
فإذا فعل سليمان الظافر أحد ملوك الاندلس ؟ قوله
فيها فقال :

عجبما يهاب الایث حد سنانى
وأهاب لحظ فواتر الأجنفان

إلى أن قال : « وتعلّكت نفسى ثلث كالدمى ،»
يا عجباً : كأن إبنة الملك ونخاره لا يهان إلا بتقليله
أحد ملوك بنى العباس حتى في أتفه الأشياء - فإذا عشقت
أحد هم ثلث أو انس ، وتعلّكن قلبها ، وغلبتها على أمرها ، تختتم
على السلطان الاندلسي أن عشق مثل هذا القدر لا يكثير
ولا أقل - ووجب أن يتملكن قلبها ويفلغنها على أمره كذلك ،
لتشبه حاله حال السلطان العباسى !!

ووجب أيضاً أن يكون التشبيه بهن من البحر
الكامل والكافية النونية ، إنما يحسب العشق مزيقاً والنسيب
سمجاً غير مقبول !!

قد تكون أسرفنا في هذا الاستنتاج وقد تكون
توبهنا غير الحقيقة ، وقد يكون السلطان الاندلسي أراد
 مجرد الفكاهة والهم خذل ، بتقليله السلطان العباسى !! قد
 يكون هذا وقد لا يكون ، ولكن لا بأس علينا في ذلك
 فـ كلا الأمرين محتمل ، ولكن ما نريد اثباته أمر تارىخى
 واقع سواء أصح ذلك الاستدلال أم لم يصح ، فـ ان هناك
 كثيراً من القرآن تززه - انظروا إلى قول أحد شهـراء

الانداس وقد صنجر لعدم التفاتات قومه اليه
أنا الشمس في جو العلوم منيرة
ولتكن عبي ان مطلعى الغرب
ولو أنى من جانب الشرق طالع
لجد على ما صناع من ذكرى النهب
وقول آخر :

اما ترى احمد في مجده لا يلحق
اطلعمه الغرب فارنا مثله يامشرق^(١)
وقول بعضهم في الترحيب بالمخزوى ، المجاد الشهير ،
حين قدم غرناطة :

(١) هذا يدلّكم على أنهم كانوا يعتبرون الشرق مخرج النوافع
والمعناء

(٢) المخزومي هذا هو ابو بكر المخزومي ، وهو شاعر اعمى
شديد القحة والشرة ، خبيث الطبيع ؛ ثلاب للاعراض ؛ ولست
ادري اي وجه من اوجه الشبه بين هذا الوقع وبين شاعر المعرة ؟
فلييس بينها من شبه الا تلك لافة المحتومة وهي فقدان البصر ؟

ثم انظروا الى قول أحد شعراء الاندلس الذى اظهر

فيه تبرمه بتقليد العباسيين في كل شيء حتى في اسمائهم :

اما فيما عدا ذلك ، فبينها من اوجه الشبه والاتصال ما بين
النقىض والنقيض ، وما الفرق بين المجرى وبين هذا المخزومى
الا كالفرق بين الخير والشر او النور والظلمة
ولكنها غادة الفها الاندلسيون في التشبيه بمشهورى المشارقة
كما اوضحتناه !

ولا يأس من انهاز هذه المناسبة لنجيل من شاء التوثيق من
قصة هذا الشاعر وثبت نفسه ، الى حكايتها مع نزهون بنت
القلاء فى ص ١١٨ من الجزء الاول من كتاب نفح الطيب ،
ففى هذه الحكاية مثل صحيح يعطى فكرة عامة عن كثيرون من
مجالس الادب فى بلاد الاندلس ، وأخلاق فئة كبيرة من ادبائهم
وأدبياتهم فى ذلك العصر ، وربما دل على شدة الشبه بين ما كان
يحدث فى تلك المجالس الاندلسية من الجون ، وبين مجالس أبي
نواس وأضرابه فى الشرق ، وربما ذكرنا هذا المجاجء الواقع الذى
نطالعه فى تلك الحكاية ، بما جاءه بشار وحمد عجرد ، وملاحة
جرير ، وما اكتنط به ذلك الزمن من الفحش وشهر القول مما
لا تساعده آداب هذا المهر على اثباته ، على انة نكتفى بتذكرة
القارئ ببيانية جرير التي فيها بيت المشهور :

ما يزهدني في أرض اندلس
القاب معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موطنها
الاهر يحكي اتفا خاص صورة الاسد

* * *

نجتزيء بهذا القدر في انبات تأثير الغرب بالشرق، على ان
فيما يراه المطلع على تاريخ الاندلس الكفاية في تعزيز
ما ذهبنا اليه

اذا غضبت عليك بنو نمير رأيت النـاس كلهم غضبا
لتنبه الى قوله :
لعمرك ما تقول بنو نمير اذا ما الا .. ف... ايـك غـابـا :

* * *

وقد أسلفنا القول أن الاندلسيين تأدبوا بأدب الشرق ،
وانخذلوا شعراء المشارقة قدوة واماـما ، فقلدواهم في كل شيء
تقريبا ، ولن تؤدي هذه العوامل الى غير هذه المـتيـجة

ابن هانئ ومتى نسبتى

بقي بعد ذلك، أن نناقش المؤرخين في تشبيه ابن هانئ بالمتني وابن زيدون بالمحترى، وقد وعدنا في أول هذا الفصل بالعودة إلى ذلك في ختامه^(١) والآن نبربو وعدنا

* * *

ولما كنا لم ندرس ابن زيدون دراسة تكمننا من الحكم عليه حكمًا صحيحًا، فانا نترك مناقشة القسم الثاني من هذه التسمية. ونكتفى الآن بالكلام على الفقطة الأولى وهي تشبيه ابن هانئ بالمتني لاستطاعتنا الكلام فيها - وسنسلك في الموازنة بينها طريقة قد لا نرضى عنها كثيراً. وقد لا نملك أنفسنا من الشعور بفترة صعبها الشديد، ولكن صنيق الوقت وحاجتنا الشديدة إلى الإيجاز يضطراننا إلى سلوكها

(١) كان من حق هذه المقارنة أن تؤخرها قليلاً، إلى عصر الناصر أو عصر الحكم الثاني، فقد وجد ابن هانئ في زمنها كما تراه في ترجمه، ولكننا أردنا التعميل بهذه الكلمة لنتعلم بها مناقشة اراء الاستاذ نيكلاسون في النبذة التي ترجمناها له

رغم اعتقادنا بأن سرد عدة أبيات - كائنة ، ما كانت - لشاعر ما، لا يكفي للوصول الى حكم صحيح عنه . وربما اتسع لنا الوقت فكتبنا في هذا الموضوع رسالة خاصة نسلك فيها طرق المقارنة الصحيحة ، على أن كلتنا ان تخلو من بعض فوائد، أهمها تحريك الافكار لمناقشة هذا الموضوع الخطير، ونبداً الموازنة بينها الان بسرد بضعة أبيات من أرقى شعرهما المختار، لنتبين منها شاعريتها ثم نسرد آراء مؤرخي الآداب فيها ونذاقشها العلامة نصل الى نتيجة مرضية :

لهم علما قلقتنا رأيه وعلما إلينا كان فتننا . قيمتنا
ثلاثة - لبيه وعلما التقدمة التي كارع نتيلان له من اهليته
حلق . الحدث لبيه من نوع كلية تفاصيله لعله يفتح على الماء
وقيمعه لبيان دليلها لم يتحقق ، عمشانه لنسبة أوليالها كا
لـ علـةـ رـاـنـاـ لـ عـنـ فـنـ لـ إـلـ كـاـ رـاـ مـاـ قـدـ يـسـتـ الـ تـبـ لـ عـ تـ قـ هـاـ

يعـدهـنـ اـ مـاـ يـلـيـ لـ عـنـ فـنـ لـ إـلـ كـاـ مـاـ نـهـيـ نـهـيـ (١)
لـ عـنـ فـنـ دـلـيـلـهـ لـ اـ بـلـصـعـ بـلـيـلـهـ دـلـيـلـهـ لـ إـلـ كـاـ مـاـ عـنـ فـنـ لـ إـلـ كـاـ
لـ عـمـشـانـهـ اـ مـلـيـلـهـ لـ يـلـيـعـمـشـانـهـ اـ كـاـ لـ إـلـ كـاـ . دـلـيـلـهـ عـنـ مـاـ لـهـ لـ كـاـ
لـ عـنـ فـنـ فـنـ يـلـيـلـهـ بـلـيـلـهـ مـاـ لـهـ لـ كـاـ مـاـ مـلـيـلـهـ اـ كـاـ مـاـ اـ قـلـيـلـهـ

ختار شعر ابن هانىء^(١)

قال في الحكم
إنا - وفي آمال أنفسنا
طول ، وفي أعمارنا قصر -

^(١) ابن هانىء الأندلسى

ولد سنة ٣٤٦ - توفي سنة ٣٦٣

اسمه محمد ، كنيته أبو القاسم ، اسم أبيه هانىء الأزدي
أحد الشعراء في بعض قرى المهدية ، وتلميذ رجل إلى الأندلس ،
حيث خلف مخدرا هذا ، بمدينة إشبيلية ، ومن تاريخه ، نتبين أنه
كان معاصرًا للمتنبي في الشرق ، ولعبد الرحمن الناصر وابنه
الحكم الثاني في الأندلس ، وأى أنه كان في أزهى عصر من عصور
الادب العربي في الشرق والغرب
نشأ بأشبيلية واكثر من حفظ اشعار العرب وتعرف أخبارهم
و عمل الشعر وهو فيه
تقرب من صاحب أشبيلية ، وما كان ابن هانىء ميلاً إلى
الفلسفة شغوفاً بدراستها ، وكان الأندلسيون يتهمنون كل من
اشتغل بها ، باللحاد والكفر (ارجع المص ٩٢ و ٩٣)
كريه الناس ،
٩ - نظرات

لنرى باعيننا مصادرنا
لو كانت الألباب تعتبر
مما دهانا أن حاضرنا
أجفاننا والغائب الفكر
وإذا تدبرنا جوارحنا
فأكلاهن العين والنظر

واساءوا الفطن بصاحب أشبيليه بسببه ، واتهموه بمذهبة ، فاشار
عليه بالرحيل الى مكان آخر ، ريثما ينسى امره ، فاستصوب كلامه
وأم بلاد المغرب ، وهو في السابعة والعشرين من عمره ، ومدح
جوهر القائد ، واستقدمه المعز حين انتهى خبره ، اليه وبالغ في
الانعام عليه ، فاكثر من اشعاره في مدحه ، ولما انتقل المعز الى
مصر ، تجهز ابن هاني للحاق به ، فلما وصل برقه مات فيها ،
وقد اختلفت الروايات في سبب موته ، واشهرها ، أن شخصا
من أهلها أضافه ، فخرج ذات ليلة من داره وهو سكران ، فنام
في الطريق حيث وجدوه في اليوم التالي ميتا ، وقد حزن المعز
حين بلغه ذلك وقال جملته المشهورة : « هذا رجل كنا نود أن
نفاخر به شعراً المشرق ، فلم يتحقق لنا ذلك »
وهما يسترعي النظر أن ابن هاني مات سنة ٢٦٣ أي في السنة
التي ولد فيها ابو العلاء المربي

لَوْ كَانَ لِلْأَبَابِ مُمْتَحَنٌ
مَا عَدَ مِنْهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ
أَيْ الْحَيَاةُ أَلَذِّ عِيشَتْهَا
مَنْ بَعْدَ عَالَمٍ أَنِّي بَشَرٌ
خَرَسْتُ لِعُمُرِ اللَّهِ أُسْنَتِنَا
لَمَّا تَكَلَّمَ فَوْقَنَا الْقَدْرُ

هَلْ يَنْفَهِي عَزِّ ذِي يَمِينٍ
وَجْهُوْلَهَا، وَالْيَمِينُ وَالْغَرْبُ
وَمَقَالِي الْمَحْمُودُ شَارِدَهُ
وَلِسَانِي الصَّمْصَامَةُ الذَّكْرُ
هَا إِنَّهَا كَأْسٌ بَشَّعَتْ بِهَا
لَا مُلْجَأٌ مِنْهَا وَلَا وزَرٌ
أَفْتَرَكَ الْأَيَامُ تَقْعُلُ مَا
شَاءَتْ وَلَا أَسْطَوْ فَتَنْصُرَ
هَلَا بِأَيْدِينَا أُسْنَتِنَا
فِي حِينٍ نَقْذَفُهَا فَتَشَقَّصُرُ

وَفِيهَا يَقُولُ :
أَقْسَمْتُ لَا يَبْقَى صِبَاحٌ غَدِيرٌ
مُقْبَلٍجَ وَأَحْمَمَ مُعْتَكِرٌ
تَفْنِي النَّجُومَ الزَّهْرَ طَالِعَةَ
وَالنَّيَارَاتِ الشَّمْسَ وَالقَمِيرَ
وَلَئِنْ تَبَدَّتْ مِنْ مَطَالِعِهَا
مَفْظُومَةً فَلَسُوفَ تَنْتَثِرَ
وَلَئِنْ سَرَى الْفَلَكُ الْمَدَارُ بِهَا
فَلَسُوفَ يَسْلَمُهَا وَتَنْفَطِرُ

وفيها يقول :
و اذا صحبت العيش أوله
صفوا ، فهين بعده الـ كدر
و اذا انتهيت الى مدي امل
دركا ، فيوم واحد عمر
و خير عيش انت لابسه
عيش جنى ثمراته الـ كبير
ولـ كل حلبة سابق امد
ولـ كل نملة وارد صدر
و جدود تعمير المـ عمر آن
يسـمو صـ عـودـا ثم يـ تـحدـر
والـ سـيفـ يـ بـلـيـ وهو صـاعـقةـةـ
و تـنـالـ منـهـ الـ هـامـ وـ القـصـرـ
وـ الـ رـاءـ كـالـ ظـلـ المـ دـيدـ ضـحـىـ
وـ الـ فـىـ يـخـسـرـهـ فـيـنـ حـسـرـ
ثم يقول في ختامها :
غرض تـرامـيـ فـيـ الـ خطـاـوبـ ، فـذـاـ
قوـسـ ، وـذـاـ سـهمـ ، وـذـاـ وـترـ

جزعت ، حتى ايس بي جزع

و حذرت ، حتى ايس بي حذر^(١)

* * *

وقال في النسيب :

- امسحوا عن ناظري كحل السهادِ

وانفهضوا عن مضجعى شوك القتادِ

- أو خذوا مني ما أعطيتُم
لا أحب الجسم مسلوب الفؤادِ

- هل تجرون محبًا من هوى ؟
أو تفكرون أسيرا من صفاد ؟

أسلوا عنكم هن هجركم
فاما يسلو عن الماء الصوادي ؟

(١) هذا ما اختر زاه من قصيدة الفلسفية التي قالها في رثاء والدة

يجي وجمفر بن هلي ، ومن رأينا أنها قد مرت إلى أعلى قمة ووصلت
إليها ببلغة ابن هاني ، ويمكن القول بأنها أروع قصيدة رأيناها له

انما كانت خطوب فيضت
فعدتنا عنكم احدى العواد
في ليالي منكم من بعدكم
ما على الظاماء من لبس الحداد
لامزار منكم يدنو سوى
أن ارى أعلام هضب أو نجاد
ومنها :

قل تنويل خيال منكم
يطبي بين جفون وسهام
ومنها :

لم يزدنا القرب الا هجرة
فرضينا بالنة-أنى والبعاد
واذا شاء زمان رابنا
برقيب او حسود او معاد

وقال يصف أكول:
ياليت شعرى ، إذا أومى الى فه
أحلقه لهوات أم ميادين ؟
كانما - وخيث الزاد يضره -
جونم ، قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ما أمضى أسنة
كانما كل فلك منه طاحون !
كان بيته سلاح فيه مخزن
 مما أعدته للرسل الفراعين !
أين الاسنة أم أين الصوارم أم
أين الخناجر أم أين السكاكين
كانما الجمل المشوى في يده
ذو النون في الماء لما عضه النون
لف الجداء بأيديها وأرجلها
كانما افترستهن السراحين
وغادر البط من مثني وواحدة
كانما اختطفتهن الشواهين

يختفِضُ الرز من قرن الى قدم
وللبلاءِ عم تطريب وتلحين
كأنما كل ركن من طبائعه
نار، وفي كل عضو منه كنون !
كأنما في الحشا من خمل معدته
قرنفل وجواريش وكمون
فromo بنا فلقد ربعت خواطرنا
وجاذبنا أعتقها البراذين
نصحةكم، نخذوا من شدفة وزرا
أولا، فأتم سويق فيه مطحون^(١)

(١) هذه قصيدة جميلة تتمثل منها صورة مضحكه لشره ذلك الاكول ، ولـكنها - على جهاها - لم تسم الى شعر الفحول أمثال المنبـي وابن الرومي ، والـقاريء ما قاله الثاني في هذا المعنى ، ليتبين منه بنفسه ، الفرق بين شعر الفحول وغيره : وأما يـد البصري في كل صفحـة

وقوله في وصف الخيل :

وصواهل، لا المضب يوم مغارها

مضب، ولا البييد الحزون حزون

عرفت بساعـة سبقها، لأنـها

علفت بها يوم الرهـات عيون

وأجل علم البرق فيها أنها

مرت بـجـانـتـيـه وهـى ظـنـونـ(١)

على أنه ينـعـي إلـى كـلـ صـاحـبـ
ضرـوسـاـلـه تـأـنـى عـلـى النـورـ والـكـبـشـ

يـخـبـرـ عـنـها أـنـ فـيـها تـلـمـاـ

وـذـلـكـ أـدـهـيـ، وـأـوـكـدـ لـاجـرـشـ

أـلـمـ تـعـلـمـوا أـنـ الرـحـىـ، عـنـدـ تـقـرـهاـ

وـتـجـرـيشـهاـ، تـأـنـى عـلـى الـعـلـبـ وـالـهـشـ؟

(١) انـظـرـ إلـى المـغـلاـةـ الـقـبـيـحةـ فـي هـذـاـ الـبـيـتـ ، نـمـ قـسـهـ إلـىـ

بـيـتـ أـبـيـ الـعـلـاءـ الـمـعـرـىـ فـي وـصـفـ سـرـعـةـ الـخـيلـ مـنـ غـيرـ أـنـ يـاجـأـ
إـلـىـ الـمـحـالـ ، فـي قـوـلـهـ مـنـ قـصـيـدةـ أـنـشـأـهـاـ فـيـ صـبـاهـ :

وـلـاـ لـمـ يـسـابـقـهـ شـيـءـ مـنـ الـحـيـوانـ مـاـبـقـنـ الـظـلـالـ

وقال يمدح المعز

تقول بنو العباس « هل فتحت مصر »

فقل ابني العباس : « قد قضي الامر »

وقد جاوز الاسكندرية جوهر

تطالعه البشري ، ويقدمه النصر^(١)

ومنها وهو نهاية الماق وصغر النفس :

امام رأيت الدين مرتبطا به

فطاعته فوز ، وعصيائه خسر

أرى مدحه كالمدح لله إنه

فتون وتسبيح بخط به الوزر

إلى أن يقول :

رأى أن سيسنى مالك الأرض كلها

فاما رأاه قال : « ذا الصمد الور »

(١) في هذين البيتين تهب علينا نفحات المتنبي

رغم ما شعر به من السخط لما في الآيات الأخرى من المغالاة

والملق

وفيها يقول :

وما ضر مصر حين ألقت قيادها
إليك ، امد النيل أم غاله جزر

* * *

غدا جوهر فيها غمامه رجمة
يقى جانبيها كل جانبه تعرو
كأني به قد سار في القوم سيرة
تود لها بغداد لو أنها مصر
ستحسدها فيها المشارق ، انه

سواء اذا ما حل في الارض والقطر
الى أن يقول مخاطبا المعز :

وأوصيته فيهم برفقك ، مردفا
بحجودك ، ممقوداً به عهدك البر
وصاة كا أوصى بها الله رسلاه
وليس باذن أنت مسمعا وقر

ويقول :

رضينا لكم يا أهل مصر بدولة
أطاع لنا في ظلها الامن والوفر
لـكم اسوة فيينا قديما ، فلم يكن
بأحوالنا عنكم خفاء ولا ستر

* * *

حي يقول :

فيما ملـكا - هدى الملـاثك هديه -
ولـكن نجـر الانبياء له نجـر
وـيا رازقا من كـفـه نـشـأـ الحـيـاـ
وـالـافـرـقـ أـسـرـارـهاـ نـبعـ الـبـحـرـ
الـاـ انـهاـ الاـيـامـ اـيـامـكـ الـىـ
لـكـ الشـطـرـ مـنـ نـعـائـهاـ ، وـلـنـاـ الشـطـرـ
لـكـ الجـدـ مـنـهاـ ، يـالـاـكـ اـخـيرـ وـالـعـلـىـ
وـتـبـقـىـ لـنـاـ مـنـهاـ الـحـلوـبـةـ وـالـدرـ

ويقول في ختامها وهو نهاية الاحالة :
فلو سمع التثويب من كان دمة
رفانا ، ولبى الصوت من ضمه قبر
لنا ديت من قد فوزَ ، احى بدولة
تقام لها الموتى ويرتحم العمر ! ،
ونختار له في المدح قوله أيضاً :
أبى العوالى السمهريه والسيرو
فالمشرفة والعديد الا كثر
من منكم الملك المطاع كانه
تحت السوابع تبع في حير
القائد الخيل المتق شوازيا
خزرا الى لحظ السنان الا خزد
شعت النواصى حشرة آذانها
قب الا باطل ، دانيات الا نسر
تنبو سنة ابكيهن عن عفر الثرى
فيطن فى خد العزيز الاصغر

وفيها يقول :

قوم يميت على الحشايا غيرهم
ومبيتهم فوق الجياد الضمر
وتغلل تسبح في الدماء قبابهم
فكانهن سفائن في أحمر
خياضهم من كل مهجة خالع
وخيامهم من كل لبدة قسور
حتى من الاعراب الا أنهم
يردون ماء الامن غير مكدر
وأصدق ما نصف به هذه القصيدة أنها زلية محكم
لشعر المتنبي ۱

ختار شعر المتنبي^(١)

صاحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعنه من أمره ما عنانا

(١) أبو الطيب المتنبي

٣٥٤ سنة هـ

أبيه أحمد بن الحسين، لقبه المتنبي، كنيته أبو الطيب، ولادته
بالكوفة وكان أبوه سقاء

نشأ أبو الطيب محباً للعلم والآداب قوى الحافظة، فلما ترعرع
حمله أبوه الشام يتنقل به من باديتها إلى حاضرها، واستمر في
تلقي العلم فأتقن اللغة وتعمق في معرفة حوشها. وحفظ الكثير
من شعر الجاهليّة وغيره.

نشأ بعيد الهمة، كبير المفسر فلم يقنع بالشهرة الأدبية بل
طمحت نفسه إلى السيادة بالفتح ! فدعا إلى بيته قوماً من مراديّه
من أبناء سنه فباعوه، وما كاد يتم له ذلك، وصل خبره إلى والي
البلدة فقبض عليه وحبسه، ثم أطلقه الوالي بعد حين.

فيقال أنه خرج إلى بني كلب، وأقام فيهم وادعى أنه ملوي،
ثم ادعى النبوة - وفي هذا كلام كثير ربما عدنا إلى مناقشته في
غير هذا الكتاب !

قالوا : « ولما شاع أمره بين الناس خرج عليه أثاؤه، وأمير حصن

وتولوا بعضاً كلامه منه
ربما تحسن الصنيع لياليه
وكانا لم يرض فيينا بويوب الد
ه وإن سر بعضهم أحياانا
ه ولكن تقدر الاحسانا
هر حتى أعاشه من أعاانا

من قبل الاخشيدية ، فقاتلته وأسر من كان معه من بنى كلب وغيرهم من قبائل العرب ، وحبسه في السجن دهرآ علويلاً حتى كاد ينفل ، فسئل في أمره ، فاستتابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الاسلام ، وأطلقه . فـكان المتنزي كلاماً ذكر له قرآنـه بعد ذلك حارـل التنصـل من تبعـته «

2

ثم اشتهر بالشعر؛ فتسابق الملوك الى استدناه بالجوائز ومنهم
سيف الدولة بن حدان فقدم عليه المتنبي سنة ٣٣٧هـ، ومدحه
بكثير من غرر قصائده، ثم وقع بين المتنبي وابن خالويه النجوى
المشهور قوله في مجلس سيف الدولة فورثه الى المتنبي فضرب
وجهه بفتح كأن معه فشجه، ولم يدافع سيف الدولة عنه.
فغضب المتنبي . ورحل الى مصر . وتأرب بن عاصي وبنى حدان
كافور الاخشيدى سنة ٢٤٦هـ وامتدحه انتقاماً من سيف الدولة
فأكفر به كافور، ثم أرقاب فيه لما رأى من كبره وتعاليه، وقال:

كما أنبت الزمان قناة
ركب المرء في القناة سنانا
و مراد النفوس أحقر من أن
نتعادي فيه وان نتفاني
غير أن الفى يلاقي المانيا
كل الحالات، ولا يلاقى الهوانا
و اذا لم يكن من الموت بد
فن العجز أن تموت جيانا
كل مالم يكن من الصعب في الأذى
فس سهل فيه اذا هو كانوا

* * *

ومن أبدع أياته الفلسفية قوله:

ذل من يغبط الذليل بعيدش رب عيش أخف منه الجمام
كل حلم أتى بغیر اقتدار حجة لاجيء اليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بيت إيلام :

«يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد (صلعم) ألا يدعي الملك مع
كافور؟»

فأم ابو الطيب بغداد، ثم فارس، حيث امتدح ضد الدولة
ابن بویه الديلمي، فأجزل عطاءه، وعاد من فارس قاصدا بغداد
حيث قتل في طربقه

وقوله من قصيدة رائعة :
ولقد رأيت الحادثات ، فلا أرى
يقطعا يحيى ، ولا سوادا يعصم ^(١)

وفيها يقول :
ذو العقل يشتهى في النعيم بعقله
واخو الجحالة في الشقاوة ينعم
والناس قد نبذوا الحفاظ ، فمطاق
ينسى الذي يولي ، وعاف يندم

ويقول :
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى
حتى يزاق على جوانبه الدم

ويقول :
والظلم من شيم النفوس ، فان تجده
ذا عفة ، فلملة لا يظلم

(١) معنى البيت « لا أرى الشيب سببا لموت ولا الشاب
واقيا منه »

ويقول :

ومن البالية عذل من لا يرعوى
عن جهله ، وخطاب من لا يفهم

حي يقول :

ومن العداوة ما ينالك نفعه
ومن الصدقة ما يضر ويؤلم

* * *

وقال في الثناء :

الحزن يقلاق ، والتجمل بردع
والدموع ينها عصى طبع
يتنازعان دموع عين مسهد
هذا يجيء بها وهذا يرجع

وفي هذه القصيدة الرائعة يقول :
إني لاجبن عن فراق أحبني
ونحس نفسي بالجمام فأشجع
ويزيدني غضب الاعدى قسوة
ويلم بي عتب الصديق فأجزع

تصفوا الحياة لجاهل أو غافل
عما مغي منها وما يتوقع
ولمن يغافل في الحقائق نفسه
ويسمى طالب الحال فتطعم
أين الذي الهرمان من بنيانه
ما قومه؟ ما يومه؟ ما المسرع؟
تفختلف الآثار عن أصحابها
حياناً، ويدركها الفناء فتبعد!
إلى أن يقول:
ولقد أراك وما تلم ملامة
الآن فاها عنك قلب أصم
ويبدع فيقول:
يامن يبدل كل يوم حلة
أني رضيت بحلاً لا تنزع؟
ما زلت تخليها على من شاءها
حتى ابست اليوم ما لا تخلي!

ما زلت تدفع كل أمر فادح
حتى أتى الامر الذى لا يدفع
فظللت قنطرة، لا رماحك شرع
فيما راك، ولا سيونك قطع!
ثم يقول :

وصلت اليك يد سواء عندها
الباز الا شهب، والغراب الا بقع

ومن أدوع مانختاره له في الفزل قوله :
لعينك ما يلاقى الفؤاد وما لقى
ولايحب مالم يبق مني وما بقى
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكن من يبحسر جفونك يعشق
وبين الرضى والسخط والقرب والنوى
مجال لدمع المفلة التفرق
وأحلى الهوى ما شرك في الوصول به
وفى المهرج، فهو الدهر يرجو ويتقى؟

ولم أر كاللُّحاظ يوم رحيلهم
بِهِنْ بِكُلِّ الْفَتْلِ مِنْ كُلِّ مَشْفَقٍ
عشِيَّة يَعْدُونَا عَنِ النَّظَرِ الْبَكَا
وَعَنِ لَذَّةِ التَّوْدِيعِ خَوْفَ التَّفْرِقِ
وَقُولَهُ فِي قُصِيدَةِ أُخْرَى :

عَزِيزًا سَيِّدَ مِنْ دَائِرَهِ الْحَدَقِ النَّجْلِ
عِيَاءُ، بِهِ مَاتَ الْمُبْرُونَ مِنْ قَبْلِ
فَنِ شَاءَ فَإِيَّاهُ ظَرَرَ إِلَى، فَفَنَظَرَى
نَذِيرًا إِلَى مِنْ ظَنِّ أَنَّ الْمَوْى سَهْلٌ
وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ بَعْدَ لَحْظَةٍ
إِذَا نَزَلتَ فِي قَابِهِ دَحْلَ الْعُقْلِ

جُرِيَ حَبَّهَا مُجْرِيَ دَمِيَ فِي مَفَاصِلِي
فَأَصْبَحَ لِي عَنْ كُلِّ شَغْلٍ بِهِ اشْغَلٌ

* * *

وَمَنْ أَصْدَقُ مَا تَمْثِلُ بِهِ نَفْسِهِ الْطَّمْوَحةُ إِلَى الْحَكْمِ
وَالسِّيَاطِرَةُ قُولَهُ مِنْ قُصِيدَةِ لَهُ :

لقد تصبرت حتى لات مصه طبر
فالآن افجعه حتى لات مفتحم
لاترکت وجوه الخليل عابسة
والحرب اقوم من ساق على قدم
بكل منصلت ما زال متقطوري
حتى أدات له من دولة الخدم

* * *

وقوله من قصيدة أخرى
ترست بالآفات حتى قرأتها
تقول : «أمات المرت أم ذعر الذئب؟»
وأقدمت اعدام الآني كان لي
سوبي مهجن ؟ أو كان لي عندها وتر
ذد النفس تأخذ وسمها قبل يبنها
فهترق جاران دارها العمر
ولا تحسبن المجدد زقاوقينه
فما الجد الا السيف والفتكة البكر

وتضرِّب أعناق الملوك ، وأن ترى
لـك أهـبـوات السـودـ والعـسـكـرـ المـجـرـ
وـتـرـكـكـ فـيـ الدـنـيـاـ دـوـيـاـ ، كـأـنـاـ
تـدـاـولـ سـمـعـ المـرـءـ أـنـهـ العـشـرـ
وـفـيهـ يـقـولـ

وـمـنـ يـنـفـقـ السـاعـاتـ فـيـ جـمـعـ مـالـهـ
مـخـافـةـ فـقـرـ ؟ـ فـالـذـىـ فـعـلـ الـفـقـرـ

* * *

وقوله من قصيدة طويلة :
يا سافي ! أخمر في كؤوسكما
أم في كؤوسكما هم وتسربـدـ
أصخرة أنا ؟ مالي لاتغيرني
هـذـىـ المـدـامـ ،ـ وـلاـهـنـىـ الـأـخـارـيدـ
ماـذـاـ لـقـيـتـ مـنـ الدـنـيـاـ ،ـ وـأـعـجـبـهاـ
أـنـيـ بـمـاـ أـنـاـ بـكـ مـنـهـ مـحـسـودـ

وقوله من قصيدة أخرى:

ما أضر بأهل العشق انهم

هووا، وما عرفو الدنيا، وما فطنوا

تفني عيونهم دمعا وأنفسهم

في إثر كل قبيح وجه حسن

وقوله من قصيدة أخرى

انى أصحاب حامى . وهو بي كرم

ولا أصحاب حامى ، وهو بي جبن

* *

وما نختاره له قوله يمدح سيف الدولة من قصيدة

على قدر أهل العزم تأني العزائم

وتأنى على قدر الكرام المكارم

وتحظم في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظام

وفي هذه القصيدة الرابعة يقول

فلله وقت ذوب الغش ناره

فلم يبق إلا صارم أو ضياد

الى أن يقول
وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطال كلن هزيمة
ووجهك وصلاح ، وندرك باسم
نم يقول
ضمه مت جناحיהם على ضمة
ذوت الخوافي تحتتها والقوادم
وقوله من قصيدة أخرى
لا يدرك المجد الا سيد فطن
لما يشق على السادات فعال
لا وارد ثم لاتيناه ما وهبت
ولاكسوب بغير السيف سائل
الى أن يقول :
كأن نفسك لا ترضاك صاحبها
إلا وأنت على المفضل مفضال

ولا تدرك صوانا لموجتها
الاوانت لها فى الروع بذال
لو لا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفترق والاقدام قتال

* * *

نكتفى بهذا القدر من شعر المتنبي وابن هانى الاندلسي
ونحيل من شاء التوسع الى ديوانيها، ونؤكد لحضراتكم
أننا قد تحررنا نهائة الدقة في الاختيار، محاولين جهداً أن
يخرج الفارىء بعد قراءة هذه النخبة من شعرها، بصورة
قريبة الوضوح ان لم نقل تاماً — يتمثل منها شاعريتها
ويرى بنفسه في أى سماء من البلاغة يحقق كل منها
ولا مندوحة لفاعة القول بأن عنورنا على تلك الآيات
الرائعة التي اخترناها من شعر ابن هانى وقد كبدنا كثيراً
من العناء، لقلة الجيد من كلامه، على حين لم يكلفنا اختيار
هذه الصفة المفردة بأسلوبها العالى ومعانٍها الساحرة،
من شعر المتنبي، أكثر من القاء نظرة مطمئنة في ديوانه الخالد

* * *

ولقد اخترنا لكم أمثلة من أروع شعر ابن هانيء ،
وأردناكم أعلى جو حلقت فيه بلاغته ، فهل ترون في كل
ما ذكرناه ، شعراً يمت بحسب إلى قول المتنبي في نونية ^{هـ}
الساحرة :

وكأن لم يرض فيينا برب ^{الله} دهر ، حتى أعاشه من أعاانا ؟
كلا أبنت الزمان قناء ركب المرء في القناة سفانا ؟
أم هل ترون في كل شعر ابن هانيء ، ما يمت بحسب
ما إلى هذه النونية الساحرة ؟ كلا ! وشتان بينها ^(١)

(١) من الحق ألا نكتم أعجابنا الشديد برأية ابن هانيء
التي ذكرناها له في ص (٢١٩) لا سيما قوله فيها
انا وفي آمال انفسنا طول ، وفي اعمارنا قصر
انرى بأعيننا مصادرنا لو كانت الالباب تعتبر
وقوله :

أى الحياة أللّه غيشتها من بعد عالمي أنني بشر
وقوله ، وربما كان أروع ما قرأنا له :
خرست لعمر الله انفسنا لما تكلم فوقها القدر
فقد كاد يسمو بهذه القصيدة إلى مصاف الفحول ، حتى
لا حسنا في أكثر أبياتها طائفة من أسمى خوالج الحياة ؛

ان نظرة ياقبها الانسان على ديوانيهما لتبيّن له الفرق
العظيم بين قصيدة طويلة تقرؤها لا بن هانيء فلابيعجبك
منها الا بضعة أبيات فقلائل واخرى لمتنبي لا تقل عنها
طولاً قد لا يشدّ عن اعجابك منها أكثر من هذا القدر

ومن يدرى ؟ فربما لو طال عمر ابن هانىء واستمر في هذه
الطريق الفلسفية الحقة ؛ التي انتهجها في رأيته ، لكان لنا فيه
رأى آخر ، ولعدهناه في مرتبة الفحول ، الى لم يسم اليها من
شعراء العربية الا افراد غاية في الندرة

ولنذ كر مثلاً، يتبيّن منه الفارق - رغم المجاز - ما قد نعنيه
بقولنا «مرتبة الفحول» التي مما إليها المتذمّي وأسرابه القليلون
كالمعرى والبحترى وغيرهما، والتي فصر ابن هانىء عن شاؤها.

• • •

ولو أن انسانا قرأ نونية المتنبي التي اخترناها له واكتفى
بقراءتها وحدها، وقرأ شعر ابن هانئ كله، ثم حكم بتفوق
الاول على الثاني لعذرناه - وان لم تقبل حكمه، لأن فرادها
ميزات لا تكاد تجتمع في سواها
ولتكن ماذما يقول من يقدم على المقارنة بينها ولديست
هذه القصيدة الساحرة الا مثلا واحدا من الامثلة العليا
الكثيرة التي أخرجها المتنبي للوجود!

فإذا شئت أن تري ما بعد مرتبة الاجادة ، فانظر إلى هذا
المعنى في صورته الخالدة حين تناوله شاعر المعرفة ، فطبعه بطابع
الخلود الذي امتاز به أكثر شعره ، لتتبين الفرق واضحا بين مرتبة
شاعر مجيد كابن هانئ الأذلسي ، وشاعر فحل كأبي العلاء مثلا ،
فربما كدنا نلمس الفرق بين شعر الاجادة وشعر الخلود في قول
المعرى :

تقفون . ولأنتم الممسخر دائـب وتحركون فتضحكـ الـ قادرـ
ولعلـ أوجـ وأـ صدقـ ماـ نـ قـولـهـ فيـ هـذـاـ الـ بـيـتـ اـنـهـ باـغـ حدـ
الـ اـعـجاـزـ !

لنعم اذن الى الأسباب التي ذكرها مؤرخو الآداب^(١)
ليبردوا بها تلقيني ابن هانىء بالمتتبى علينا نعثر فيها على شيء يشاجر
صدورنا ويقنعنا بصواب ما ذهبوا اليه أو أرجحيةه على الأقل
قال مؤرخو الآداب إن اوجه الشبه بين الرجلين
كثيرة ولكن أمهما ما يلي :

(١) فقد اتفق المؤرخون كلهم تقريبا على أن ابن هانيء خير شعراء الاندلس ، بلا منازع ، كما اتفقا كذلك على تلقيبه بعندي الغرب ، وتغالي بعض الناس في تقديره فعدوه شاعرا فذا وقالوا :

اد نـکن فارسـاً فـکن کـمـلـی
او نـکن شـاعـرـاً، فـکـن کـابـنـهـانـی
کـلـ منـ بـدـمـیـ بـماـ لـیـصـ فـیـهـ
کـذـبـتـهـ شـوـاهـدـ الـامـتـحـانـ !
ولـمـ نـعـثـرـ عـلـیـ الـآـذـ عـلـیـ رـأـیـ وـرـخـ بـنـاقـضـ ذـالـکـ؛ غـيـرـ مـانـذـ کـرـهـ
فـ خـتـامـ هـذـاـ الفـصـلـ مـنـ رـأـیـ الـمـعـرـیـ فـیـهـ

- (٣) جاس كالها الملوك ونادم الامراء
(٤) أجاد كالها وصف ما رأى اجاده نادرة
(٥) كانوا معاصرین
(٦) مات كالها غيلة يمددudo نذل دنىء وهو في كمال
العمر وتناهى القوة

وهي اوجه شبهه كما ترونها مضحكه ، وامل أغراها
بالضحك الوجهان الاخيران ، واستدري لم يسترسوا
في اصنافه اوجه شبهه اخرى اليها ايزيدونا اقتفاعا بصححة
ما ذهبوا اليه ، كان يقولوا مثلا : كالها رجل ، والكل منها
عينان ، ثم يعددوا من اوجه الاتفاق او الاختلاف بينهما
اشترا كهما في الطول والقصر او عدم اشتراكهما في
ليس في هذه الوجه الا وجه واحد يمكن اعتباره
وجيها وهو الرابع الذي يقولون فيه إن كلهم قد أجاد
وصف ما رأى اجاده نادرة ، وهو قول يحتاج الى تحديد
ودقة ، ولا ينبغي أن يلقى على عواهنه ، على أنه تستطيع أن
تقول إنه بالاختصار غير صحيح في مجموعه ، نعم أجاد ابن

هانىء وصف بعض الاشياء التي رأها ، ولكن مختاره
وروايته - رغم قلتها بالقياس الى حسنات المتنبي - لا تسمو
بحال ما الى الذروة التي حلقت فيها بlague المتنبي وعبقريته

الجبارية

وانما اجاد ابن هانىء وصف بعض الاشياء كما يجيد
أى شاعر آخر من أشباهه - لكنهين جدا - لا كما يجيد
شاعر قد لا تعرف للغة له مثيلا الا اثنين فقط هما
المعرى وابن الرومي

* * *

لندعه ثانية الى تلك الاسباب ونتم النظر فيها علنا
نجده فيما سبما آخر يبرره هذا الخلط ! ربما كان ذلك هو
السبب الاول الذي ذكروا فيه أن كلهم نشا في الطبقات
الوضيعة وترقى بمواهبه وشعره الى درجات الخاصة ، وهو
كلام لا يخلو من مغالطة أيضا ، نعم ارتقى كلهم بمواهبه
وشعره وكم من اناس ارتفوا كذلك من درجات العامة الى
مجالسة الملك والامراء بمواهبهم وشعرهم فهل يكون في
ذلك مبرر لمقارنتهم بالمتنبي ؟

(١) ليس للشهرة قيمة حقيقة اذا لم يكن صاحبها اجدر بها، ولأنه يتحقق بنا المقام اذا شئنا الافاضة في الاستدلال على ذلك بالامثلة العديدة المتتجدة ، اني كثيراً ما شاهد ما في روحانا وغدوانا من تحابيل بعض الناس على الوصول الى الشهرة بكل الوسائل الدنيئة

* * *

اننا نظلم ابن هانيء ظلما فاحشا ونفيته أشد الغبن اذا

وكثيراً ما ينحوون ، ولكن في الغائب نجاح مؤقت ، لا يلبث
ان ينفع غشه .

ومعاذ الله ألم نهى ابن هانيء بشيء مما نقول ؟ وحاشانا أن
نقصد الى ذلك ، فان لا بن هانيء في نظرنا - رغم تصريحه الشديد
عن بلوغ شأو المتنبي مكانة ادبية كبيرة ، تدهونا الى احترامه ،
بل والى الاعجاب به أحياها .

* * *

ولكننا لا نرى مع ذلك بأساً من اتهام هذه المناسبة ،
لا ظهار قيمة الشهرة في نفسها حتى لا يتخذها بعض الناس وسيلة
من وسائل الاقناع ، والى الفارق مثلاً من امثلة عديدة من
أساليب الشهرة - نسوقة كدليل صادق لا يدع مجالاً لاشك ، ولا
يقبل التأويل - في دحض قيمتها :

أساليب الشهرة

للشهرة اساليب كثيرة تتفاوت خصيتها ونيلاتها طبائع اصحابها
ولا بأس من ذكر واحد من ذلك الفر ، وهو رجل مارس صناعة
الظط مدة طويلة من الزمن ، فلم يصل فيها الى مكانة توهره الى أن

قارنناه بالمتتبلي - بل أني لا جرؤ فأقول ، ابني بعد مطالعة كل ما قالاه تقريرياً لم أتردد في الحكم بأن مقارنته الأولى بالثانية

يعد حتى في مصاف الخطاطين العاديين ولما اعيته الحيل ولم يجد له من سبيل إلى الشهادة عن طريق الجدارة لما يتطلبه ذلك من سلامة الطبع والعمل المتواصل - سلك طرقاً أخرى للوصول إلى غرضه ويعكّن تاغييص ما نعرفه منها فيما يلي :

أولاً : النغلق باذيال كل من يعت بعلاقة إلى الصحف

ثانياً : كتابة أسماء الصحف والمجلات وحفرها على نفقة -

الخاصة واهداها إلى أصحابها

ثالثاً : الارساع بالتعرف بكل أديب نابه وعقلقه إيه طعمماً في

أن يكتب له ذات يوم اسم كتاب يؤله أو صحيفه يصدرها

رابعاً : اهداء كل من يعرف عنه القدرة على نظم الكلام -

ا كاشيها بايمه ، أو هدية أخرى تتناسب مع ما يتوقفه من وراء

ذلك من الفائد . ولقد أهدى بعضهم طرراً ذهبية ثمناً مقدماً

لمداناتهم فيه

خامساً : التأنيق في مابسه والعناية بجعل هندامه مشابهاً لزى

جماعة الأرست

سادساً : كتابة الإعلانات عن ذئنه بنفسه في الصحف

والتحايل على نشرها بكل وسيلة، وترديد كلامى الاستاذ والنابغة

جريدة كبيرة، ادتكبها معاصر وله أولاً، ثم قلدهم في ادتكابها
بعض المؤرخين وتبعهم عليهما البعض الآخر بلا رؤية - كما

فيها حتى يحفظها الجمّهور
سابعاً: اتخاذ أسماء زعماء السياسة وأساطين الاجتماع وسيلة
إلى الرفع من شأنه وإن شرط خطه الرديء جمال كلامهم البدئية
ثامناً: ترديد كلامي (الفن) و (الجمال) أمام اغرار العامة
ونشر الدعوى المريضة عن نفسه في كل مجاس، والخط من شأن
أساطين فن الخط الذين يترفعون عن أن يكونوا أستاذله، وكثرة
تفقصه أيامه وتبجحه بأنهم عيال على (الفن) وإنهم لا يفهمون
(الجمال) (والهائين في سوّح الجمال) وعشاق (جمال الفن)
(وفن الجمال) !!

ولقد توصل بهذه الصفاقة - والحمد لله - الى أمنيته -
ونجحت وسائله الحقيرة رغم أنف الحق والفن - واشتهر امته
حياناً ما، بين العامة - وان احترمه خاصة - وساعدته على ذلك، ما يلى:
اولاً : كثرة المجلamasات التي يتبعها أغاب أرباب الصحف
وعدم عنادهم كثيراً بنشر الحقائق
ثانياً : انشغال الناس بالحالة السياسية وعدم الالتفات الكثيرين

ذلك : ترفع احقر الخطاطين عن أن يتنازل يوما من الأيام

اعتقد أن الحكم على ابن هاني بأنه خير شعراء الانداس
بلا منازع جريمة أخرى لا تعدلها إلا جريمة المقارنة بينها

الى انتقاده - لأن رجال هذه الطائفة كلام لا يغترون
بوجوده أصلا

* * *

حسبنا هذا القدر في اظهار قيمة الشهرة ولو شئنا الا فاضة
تلرجنا عن الموضوع الذي تصدّينا له . وربما أفردنا ملخصاً
الموضوع رسالة خاصة به نطبعها على حدة ونبين فيها أشباه هذا

* * *

لستنا متحاجمين على ابن هانىء فليس يعنينا وينتهي خصوصية
أدبية ، وليس ثبت ما يحملنا على انتقاد أدبه أو تفضيل

الدعى واضرابه الكثرين من المتكلمين على الشهرة »
ولو أننا شئنا الأفاضة في سرد الأمثلة الكثيرة للاستدلال
على حقارة الشهرة ، وقلة غائتها ، واظهار الطرق الحقيرة والجمل
السخيفة التي يسلكها عشاقها المفتونون بها ، لامتد بتنا نفس
الكلام وخرجنا بما قصدنا اليه ، فإنهكتيف باحالة القاريء الى
ما كتبه النقاد الالماني ماكس نورداو في كتابه « الفرائب .
«Paraxes» عن المجاج ووسائله ، وقد نلخسه الاستاذ العقاد في
مجلة البيان ، فليرجم لليه من شاء .

على أننا لا زرنا بأمسا من افتتاح الكلمة الثالثة من مقال
طريف ، دلو الدعاية ، كتبه صديقنا الاستاذ سيد افندي ابراهيم
في العدد الثلاثين من صحيفة الرحاء ، تعليقا على ما كتبناه في ذلك
وقد أيد فيه ما ذهبنا اليه ، وأورد بعض ملاحظات على مقالنا ،
ونحن نثبته هنا ، مع الشكر لما فيها من الفكاهة والفائدة ، قال :

* * *

« ولا أكتم الاديب أنى ألومه أشد اللوم على تقصيره في
أنهاء تلك الرسالة التي وعدنا بها في مقاله المجتمع فان بلدنا مكتظ

سواء عليه بغير حق ، بل لسنا ناقمين عليه بل هو في رأينا
من أساطير شعراء العرب (الكثيرين) . ولقد نجحه ونكرر

بالادعاء الكثرين الذين جنوا بالشهرة جنوذاً فلم يجدوا أى
غضاضة عليهم من التحابيل على نيلها بكل وسيلة باللغة ما بلغت
ذراعيها - من غير حياء ولا خجل -

وليس من ارضاه الضمير ولا من الاخلاص في العمل ، أن
يتماون الادباء بكشف حيل تلك الفئة القدرة التي تحميها قدراتها
عن أن يتناولها أحد بالنقد ، فننذر هذه الفرصة للتتدليس على
الجمهور الساذج - ونحن مع هر فاننا أن مجرد التفكير في هذه
الفئات شرف لهم أى شرف ، فانا لن نضن على هذا الاندمي -
رغم ذلك - بهذا الفخار الذى تصبوا اليه نفسه الحقيرة وبيذل
في سبيله ألف حيلة

لقد أظهر لنا الأديب صورة بـلوازيم مضحكـة من ذلك
المسوخ ولكنه - والحق يقال - تحرى الصدق في كل كلامه.

وهذا في رأي أول شرط أساسى يجب على الناقد اتباعه - ولئن

أخذت الكتاب بشيء، فهو أنه ترك بعض ملاحظات هامة كنت أرجو أن لا تهونه وأن لا يخلو منها مقالة الجميل - وقد يكون ترجمة أمراً غبية منه في الإيجاز وأما لأنّه استكثر عليه مقالة

مواهبه ، ولهـ نـهـشـ لـكـتـيرـ منـ مـخـارـ شـعـرـهـ وـأـنـغـيـ بـهـ
وـنـطـرـبـ لـهـ ، وـلـقـدـ نـصـفـ لـكـلامـهـ اـسـتـحـسـانـاـ ، كلـ ذـلـكـ
ضـافـيـةـ لـخـارـتـهـ ، وـانـيـ أـجـلـ مـلاـحظـاتـيـ وـأـمـرـدـ بـعـضـ النـقـطـ الـتـيـ
أـغـفـلـهـاـ فـبـهاـ يـأـنـيـ :

بدأ صديقي بقوله «أعرف رجلًا من مارسوا صناعة الخط» - وانى استمتع الصديق عذرا اذا لمته أشد الالوم على هذا الخلط المشين الذى دل على جهل النام بصناعة الخط وعدم صلاحيته مطلقا لاحكم عليها
ولقد نجح ذلك الدعي في حيله اذا ظفر بهـ ذـهـ التـسـمـيـةـ منـ
الـخـاصـةـ فـإـنـ غـاـيـةـ ماـيـقـالـ عـنـهـ أـنـ مـاـرـسـوـاـ صـنـاعـةـ النـقـاشـ ،ـوـالـفـرقـ
وـأـضـحـ بـيـنـ الـخـطـ وـالـنـقـاشـ فـبـهـ اـظـنـ !ـ وـانـيـ لـأـضـنـ عـلـيـهـ بـهـ ذـهـ
الـتـسـمـيـةـ وـلـاـ اـسـتـكـثـرـهـاـ عـلـيـهـ كـاـيـفـعـلـ سـوـاـيـ .ـ وـنـمـةـ مـلـاحـظـةـ
أـخـرىـ أـبـدـيـهـاـ عـلـيـ مـقـالـهـ وـهـيـ أـنـ أـغـفـلـ لـكـلامـهـ عـلـىـ صـورـتـهـ :ـ
وـلـئـنـ صـحـ مـاـيـقـولـونـهـ مـنـ أـنـ الـوـجـهـ مـرـآـةـ صـادـقـةـ التـعـبـيرـ عـنـ
دـخـيـلـةـ صـاحـبـهـ .ـ فـإـنـ مـنـ يـنـظـرـ إـلـىـ سـجـنـةـ ذـلـكـ النـقـاشـ يـسـتـطـيـعـ
بـأـدـنـ تـأـمـلـ أـنـ يـلـمـحـ عـلـىـ سـيـاهـ أـرـبـعـ صـفـاتـ تـسـتـرـعـيـ اـنـتـبـاهـتـهـ لـأـوـلـ
وـهـلـهـ وـهـيـ :ـ الـلـقـ وـالـفـيـاءـ وـالـصـفـاقـةـ وـالـادـعـاءـ

* * *

ولقد صدق الشاعر العربي صالح ابن عبد القدس حين قال

تفعله اذا ذكر اسمه على حده ، فاذا قسناه الى المتنى او قارناه
به ، تضاءلت أمامنا شاعريته و ظهر بظهور العاجز العي ، ولم
ما يبلغ الاعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
فقد بذلك للنقاش المتألق جهودا كبيرة في التحايل على
نشر صورته في بعض الصحف والجلات ولم يدر انه بذلك قد
أظهر للهلاك صورة دقيقة كذا نأسف على فقدانها وكأن يجهدنا
النصب اذا حاولنا الحصول على مثل نستدل به على ما ذهبوا اليه
من أن الوجه مرآة صادقة لصاحبها - وأفي يباح ل الانسان أن يعبر
على مثل هذه الصورة النفيضة التي تلمح فيها تلك الصفات الاربع
ناظمة شاهدة واضحة لكل ذي عينين

ولا جرم أن صفاته التي لا تخف عنده و زلة بلا حساب
لكل انسان ، قد تكون من نفسه - كما يشهد بذلك كل عارفيه -
الي حد يحار الانسان في تعميله - وعلى هاتين الخلتين وحدهما
بنيت شهرته عند العامة ، ولا باس من سرد الفكاهة التالية لبنيتين
منها تلك الصفات الاربع التي ذكرناها جليه ، وللقارئ أن يروح
بها عن نفسه وله أن يستنتج منها ما شاء زيادة على ما استنتاجناه
وعرفناه .

جاء ذات ليلة ووجهه يطفح بشرا وسرورا وقد ترخت اعطافه
بخمرة الزهو والفحار ، وما كاد يقترب من رفقة حتى قاطع

نَهَاكَ أَنفُسَنَا مِنْ احْتِقَارِهِ وَلَيْسَ يَكْلُفُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا
ثُمَّ إِنَّا نَظَلْمُ الْمُتَنَبِّي كَذَلِكَ وَنَغْبِنَّهُ أَشَدُ الْغَبَنِ إِذَا قَلَّنَا
أَنَّهُ أَحْسَنُ مِنْ أَبْنَ هَانِي، أَوْ عَدَّنَا لَهُ مِيزَاتٌ كَثِيرَةٌ عَنْهُ
وَلَلَّهِ دُرُّ مَنْ قَالَ :

كَلَامُهُمْ قَائِلاً بِلِهُجَّةِ الظَّافِرِ الْمُنْتَصِرِ - أَتَدْرُونَ مَاذَا صَنَعْتُ ؟
لَا - وَكَيْفَ نَدْرِي !

أَلَمْ أَقْلِ لِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنِّي أَحْجَتُ عَلَى شَوْقِ بَكَ مِنْذَأُ كُثُرَ
مِنْ أَسْبُوعَيْنِ لِيَنْشِئِي لِي بَضْعَ آيَاتٍ فِي مَدْحَ خَطِّي . وَإِنَّهُ كَانَ
يَتَهَرَّبُ وَيَرُوغُ مِنِّي وَإِنَّهُ وَعْدِنِي كَثِيرًا ثُمَّ أَخْلَفُ ثُمَّ وَعْدَ ثُمَّ أَخْلَفُ !
وَهُنَا قَاطِعُهُ أَحْدُهُمْ قَائِلاً :

أَلَمْ أَقْلِ لَكَ أَنْ شَوْقَ قَدْ وَصَلَ ضَيْقَ ذَرْعِهِ بَكَ إِلَى أَقْعُدِي
حَدَّ ! - وَإِنَّهُ شَكَّا إِلَى جَلَائِهِ مَرَارًا مِنْ الْحَافِقِ الْمُتَوَاصِلِ - وَإِنَّهُ
كَادَ يَمْجُرُ « جَرْوِي » يَسْبِبُ مَضَايِقَتِكَ أَيَاهُ ! - فَأَجَابَهُ صَاحِبُنَا
مُبْتَدِئُهُ . « نَعَمْ - نَعَمْ .. أَنَا أَعْرِفُ ذَلِكَ - وَلَكِنِي أَيْقَنْتُ أَنَّ
الْأَخْلَافُ هُوَ الْوَسِيلَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي أَنْفَلَ بَهَا بَغْيَتِي - فَأَكَثَرْتُ مِنْ
الْتَوْسِلِ إِلَيْهِ - وَكَنْتُ كَلَّا رَأَيْتُ مِنْهُ أَهْرَاضًا أَزْدَدَتْ عَلَيْهِ الْحَافَا -
حَتَّى اضْجَرْتُهُ وَاضْطَرَرْتُهُ أَخْيَرًا إِلَى اجْتِهَادِ طَابِي - وَقَدْ أَنْشَأَ لِي
الْلَّيْلَةَ عَدَةَ آيَاتٍ فِي مَدْحَ خَطِّي لِيَتَخَلَّصَ مِنِّي نَهَايَيَا ! »
فَصَاحَ الْجَمِيعُ مَهْلِكِينَ لَهُ : « مَرْحَى . مَرْحَى . لَقَدْ ظَفَرَتْ

ألم تر أن السيف يزدري بـ مدره
اذا قيل هذا السيف أمضى من العصا

* *

وأين نفسا هما ؟

أين نفس ابن هانئ العادية بل الحقيرة المتملقة - إن
شئتم - من تلك النفس الوثابة الطموحة - تلك النفس
العظيمة التي اذا طرقت معنى شائعاً أو متكرراً أو سخيفاً
أبنت حين تتناوله الا ان تطبعه بطابع العظمة الى امتدت
به - انظروا الى ذلك المعنى العادي الذي عرف المتنبي كيف
يجعله جليلاً مع تناول الكثيرين من الشعراء ايامه

القائل السيف في جسم القتيل به

والسيوف كـ للناس آجال

اذن بما تشهيه ! ثم سأله عمـا قاله شوقـي بكـ في مدح خطـه فـتـلى
عليـهم عـدة أـبيـات أـذـكـرـتـي بما قالـهـ من قـبـلـ اـعـلـانـاـ عن رـيشـةـ صـادـقـ
حين زـعمـ أـنـهاـ :

أـغـلـيـ لـدىـ الـكتـابـ اـنـ ظـفـرـواـ بـهـاـ من رـيشـةـ الـأـلـمـاسـ عـنـدـ الفـيـضـ
وـتـكـادـ تـجـيـ مـؤـنـسـاـ بـصـرـيرـهـاـ وـتـقـولـ :ـ «ـ أـيـامـ اـبـنـ مـقـلةـ !ـ وـدـيـ»ـ

انظروا كيف جعل من هذا المعنى قضية منطقية بدعة
ودعهم يبرهان شعري ، غاية في الحسن ، فظهرت للناس
صورة تامة ، تأنس إليها النفس ، وتهش لها

* * *

وهذه عادة أصيلة في المتنبي ، بل ميزة خص بها دون
الكثيرين من شعراء العربية ، فلا تكاد تقرأ له شعراً -
من غير أن تحس تلك الروعة وهذه الفخامة ، بل إن اشعره
طابعاً انماز به ، بذلك عليه فلا تحتاج إلى السؤال عن قائله ،
ولا تتردد في أن تنسبه إلى المتنبي ^(١)

* * *

ولنأخذ أن يحاسبنا على ما رأينا به ابن هانئ من الملق
وصنة النفس ، وزعمناه للمتنبي من الكبر والمظلمة النفسية

(١) وهذه من أكبر مميزات شعر الفحول ، فان من الذين
أن يميز الإنسان بين شعر المتنبي والمعرى والبحترى وابن الرومي
متى توافر على دراستهم ، لوضوح شخصياتهم جميعاً في أكثر
أشعارهم ، وفلا يخلط ، الإنسان في ذلك ، اذا اعتمد على ذوق
الصحيح ، وطبع صادق ، ودراسة واسعة .

مع وفراً ما قاله في المدح الممدوء بالمبالفة والمتلق، وربما
حسب بعض الناس أن المتنبي صنّو ابن هانىء من هذه
الوجهة، وهو خطأ لا يسعنا السكوت عليه، وكلام باطل
أشبه ما يكون بالحق، وقول يحتاج إلى دقة وانابة

المتنبي كثير من أشعار المدح الملائى بالملق، كما لابن
هانىء، ففيهم يمتاز الأول على الثاني؛ وأين تملك العظمة المزعومة؟
ملك العظمة التي نزعمها المتنبي - أيها السادة - ظاهرة
حتى في هذا النوع من الشعر الممدوء بالمبالغات السخيفية،
من أنعمنا النظر

ونوجز فنقول: إن مدح المتنبي للملوك والأمراء
يشعرك بأنه مدح كفء لكفاء، فإذا علمتهم فهو ند
يتملق أنداده، بل ربما شعرت من مدحه - أحياناً - أنه رجل
أكبر منهم نفساً، يشعر بتفوقه عليهم، ولكنه يرى أدوات
رفعته وصنخامة شأنه، ووسائل تحقيق رغبته منحصرة في
إرضائهم في أول أمره، ليتخدمنهم جسراً يعبر عليه إلى آماله
الكبيرة، وكثيراً ما من عليهم بشعره، وأظهر لهم بصرى

العبارة ضاللة ما ينحوه من المبادرات الوفرة بالقياس الى
ما يكسوهم به من حلال الشعر الخالد
اما مدائح ابن هانئ فتشعرك بأنه فرد عادى ، كان
أفعى أمله ، أن يدح الملوك ويتملقهم ، حاسبا ذلك غاية
الشرف ، ونهاية الرفعة ، فلا غرو اذا رأيته متزلفا فنيت
شخصيته فيهم ، ورأيت المتنبي شامخاً على الرأس ، دالاً عليهم
يذبحهم بما يدح نفسه به ، ويروي نفسه بينهم ، ما كاغير
متوج ، بين ملوك متوجين ،

* * *

انعد الى شعرهما الذي قال مؤرخو الآداب انها
اشتركا في الكفر فيه فإذا نرى ؟
نرى أن المتنبي لا يزال حتى في هذه المرة ذا خصائص
نادرة .. كفر ابن هانئ بسبب معنى تافه حقير كان يمكن
أداؤه بأسلوب أجمل وأبدع من غير اخلال بالبحر أو
القافية فقال :

ما شئت لاما شاءت القدر فاحكم فأنت الواحد القهار
وهو معنى يدلنا على نهاية الماق وصفار النفس وضيق

العقل ، وما اكثرا وقوع ابن هانىء في هذا المأزق ^(١)
و كفر المتنبي ، كما يقول رجال الدين ؛ ولكن لأن
معنى ؛ لم يعنى جليل قد ينسى الناس جريمةه وغرض تمثيل
فيه نفسه الوثابة التي حلقت في سماء العظمة اللامائية ، فقال :
أى محل أرتقى أى عظيم أنتي ؟
و كل ما قد خاق إلا و ما لم يخلق
محترف في همئى كشمرة في مفرق !
وجماع القول أن المتنبي عظيم - وهو لو لم يكن شاعرا
عظيما لكان شيئا آخر ، ولكن متتصفا بصفة العظمة الملازمة
له ، وقد خاقه الله ليكون عظيما فـ كان كما أراد الله أن يكون ^(٢)

(١) ارجع الى ص . (١٤٠ و ١٤١ و ١٤٢)

(٢) بعد أن أذمنا من كتابة هذا الفصل عشرنا برأى
للفيلسوف الحكيم أبي العلاء المعرى حين سُئل عن المتنبي فقال :
« هو أشعر المحدثين » ثم سُئل عن ابن هانىء فقال « ما أرأه إلا
كرحي تطعن قرونًا »

وهو حكم صائب بقوله ما ذهبنا اليه ولا يغيره أن يحسبه
بعض الناس صادرا عن هـ وـ في نفس أبي العلاء لتعصبه

مُحَمَّلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ^(١)

٢٧٣ - ٢٣٨

اشتهر بغزواته الكثيرة ، وكان ينهي وبين الفرنجية
والمجوس وغيرهم حروب طاحنة ، وقد وجدهم إلى الفتح ،
وانتصر في وقائع عديدة ، وقهروا المجوس وأخذوا منهم كثيراً
من الغنائم بعد حرب عنيفة
وربما كان أهي ما حدث في زمانه هو حربه مع الشقى

للمنتبي ، فان نظرة طويلة في ديوانيها تشعرك بصواب هذا الحكم
العادل وصدقه !

ولعل أعجب ما يدهشك من شعر ابن هانيء أنك تقرؤه ،
فتهجيك روعة أسلوبه ، وقوه تعبيره ، ومتانة حوكه ، فاذارجت
إلى مناقشته ، وتقمم ما تحويه تلك الاماظ الرنانة وجدت معنى
تافها لا قيمة له ، أو معنى لم ينضج بعد ، أو معنى شائعاً متكلراً ،
وربما وجدت بعض أبياتها المتنية الالتبوب خالياً من المعنى .

(١) ولـي الملك وصـره ثلاـثون سـنة تقـرـيبـاً

الجريء ابن حفصون ، الذى قوى أمره واستضخم شأنه
في زمانه ، وقد استطاع محمد أن يخضعه مدة حكمه ، ولكنه
مات قبل أن يقاضي على ابن حفصون

صفات

دخول المذهب الحنبلی في زمانه

وقام نزاع في أول حكمه بين فقهاء قرطبة وبقي بن
 مخلد^(١) الذي دخل من الاندلس إلى المشرق حيث تلقى
 مذهب ابن حنبل - فلما رجع إلى الاندلس بدأ يدرس في
 جامع قرطبة، فثار عليه مدرسون المذهب المالكي، وأنكروا
 عليه ما فيه من الخلاف، واستبعدهوا، وقام عليه جماعة
 من العامة ومنعوه من قراءته، ولما باقى الأمير محمد شحادة
 خصوصه، استحضرهم وأياه وتصفح الكتاب الذي معه - وهو
 مصنف أبي بكر بن أبي شيبة في أصول المذهب الحنبلی -
 جزءاً جزءاً حتى أتى على آخره، ثم قال خازن كتبه : « هذا
 لا تستغني عنه خزانتنا ، فانظر في نسخة لنا ، وقال بقى :
 « انشر عالمك وارو ما عندك » ،
 ثم نهاه عن أن يتعرضوا له

(١) ولد بقى في سنة ٢٠١ ومات في سنة ٢٧٦ ، ورحل
 من الاندلس إلى المشرق حيث تلقى مذهب ابن حنبل على
 أشهر علمائه ، ثم رجم إلى الاندلس فبدأ يدرس في جامع قرطبة

المُنْذَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ^(١)

٢٧٣ - ٢٧٥

مات الامير محمد في سنة ٢٧٣ فوليه ابنه المنذر ، وقد
أقام في الملك عامين قتل في السنة الاولى منها وزير أبيه ،
هشام بن عبد العزيز^(٢)

(١) ولد سنة ٢١٩ هـ ، وولي الملك وعمره أربع وأربعون

سنة

(٢) وقد قالوا ان أهل قرطبة كانوا يسمون فيه لدى المنذر ،
ويتوتون كلامه للايقاع به ، لشدة حبه ووفائه للأمير محمد ،
حتى انهم تأولوا قوله ، في الامير محمد ، عند موارانه :
اهزى يا محمد عنك نفسى أمين الله ! اذا اهان الجسام !
فهلا مات قوم لم يموتوا ودفع عنك لي كأس الخاتم ؟
ذقالوا انه يعني المنذر بقوله : « قوم لم يموتوا »
ولم يزل يزداد سخط الامير عليه ، حتى أمر بحبسه ، ثم بعث
عليه من قتله في سجنه ، ونحب ماله وسجين أولاده
وما كتبه هذا الوزير وهو في سجنه ، الي جاريته ، قوله :

وشهر ما حدت له ، حربه مع ابن حفصون فقد
فتح جميع فلاءه وحصونه ، ولما شدد عليه الحصار ، سأله
الصلح ، فأجابه وافرج عنه ، فنكت ، فرجم لحصاره ،
ولكنه مات ، وهو يحاصر ابن حفصون

وانى عداني أذ أزورك ، مطبق
وباب منيع بالحديد مضبب
فاذ تعجب يا عاج بما أصابني
ففي ريب هذا الدهر ما يتعجب
تركت رشاد الامر اذ كنت قادرًا
عليه ، فلقيت الذي كنت أرهب
وكم قائل قال : « وانج ويحلك سالمًا
ففي الارض عنهم مستراد ومذهب »
فقلت له : « ان الفرار مذلة
ونقنى على الاسواء أحل وأطيب »
سأرضي بحكم الله فيما ينوبني
وما من قضاء الله لمزء مهرب
فنبك أمسى شامتا في ، فاذ
صينهل في كاشي وشيكاك ويشرب

عبد الله بن محمد^(١)

٣٠٠ - ٢٧٥

ولى الملك عقب موت أخيه المنذر بن محمد، وكان عصره مملوءاً بالاضطراب والفتنة، وكثير قيام الثوار في زمانه وتغلبوا على السكور والمدن، وامتنعوا عن اداء الخراج، ولو لا انقطاع القتال بينه وبين الفرجنج والجلاثة حينئذ، لتفوّضت اركان مملكته، فقد ارتباكت أحوال الانداس في زمانه، ارتباكاً شديداً، وأصبحت مجالاً لمنازعات القبائل الفاتحة وميداناً للفتن والشقاق بين الأسرة المالكة، وقد ضاعف أحزنه، ثورة ابنه محمد والى اشبيلية^(٢) من ناحية

(١) ولد سنة ٢٧٥ وولي الملك وعمره خمس واربعون سنة

(٢) قالوا : وو وكان السبب في ذلك هو أن الامير عبد الله

والد محمد هذا ، اطلق سراح ابني هاشم بن عبد العزيز ، الوزير الذي مر ذكره في ص (١٨١) واطلاق سراح معلمها جابر بن مغيرة أحد مشاهير العلماء في ذلك العصر ، ورد اليهم أمواهم ، فكان من ذلك أن أحبه أهل قرطبة ، وسخطت عليه اسرته ، ولا سيما

وشدة مناورة ابن حفصون وترده عليه من ناحية أخرى ،
وقد انته أمر الاول منها بازحاربه ابوه ، وأسره ، وحبسه
في قلعة اشبيليه ، حيث مات في سجنها ، وقد واصل عبدالله
كفاحه مع ابن حفصون ، كما واصل حربه في محاربة غيره
من الثوار والفاخرين

أوصافه

كان جليل الصورة ، أزرق العينين ، معقدل القامة ،
فطنا ، عالم ، شجاعا

حزنه على امه

وماتت امه في سنة ٢٩٩ ، فحزن عليها أشد الحزن ،
وبني لها قبراً خاما ، وبني لنفة - قبراً آخر بجواره ، وزهد في
الدنيا ، فجم الامراء والوزراء والولاة ، وأوصى بولاية
عهد الملة لحفيده عبد الرحمن ابن محمد ، اذرأى الفلوب
بمحنة عليه

ابنه محمد والي أشبيليه ، فثار عليه مع أخيه الاصبغ والقائم
والبي شريش وشذونة في جنوب الاندلس ، وادهم اليهم ولادة
آخر ونـ .

أمثلة من ذهرة

- ١ -

مثال من محادثاتي

اعذر ليه يوما بعض مواليه فقال له عبد الله :

«إن مخايل الامور لتدخل على خلاف قولك ، وتنبيء عن باطل تنصلك ، ولو أفررت بذنبك ، واستغفرت لجرمك ، لكان أجمل بك وأسدل استر العفو عليك »،

فقال :

«قد اشتمل الذنب على ، وحاق الخطا بي ، وإنما أنا بشر ، وما يقوم لي عذر !»،
فأجابه عبد الله :

«مهلا عليك ! رويدا بك ! تقدمت لك خدمة ، وتأخرت لك توبة ، وما للذنب ينها مدخل ، وقد وسعك الغفران !»،

— ٢ —

مثال من كتابته

وكتب الى بعض عماله :

”أما بعد، فلو كان نظرك فيها خصصناك به، واهب لك
به، على حسب متواترك بالكتاب واحتياجاتك بذلك على
مهم أمرك، لـكنت من أحسن رجالنا غناء، وأتمهم نظرا
وأفضلهم حزما، فأقلل من الكتاب فيها لا وجه له،
ولا نفع فيه، واصرف همتك، وفكر ناك، وعذائيةك الى
ما يبدو فيه اكتفاءك ويظهر فيه غناوك - از شاء الله :“

أمثلة من شعره

— ١ —

مثال من غزله

يا مهجة المشتاق ما أوجعك ويا أسير الحب ما أخشعك
 ويا رسول العين من لحظها بالرد والتبلیغ ما أسرعك
 تذهب بالسر فتأنی به في مجلس يخفی على من معك
 كم حاجة أنجزت ابرازها تبارك الرحمن ما اطوعك!

— ٢ —

مثال آخر^(١)

ويحيى على شادن حكيم في مثله يخلع العذار
 كانوا وجناته ورد خالطه النور والبهار
 قضيب بان اذا نثني يدير طرفا به احوار
 ما اطرد الليل والنهار فصفو ودى عليه وقف

(١) فالله في صبياه

— ٣ —

مثال من زهدة

يا من يراوهه الأجل حتماً يلهيك الأمل !
حتماً لا تخشى الردى وكأنه بك قد نزل !
أغفلت عن طلب النجا ة ولا نجاة لمن غفل !
هيئات يشغلتك المني ولا يدوم لك الشغل !

— ٤ —

مثال آخر

أُورى الدنيا تصير الى فناء وما فيها لشيء من بقاء
فبادر بالانابة غير وان على شيء يصير الى فناء
كانك قد حملت على سرير وغريب حسن وجوك في الثراء
فناس في التقى واجنح اليه لملك ترضين رب السماء

* اختراع المؤسّعات *

فِي زَمْنِ هَذَا الْأَمِيرِ اخْتَرَعَ الْمَوْشِحَاتِ مَقْدِمُ بْنِ
مَعَاوِيَةِ الْفَرْبِرِيِّ؛ وَسَنَتَنَاوِلُ الْكَلَامَ عَنْهَا بَعْدَ قَلِيلٍ

عبد الرحمن الناصير^(١)

٥٣٥٠ - ٣٠٠

” وَفِي سَنَةِ ٩١٢ مَ . خَلَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ
الناصِر ، جَدَّهُ الْأَمِيرِ عَبْدَاللَّهِ . عَلَى عَرْشِ قَرْطَبَةِ ، وَإِنَّ
صَفَافَاهُ وَذَكَاءَهُ وَحَكْمَتَهُ فِي سُوْسِ مَدَارِكَتِهِ الْعَظِيمَةِ لِتَقْجِيلِ
فِي الْفَطْعَةِ الْقَالِيَةِ الَّتِي خَطَّهَا قَلْمَانِ الْمُؤْرِخِ الْأَدِيبِ « دُوزِي »
الَّذِي سَيَظْلِمُ كِتَابَهُ عَمَدَةَ الْبَاحِثِ ، وَإِنَّ الْفَهْرِيَّةَ مِنْذَ خَمْسِينَ عَامًا

* * *

” يَنْفَرِدُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الثَّالِثُ بِالْمَكَانِ الْأَوَّلِ ، بِلَامِنَازِعِ
مِنْ بَيْنِ الْمُلُوكِ الْأَمْوَالِ الَّذِينَ حَكَمُوا إِسْبَانِيَا ، وَإِنَّ مَا أَنْهَى
وَحْدَهُ ، لَيْكَادَ يَكُونُ مَعْجِزَةً ، فَقَدْ وَجَدَ الْأَمْپِرَاطُورِيَّةَ
سَائِرَةً إِلَى طَرِيقِ الْفَوْضِيِّ وَالْحَرْبِ الدَّاخِلِيَّةِ ، وَرَأَى الْفَتَنَّ
وَالْأَحزَابَ السِّيَاسِيَّةَ قَدْ أَنْهَكَتُهَا ، وَالْفَاتَاهَا مَقْتَسَمَةً بَيْنَ

(١) مُعرِّبةٌ عن الفصل التاسع من كتاب تاريخ ادب العرب
للأستاذ نيكلاسون

كثير من الامراء المقباني الاجناس ، ودائماً معرضة لـ إغارات مسيحي الشمالي لا تقطع ، كما رأى أنها على وشك أن يلتهمها أحد اثنين ، هما الاليونيون والافارقة ، فأنقذ إسبانيا - بالرغم من العقبات التي لا تُحصى - منها جميعاً ، ونجاتها من الخراب الداخلي وصمد عنها الغارات الخارجية وبعث فيها روحًا جديدة ، وجعلها أقوى مما كانت عليه في أي وقت مرت به ، ونظمها وأسعد حال أهلها وجعلها محترمة في الخارج

وكان بيت المال في حال يرثى لها ، فامتلا في عهده ، وقد خصص من ايراد مملكته السنوى الذى بلغ ٦٢٤٥٩٠٠٠ جنية ، ثلثا كان يصرفه في النفقات العادية ، وثلثا احتياطياً يدخله ، وثلثا ينفقه على مبانيه^(١)

وقد قدر ما في خزائن بيت ماله في سنة ٩٥١ م. ببلغ عظيم بلغ (٢٠٠٠٠٠٠ دينار) جنيه وهو ما يجعلنا نتفق بأن ما قاله أحد السائرين من ان عبد الرحمن هذا والحمداني

(١) وهذا يسهل لكم ادراك السر في تقدم فن الماء الماء الذي وصل في عصره إلى حد يدعوه للدهشة كما سفينة

(ناصر الدولة) الذى كان حينئذ حاكم بلا دلالة (بين النهرين) كانوا أغني معاصر يها - لم يكن جزافا، وانه لم يقل ذلك لعدم تقديره لالمسائل المالية أو جهلها بها - وقد كانت سعادة المدلكة متوقفة على سعادة بيت المال، ومن ثم نجحت الزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم - وان قرطبة التي فيها نصف مليون نسمة وثلاثة آلاف مسجد - والتي فيها القصور الفخمة والتي بها ١١٣ ألف منزل و٣٠٠ ماخورة وعمان وعشرون صاحية لم يكن ليتفوقها في سعتها وعظمتها وابتها الا بغداد وحدها ، ذلك البلد الذى طالما شغف القرطبيون بعقارتهما ، ولقد كانت قوة عبدالرحمن عظيمة ، فقد كان يناصره اسطول كبير في منازعاته مع الفاطميين دوله للبحر الا يض وقد غنم سبته مفتاح مورتانيا ثم إن جيشه الــكبير الذى كان على اتم نظام والذى ربما كان احسن جيش في العالم قد جعله يتتفوق على المسيحيين قاطني الشمال - وقد رغب في محالفته حتى اشد الحكام صلفا فلقد ارسل امبراطور القسطنطينية وملوك الالمان وابطاليا

وفرنسا سفراهم اليه (١)

ويقيني ان تملك نتائج باهرة - واكـن دهشتنا واعجابـنا
بهـذا العمل اذ ندرس ذلك المـعمر الـذهبـي لا يـبلغـان الحـدـالـذـى
يـصلـانـاـلـيـهـ،ـ بـنـفـسـ الرـجـلـ الـذـىـ قـامـ بـهـذـاـعـمـ وـاـكـنـهـاـ
الـعـبـقـرـيـةـ وـالـذـكـاءـ الـوـاسـعـ الـذـىـ لـاـ تـنـدـ عـنـهـ شـارـدـةـ هـاـ الـاذـانـ
يـجـعـلـانـاـلـاـيـقـلـ اـعـجـابـناـ بـرـأـيـهـ فـيـ اـدـقـ النـفـاـصـبـلـ عـنـهـ فـيـ
اعـوـعـ المـسـائـلـ وـأـعـضـاهـاـ.

وـإـنـ ذـلـكـ الـدـاهـيـةـ الـأـلـمـعـ الـذـىـ جـمـعـ الـكـامـةـ وـوـحـىـ
الـمـلـكـةـ وـلـذـىـ اوـجـدـ بـحـالـفـانـهـ نـوـعاـ مـنـ التـواـزنـ وـالـذـىـ
اسـتـطـاعـ بـأـنـاـتـهـ وـحـامـهـ الـوـاسـعـ أـنـ يـضـمـ إـلـىـ مـجـلـسـهـ السـيـاسـيـ
اسـانـذـةـ الـأـقـالـيمـ الـأـخـرـىـ لـهـ اـقـرـبـ إـلـىـ اـنـ يـكـوـنـ مـلـكـاـ
حـدـيـثـاـ مـنـهـ إـلـىـ اـنـ يـكـوـنـ مـلـكـاـ مـنـ مـلـوكـ الـقـرـونـ الـوـسـطـىـ

وـمـوجـزـ القـولـ اـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ النـاـلـثـ جـعـلـ مـسـلمـىـ
الـانـدـاسـ أـمـةـ وـاحـدـةـ وـكـوـنـ مـنـ الـعـرـبـ وـالـإـسـبـانـ أـمـةـ
اـنـدـلسـيـةـ مـتـضـافـرـةـ

قـلـكـ الـأـمـةـ الـتـىـ تـقـدـمـتـ بـسـرـعـةـ لـاـيـصـدـقـهـاـ الـعـقـلـ كـمـ

(١) سـيـمـرـ بـلـتـ شـىـءـ مـنـ ذـلـكـ بـعـدـ قـاـيلـ .

سترونها الآن - إلى مستوى تهذيب عال، جعل أوروبا تحسدها عليه، ووصل بها إلى حد لم تضارعها معه أية مملكة من ممالك الشرق الإسلامية - ومهما يكن من شيء فقد بدأ سقوط الأسرة الاموية بعد مماثلة .١٠٥هـ

* * *

ونحن لا نملك أنفسنا من الاعجاب بهذا الوصف الشائق الذي أحظينا به العلامة دوزي ، وليس يسعنا كما أنه لا يسمع أى منصف إلا موافقته على كل ما جاء فيه واعتماده فإن ذلك الوصف - وإن يكن يبدو فيه لمن يلقى عليه النظرة الأولى أو يقرؤه لأول وهلة ، شيء من تحييز دوزي لعبد الرحمن الناصر - إلا أنه مع ذلك وصف حق ، خال من الاغراق والهوى ولا يلبي المتصف المدقق أن يقرره عليه ويعتمد صدق ما جاء فيه ، والحق أن عبد الرحمن الناصر لم يكن كما جديرا بالاعجاب فحسب ، بل كان زيادة على ذلك رجلاً جديراً بخلود الذكر - وإنما يوجهنا البحث إذا حاولنا أن نعثر بأمثاله القلائلين في التاريخ ، فإن أمثاله من الموك لا يشارفون

العالم الاماما ولا يظفر بهم التاريخ الا نادرا - نعم وليسوا
ممن يوجدون في كل قرن ^(١)

(١) ونحن يا سادة حين ندرس أمثال عبد الرحمن الداخل أو
عبد الرحمن الناصر وزرى ما قام به كل منها من جليل الاعمال
نستطيع أن ندرك بسهولة ، الباعث الأول والمؤثرات الحقيقة
التي كان لها أكبر الأثر في الأدب الانداسي
فإن من لا يفهم تماماً أن عبد الرحمن الثالث مثلاً قد جعل
مسيحي الاندلس امة واحدة ، وكون من العرب والاسبان امة
أندلسية متضاغفة كا ص - وإن من لا يعلم أن الزراعة والصناعة
قد نجحت وإن الامن استتب وإن غذاء الدولة قد وصل في مده
إلى درجة لا تسامي - لن يفهم سر الروح الادبية التي مرت في
الامة حينئذ ، وليس من يجهل أمثال هذه العصور التي تحيا بها
الامم ، والتي لو لاها لبادت ولما كان لها شأن يذكر في عالم التاريخ ،
بحقيق أن يفهم الدرجة التي وصلت إليها بلاغتها ولا يجدier أن
يدرك الاسباب التي وصلت بها إلى تلك الدرجة - وإن يكون
شأنه الا كشأن الكثيرين عندنا ممن يحسبون دراسة بلاغة امة
ما ، لا يتخطى حفظ بعض طرف وأشعار بدعة وعدة نماذج قيمة
فهم لا يعرفون من تاريخ الأدب الاندلسي مثلاً ، أكثر من أن
أين زيدون كان شاعراً خلا ، وانه كان يحب ولادة ويرسلها وترسل له

* * *

ولكن كم يتفعج الانسان ويتحسر وتحول غبطةه
وسروده بهذا العصر الذهبي الى أسى عميق وحزن يذله

وان من خير قصائده ذويته المشهورة الخ الخ
ثم يعرفون بعد ذلك بضع اشعار متفرقة لبعض شعراء
متفرقين دون أن يعرفوا في أي عصر نشأ شاعرهم ولا المؤثرات
التي أثرت في شعره ولا اثر شعره في الحالة العامة وأثر الحالة
العامة في شعره ، وارتباط ذلك كله بالحالة السياسية وارتباط
الحالة السياسية به

* * *

وهل يكتفى من يود دراسة بلاغة امة ما ؟ بعدة محفوظات
متفرقة غير مرتبطة بعضها ببعض ، ولا مقيد بزمان ولا مكان ؛
وهل استطيع ان أقول اي ملم بالبلاغة الاندلسية لاني أحفظ
ترجم ست شعراء ونحو عشرين قصيدة لهم ؟ وهل يكفيانا أن
ننلوي مثل هذه المحضرات قول ابن زيدون :

واها لعطفك والزمان كما ^{اما} صبغت نضارته ببرد صباك
والليل - وهو طال - قهر طوله هاقي - وقد غفل الرقيب - وهاك
حتى اذا بلغنا قوله :

اما مني تفسي ذات جيء بها يا ليتني اصبحت بعض مذاك !

عن نفسه حين يقرأ هذه الجملة التي ختم بها نيكلسون كلامه
الذى عاق به على كلام دوزي وهى قوله "ومها يكن من

يدنو بوصلك حين شطمزاره وهم ، أكاد به اقبل فاك
صفقنا استحسان الله ، وسحرنا اهتداؤه الى هذا المعنى الباهر
الذى يمثل تلك الصورة الحقيقية ويشرح حال العاشق الصادق
في عشقه بهذه الدقة النادرة ، في قوله :

يدنو بوصلك حين شطمزاره وهم اكاد به اقبل فاك
نعم يا سادة : انها أبيات رائعة قلما نعثر على شبيهها في الشعر
العربي ، وليس من شيك في أنها من أعلى أمثلة البلاغة الحقيقة ، ولكنها
مم ذلك ليست وحدها كل المقصود من دراسة البلاغة وتاريخها

* * *

وانى على يقين من ان من لا يدرس التاريخ العام دراسة
مفصلة لن يستطيع ان يحكم بنفسه حكم صادقا على بلاغة امة ما
ولن تكون دراسته الا كدراسة مدارستنا للبلاغة ، اذ يكتفى
الطالب فيها بالالمام بطيئة من امهات الشعراء والادباء ، وطيئة من مختار
أقوالهم وعدة احكام لا رأى له فيها مطلقا ، لقنها لهم استاذه تلقينا
وادها اليه امانة لم تنقص ولم تزد ، كما نقلها عن استاذه هو الآخر
بدوره - وهي طريقة يجب محاربتها بكل وسيلة - على ان لا ارى
وجوب دراسة التاريخ العام خسب ، لا الوصول به الى تفهم

شيء، فقد بدأ سقوط الأسرة الاموية بعد مماته،
يحزننا ذلك لأنها جملة تعودنا أن نسمع أشياها من

البلاغة على حقيقتها، بل ازيد على ذلك وجوب دراسة علم تقويم
البلدان، لاسيما اللاقليم الذي نشأت فيه تلك الآداب ونعت، مع
العذائية الناتمة بفهم أثر المناخ وأثر موقع البلد الى آخر تلك الاسباب
التي تبادر بين الامزجة والطبائع - وتخبر للانسان ان يلم بمصر
واحد من المصور الماما مجديا، من ان يكون راوية لترجم ألف شاعر
لا يعلم ارتباطهم بالتاريخ العام، وارتباط التاريخ العام بهم، واثرهم
في الحضارة، واثر الحضارة فيهم - بل ان لا جرئ فأقول: ان خيرا
للانسان ان لا يدرس آداباً قط من ان يدرسهها بالطريقة المضطربة
التي سلكها كثير من كتبوا في تاريخ الأدب عندنا - اللهم الا اذا
كان الفرض من دراسته هو الافتصار على دراسة بعض منتخبات
وعاذج من البلاغة لتفويت المذكارات اللغوية وتهذيب الذوق
الأدبي خسب - وانما ردتنا هذه الملاحظة مرة اخرى لأننا على
يقين من ان الــكثيرين منا لا يزالون يعتقدون ان دراسة تاريخ
البلاغة معناه لا كثفاء بذكر ترجمة مشاهير الشعراء والافتصار
على نخبة من اشعارهم - وهم في ذلك يرون ان من الامر اغاف
ان يتتوسع الانسان في الكلام على التاريخ العام - على انتا كلما

المؤرخين لا سيما المختصين منهم بالكلام على التاريخ
الأندلسى ولا مندوحة للمطالع على تاريخ المسلمين ، لا سيما
في إسبانيا ، من سماع هذه الجملة عقب كل ملك قوى عظيم

ازددا بحثا في دراسة بلاغة امة ما وأعوزنا تفهم الاسباب التي
أدت الى نتائج خاصة ، كلما ازداد شعورنا بالحاجة الشديدة الى
التوسيع لا في دراسة تاريخها العام وحده بل وفي عام تقويم
البلدان ايضا

أثر الناصر في الاندلس

” وجد الاندلس مضطربة فسكنها ، وقانل المخالفين
حتى أذعنوا واستنزل الثوار ومحى أثر ابن حفصون ^(١)
كبيرهم ، وحمل أهل طيطة على الطاعة و كانوا معروفيين بالخلاف
والانتقام - واستقامت الاندلس وسائل جهاتها في نيف
وعشرين سنة من أيامه ودامت نحوها من خمسين سنة
استفحلا فيها ملك بنى أمية بتلك الفواحى - وهو أول من
تسمى بأمير المؤمنين عند تلاشى الخلافة بالشرق ١٤٥ ^(٢) ”

سبب تلقبه بالخلافة

فانه لما رأى هياج الدولة العباسية وضعفها في المشرق
وظهور الدولة التركية والديلمية - أيقن ان امرة المؤمنين
لامقة به ، فلقب نفسه امير المؤمنين ١٤٥

(١) وقد مات الشقى عمر بن حفصون في سنة ٣٠٦ بعد أن
هدم ملك الأمويين طوبلا ، وكاد يشل عرشهم مرارا ، فزال بعوته
أكبر شبح مرعب للفوضى (٢) ابن خلدون

وقد أورث من أعقابه هذا اللقب . واستهل خطيب
جامع قرطبة خطبة الجمعة بذكرا ذلك في سنة ٣١٦ ، وقد انفرد
الناصر كتبه إلى عمالة بالمنشور التالي :

منشور الخلافة

«أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّا أَحَقُّ مِنْ أَسْتَوْفِيْ حَقَّهُ ، وَاجْدَرُ مِنْ
اسْتَكْمَلْ حَظَّهُ ، وَلَبِسَ مِنْ كَرَامَةَ اللَّهِ مَا أَبْسَهُ - الَّذِي
فَضَلَّنَا بِهِ ، وَاظْهَرَ أُثْرَتَنَا فِيهِ ، وَرَفَعَ سُلْطَانَنَا إِلَيْهِ ، وَيُسَرِّ عَلَى
أَيْدِينَا دَرَكَهُ ، وَسَهَلَ بِدُولَتَنَا مَرَامِهِ - وَلِلَّذِي اشَادَ فِي الْآفَاقِ
مِنْ ذَكْرِنَا ، وَعَلَوْ أَمْرَنَا ، وَاعْلَنَ مِنْ رِجَاءِ الْعَالَمَيْنِ بِنَا ،
وَاعْلَانَ مِنْ انْخِرَافِهِمُ الْيَيْنَا ، وَاسْتَبْشَارَهُمُ بِدُولَتَنَا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
وَلِالْأَنْعَامِ - بِمَا أَنْعَمَ بِهِ ، وَاهْلَ الْفَضْلِ ، بِمَا تَفَضَّلَ عَلَيْنَا فِيهِ
وَقَدْ رَأَيْنَا أَنْ تَكُونُ الدُّعَوَةُ إِنَّا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَخَرْوَجُ الْكَلْبَعَنَا ، وَوَرَودُهَا عَلَيْنَا بِذَلِكِ . إِذْ كُلُّ مَدْعُو
بِهِذَا الْأَسْمَاءِ مُنْتَهِلٌ لَهُ ، وَدُخِيلٌ فِيهِ ، وَمُتَسَمٌ بِمَا لَا يَسْتَحْقِهُ
وَعَلِمْنَا أَنَّ التَّادِيَ عَلَى تَرْكِ الْوَاجِبِ لَنَا مِنْ ذَلِكَ ، حَقٌّ
أَصْنَاعَهُ ، وَاسْمُ ثَابِتِ أَسْقَطَنَا هُوَ ، فَأَمْرُ الْخَطَّابِ بِعَوْنَانِكَ

أَنْ يَقُولَ بِهِ، وَاجْرٌ مُخَاطِبَكَ لِذَا عَلَيْهِ - إِنْ شاءَ اللَّهُ،
وَإِنَّ اللَّهَ الْمُسْتَعْنَانَ،

أثره في الحضارة الأندلسية

وَلَمَّا اسْتَفَحَ حَلَ مُلْكُ الْفَاطِرِ^(١)، صَرَفَ نَظَرَهُ إِلَى تَشْيِيدِ
الْمَبَانِيِّ وَالْقَصُورِ، وَكَانَ جَدُّهُ الْأَمِيرُ مُحَمَّدُ، وَابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
الْأَوْسَطُ، وَجَدُّهُ الْحَكَمُ، قَدَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ وَبَنُوا قَصُورَهُم
عَلَى أَكْبَرِ الْأَنْفَاقِ وَالْفَضْخَامَةِ، وَكَانَ مِنْهُمُ الْمَجْلِسُ الزَّاهِرُ
وَالْبَهْرُ الْكَاملُ وَالْقَصْرُ الْمَنِيفُ، فَبُنِيَ هُوَ إِلَى جَانِبِ الزَّاهِرِ
قَصْرُهُ الْعَظِيمِ وَسِيَاهِ دَارِ الرُّوْضَةِ، وَجَلَبَ الْمَاءَ إِلَى قَصُورِهِم
مِنَ الْجَبَلِ وَاسْتَدَعَى عَرَفَاءَ الْمَهْنَدِسِينَ وَالْبَنَائِينَ مِنْ كُلِّ قَطْرِ
غَوْفَدِهِ عَلَيْهِ حَتَّىٰ مِنْ بَغْدَادِ وَالْقَسْطَنْطِنْيَةِ، ثُمَّ اخْذَ فِي
بَنَاءِ الْمَنْزَهَاتِ، فَأَخْنَذَ مِنْهَا النَّاعُورَةَ خَارِجَ الْقَصُورِ، وَسَاقَ
لَهَا الْمَاءَ مِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ - عَلَى بَعْدِ الْمَسَافَةِ،

تشييد مدنية الزهراء

«ثُمَّ اخْتَطَ مَدِينَةَ الزَّهْرَاءِ، وَأَخْنَذَهَا مَنْزَلَهُ، وَكَرْسِيَّا

(١) ابن خلدون

لملأه ، فاذشا فيها من المباني والقصور والبساتين ما علا
على مبانيهم الأولى ، وانخذل فيها مجالات للوحش فسيحة
الفناء ، متبعاً عدة السياح ، ومسارح للطيوور مظللة بالشباك ،
وانخذل فيها داراً لصناعة آلات من آلات السلاح للحرب
والحللى للزينة ، وغير ذلك من المهن
وأمر أن تعمل الظللة على صحن الجامع بقرطبة ، وقاية
للناس من حر الشمس ^(١) ”

* * *

وقد عني الناصر عنانية خاصة بإنشاء نافورات من المرمر
الجميل في جوامع قرطبة وشبيلية ، يكتنفها بوح يغرس
فيها شجر البرتقال والا س وغيرها
وأصلاح قنطرة النهر الكبير ، وضرب نقوداً جديدة
ووضع عليها اسمه وألقابه ^(٢)

(١) ابن خلدون

(٢) وكان ذلك في السنة التي نلقب فيها بالخلافة أى في سنة
(٣٦٥ھ) . فأمر باقامة دار السكة داخل قرطبة ، لضرب الدنانير
والدراجم ، وكانت مثاقيلة ودراجم ، محضاً من خالص الذهب والفضة .

* * *

ومما استدل به بعض المؤرخين على روى عصره ،
ما حكوه من أنه أراد الفاصد ذات يوم ، فقعد بالبهو في
المجلس الكبير ، المشرف على مدينة بالزهراء ، واستقدعى
الطبيب لذلك ، وأخذ الطبيب الآلة ، وحبس يد الناصر
وإنه كذلك ، وإذا بززور قد أطل ، فصعد على آناء ذهب
بالمجلس ، وانشد :

أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنينا
أنما تقصد عرقا فيه محيا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة ، فاستظرفه الناصر
وسربه وسائل عمن اهتمى إلى ذلك وعلم الزرزور ،
فذكر له أن السيدة الكبرى مرجانة أم ولده ولـى عهده
الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك واعده لهـذا الامر
قالوا : « فوهـب لها ما ينـيف عـلى ٣٠ الف دينـار ! »

العصر الذهبي

وقد أصاب المؤرخون في تسميتهم لهذا العصر الاندماجي بالعصر الذهبي^(١). فقد نفقت فيه سوق العلم والأدب وارتقت فيه الفنون، فكانت ترى أنني ذهبت مجالس أدب و المجالس علم و مجالس غناء، وكان بلاط الناصر مزدحماً بالعلماء و رجال الأدب والفن.

هلية قسطنطين

ولما عظم أمر الناصر، وارتفع شأنه، رغب في محالفته حتى أشد الملوك صلفاً - كما يقول دوزي - وكان من بين هؤلاء الملوك قسطنطين ملك الروم الذي بعث إليه بهديته المشهورة وأرسل معها كتاباً يرغب فيه تجديد المحالفه القديمة التي كانت بين أسلافها مع خلفاء بغداد.

قالوا: «وكتب هذا الكتاب بحروف من ذهب في دق سماوي اللون، وفيه طرس سماوي أيضاً كتب بحروف

(١) تشمل هذه التسمية عصرى الناصر وابنه الحكيم الثاني

من الفضة يصف المهدية وأصنافها، وكلاهما بالخط الاغريقي

* * *

فأحسن الناصر لقاء الرسل، حتى إذا وصلوا إلى قصر
قرطبة، بهرم ما رأوه من بهجة الملك ودوعته، وأمر
ال الخليفة بعض الأدباء والشعراء بالخطابة بما يناسب ذلك المقام

أر تباك أبي علي القالي^(١)

فيبدأ الكلام أبو على القالي، فحمد الله، وصلى على النبي،

(١) ترجمة القالي

المتوفى سنة ٣٥٦

اسميه اميماعيل، ولقبه أبو على، واسم أبيه القاسم وكان من
موالي عبد الملك بن مروان.

أكثر أبو على من حفظ اللغة والشعر، وهي عناية شديدة
بدرس نحو البصريين، وتتلمذ لابن دريد، ونفطاويه، وابن
درستويا، وغيرهم.

وقد أقام ببغداد ٢٥ سنة ثم أقام بالموصل زمناً، ثم وفد على
الأندلس في زمن الناصر «وكان ابنه الحكيم يتصرف حينئذ من
أمرابيه كالوزير، فأمر حامليه ابن رماحس؛ أن يجسّي مع أبي على

ثم ارجع عليه لهول المحن وأبهة الخلافة .

الى قرطبة في وفد من وجوه رعيته ، يذتخيرون من بياض أهل الكورة ، تكرمة لا في على ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل ، فكانوا يتذاكرون في الأدب في طريقهم ، ويتناسدون في الأشعار ، الى ان تجاوزوا يوما ، وهم سائرون ، أدب عبد الملك بن مروان ، ومسألته جلساً عن أفضل المناذيل ، وانشاده البيت : « ثُمَّ قَنَا إِلَيْنَا جُرْد مسومة أُعْرَافُهُنَّ لَا يَدِينَا مَنَادِيلَ » وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبو علي ، فأنشد الكلمة في البيت : « أُعْرَافُهَا لَا يَدِينَا مَنَادِيلَ »

فإنكرها ابن رفاعة الألبيري . وكان من أهل الأدب والمعرفة ، وفي خلقه حرج وزعارة ، فاستعاد أبو علي البيت مستثبنا هرلين في كلاميه أشدده « أُعْرَافُهَا »

فلوي ابن رفاعة عنانه من صرف ، وقال : « مم هذا يوفد على أمير المؤمنين وتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيات مشهور بين الناس ، لا يغاط الصبيان فيه ، والله لا تبعته خطوة » وانصرف عن الجماعة ، وندبه أميره ابن رماحه الا يفعل ، فلم يجد فيه حيلة ، وكتب الى الحكم يعرفه ، وبصف له ما جرى لا بن رفاعة ويشكوه ، فاجابه على ظهر كتابه : « الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادي نشامن بخطي وآفاد أهل العراق اليانا ، وابن

قالوا : « وانقطع ، وبهت ، فما وصل إلاقطعم ، فوقف

رفاعة أولى بالرضا عنه من السخط ، فدعه لشأنه ، واقدم بالرجل
غير منتهى من تذكرته ، فسوف يعلمه الاختبار ان شاء الله
أو يحيطه » ١ . هـ

وفي هذا الجواب تتمثلون عدل الحكم وانصافه ، ووفور
عقله ، وغزارة أدبه كا تتمثلون من هذه الحكمة ، شدة تعلق
الآدباء بالمسائل العروضية وأشباهها ، وفيه دليل آخر على ماسقناه
من أكبار الاندلسيين في جال الشرق وعلمائهم .

وزيريد ان لا يفوت القاريء ان مثل هذا الخطأ العروضي
الذى وقع فيه الاديب ابن القالى لا ينقص من قيمته الادبية ،
ولا يزيد في قيمة ابن رفاعة ، ولئن صحت دلالته على شيء فهو
يدل على تسرع ذلك الاديب الاندلسي في حكمه ، وترقبه لمبادرة
يظفر به امن ابن القالى فيعطيها فرحا ، ويملاً ماضغة فخرا ، فينبه
 بذلك امره .

ومن يدرى ؟ فربما كان ابو علي في شغل شاغل - اثناء تلاوته
هذا البيت - بالتفكير في موطنه الشرقي أو حدس ما عساه مجده
من الاقبال في الاندلس ، أو التدبر في اي شأن آخر .
على انتنا - اذا سلمنا أنه لم يصحح وزن بيت من الشعر قات

ساكتاً مفكراً»

ذلك لا يدل على شيء أكثر من فقدانه الروح الموسيقية وحدتها،
وذلك لا يطمئن في سلامته ذوقه الأدبي وحسن اختياره، وسعة
علمه .



ولقد تعلم أبو علي القالي وارتج عليه حين أراد الترحيب
برسل ملك الروم ، واظهر مجد الاسلام امامهم ، فهل دل ذلك
على شيء أكثر من ان لكل مقام ناسا لا يصلحون الا له .
فلا بد على القالي ، التفكير الهادىء والبحث الادبى المطهئ ،
وتحقيق الروايات والاسانيد ، ولابن سعيد البلومي وأشباهه
الثرة والتأثير الخطابى على نفوس سامعيه . وليس في استطاعة
احدها ان يقوم مقام الآخر .

ونحن نحيل الفارىء على اخبار ابى العلاء صاعدهى الجزء الثانى
من تفتح الطيب (من ص ٥٢ - ٥٩) وفي كتاب الموجب (من
ص ١٦ - ٢٠) ليتبين منها مثلا نادرا لاثرة ومرعة البداهة
وحضور الجواب ، مع البعد الشديد عن تجھیص ما يقول ، او
تخرى الدقة في كلامه ، وسيمر بك شيء من اخباره

خطبة منذر بن سعيد البلوطي^(١)

فلم يرأى منذر بن سعيد البلوطي ذلك ، قام فأكابر درجة من مرقة أبي علي ، ووصل افتتاحه ، وخطب خطبة صافية ، نختار منها قوله :

(١) ترجمة منذر بن سعيد البلوطي

ولد سنة ٢٧٣ عند ولاية المنذر بن محمد ، وتوفي سنة ٣٥٥ وقد ولاه الناصر القضاة بقرطبة ، بعد أن ثبت له كفاءته وسعة علمه ، وكان مهيباً قوى النفوذ ، وله كتب كثيرة في السنة والورع ، وقد نظم بعض أشعار في الزهد منها قوله :

الموت حوض ، وكنا نزد لم ينج مما يخافه أحد
فلا تكون مفرما برق غد فلست تدرى بما يجبيه غد
وخذل من الدهر ما أذاك به ويسلم الروح منك والجسد
والخير والشر لا تدعه ذرا في الناس إلا التشنيع والحسد
وقوله :

كم تصابي وقد علاك المشيت وتعامي همداً ، وأنت اللبيب
كيف تلهم وقد أذاك نذير ان سيأتي الجام منك قريب

” وانى اذْكُرْكُمْ نَعِمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ وَتَلَافِيهِ لَكُمْ بِخَلَافَةِ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي لَمْتُ شَعْشِكُمْ ، وَآمَنْتُ سَرْبِكُمْ ، وَرَفَعْتُ
خُوفِكُمْ ، بَعْدَ أَنْ كَنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرْتُمْ ، وَمَسْتَضْعِفُهُمْ فَقَوْا كُمْ ،
وَمَسْتَذَلِّيْنَ فَنَحْتَرْتُمْ ، وَلَا هُنَّ اللَّهُ رَعَايَتُكُمْ ، وَاسْنَدْتُ إِلَيْهِ اِمَامَتُكُمْ ،

يَا صَفِيفَهَا ، قَدْ حَانَ مِنْهُ رَحِيلٌ بَعْدَ ذَلِكَ الرَّحِيلِ يَوْمَ عَصِيبٍ !
إِنَّ الْمَوْتَ سَكْرَةً فَارْتَقِبُهَا لَا يَدَاوِيْكَ — إِنَّ أَنْتَكَ طَبِيبٌ
وَفِي خَتَامِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ يَقُولُ :

لَيْسَ مِنْ سَاعَةَ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا لِمَنِيَا يَا عَلَيْكَ فِيهَا رَقِيبٌ
وَكَتَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْأَدْبَاءَ بِقَوْلِهِ :
مَسْأَلَةُ جَهَنَّمَ مُسْتَفْتِيَّا عَنْهَا وَأَنْتَ الْعَالَمُ الْمُسْتَشَارُ
عَلَامُ نَحْمَرٍ وَجْهُ الظَّبَابِ وَأَوْجَهُ الْعُشَاقِ فِيهَا اصْفَرَارٌ
فَاجْبَاهُ مُنْذِرٌ بِقَوْلِهِ :

أَحْرَرَ وَجْهَ الظَّبَابِ إِذْ لَحَظَهُ سِيفُ عَلَى الْعُشَاقِ فِيهِ احْمَارٌ
وَاصْفَرَ وَجْهَ الصَّبِ لما نَأَيَ وَالشَّمْسُ تَبَقَّى لِلْمَغِيبِ اصْفَرَارٌ
وَفِي هَذَا مِثْلُ تَبَيْنِ مِنْهُ طَرِيقَةً فَهُمْ لِلْأَدْبَرِ وَنَوْعٌ تَفْكِيرٌ هُمْ فِيهِ ؛
وَمَا حَكَاهُ عَنْ نَفْسِهِ ، مَا حَدَثَ لَهُ مَعَ أَبِي جَعْفَرٍ بْنِ النَّحَاسِ ،
وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ هَنَاكَ ، يَمْلِي فِي أَخْبَارِ الشَّعْرَاءِ ، شَعْرٌ قَيْسَ الْجَنُونِ ،
حَيْثُ يَقُولُ :

خَلَابِيَ هَلْ بِالشَّامِ عَيْنٌ حَزِينَةٌ تَبَكِيَ عَلَى نَجْدٍ لَعَلِيَ أَعْيَنَهَا

أيام ضربت الفتنة سرادقها على الأفق ، واحتاطت بكم شعل
النفاق ، حتى صرتم في مثل حدقه البعير ، من ضيق الحال
ونكدة العيش والتغيير ، فاستبدلتكم بخلافته من الشدة بالرجاء ،
وانتقلتم ييمن سياسة الى كنف العافية بعد استيطان البلاء ،
أنشدكم الله يا عشر الملا ، ألم تكن الدماء مسفوكه خفتها ،
والسبيل مخوافة فآمنها ، والاموال منتهية فاحرزها وحصتها ،
ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ، وتفور المسلمين مهتضره
فيها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافقه
جمع لكم سركم ، بعد افتراقها بامامتهم ، حتى اذهب الله عنكم
غريبكم ، وشفى صدوركم ، وصرتم يدآ على عدوكم ، بعد ان

قد اسلمهما الباكون الا حمامه مطوقه باتت وبات قرينهما
تجوبها أخرى على خيرانه يقاد يدنيهما من الارض لينهها
فقال له : « يا أبا جعفر ماذا أعزك الله باتا يصنعان ؟ » ، فقال
لي : « وكيف تقوله أذت يا أندلسي ؟ » ، فقلت له : « باتت وبات
غيرهما ! » فسكت : قال ابن سعيد : « وما زال يستثنى لمني بعد
ذلك حتى منعني كتاب العين ، وكنت ذهبت الى الاستنساخ
من نسخته . »

وسيمبر بذلك طرف من اخبار ابن سعيد هذا بعد قليل .

كان بأسمكم يذنكم ، ناشد تكم الله ألم تكون خلافته قفل الفتنة
بعد انطلاقها من عقالها ، ألم يتلاف صلاح الامور بنفسه
بعد اضطراب احوالها ؛ ولم يكن ذلك إلى القواد والاجناد ،
حتى باشركم بالمحنة والأولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر
الاوطن ، ورفض الدعوة وهي محبوبة ، وترك الركون إلى
الراحة وهي مطلوبة ، بطوية صحيبة ، وعزيمة صريحة ،
وبصيرة نافذة ثاقبة ، وريح هابة غالبة ، ونصرة من الله واقعة
واجية ، وسلطان قاهر ، وجد ظاهر ، وسيف منصور ،
تحت عدل مشهور ، متحملاً لأنصب ، مستقلاً لما ناله في
جائب الله من التعب ، حتى لانت الاحوال بعد شدمها ،
وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ،

قالوا : « ولما فرغ من خطبته أنشد مع رضاي على القالي :
هذا المقال الذي ماعا به فند لكن قائله أزرى به البلد
لو كنت فيه غريبأً كنت مطرداً لكنني منهم فاغتنى النكدة
وقد بلغ اعجاب الناصر والحاضرين بهذه الخطبة أقصى
حد ، وكانت سبباً في رفع شأنه ونباهة ذكره فيما بعد (١) »

(١) ومما قاله مفتخرآ بأفدامه ، وشجاعته ؛ بمناسبة تلك

فقد ولاد الصلاة والخطابة في المسجد الجامع وأمره على
الصلاحة بالزهراء، ولما مات محمد بن عيسى القاضي ولادة الناصر
قضاء الجماعة بقرطبة

الخطبة ، الآيات التالية :

مقال كحد السيف وسط المحافل
فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكي ترني جنباته
كبار قرعد عند رقس الا نامل
فأد حضرت رجلي ولا زل مقول
ولا طاش عقل يوم تلك الزلازل
وقد حدق نحوي عيون ذا خاطها
كثيل سهام انبثت في المقاتل
تلخير امام كان او هو كان
ترى الناس أفواجا يؤمنون بابه
لم قبل ، او في المصور الا وايل
وكاهم ما بين راض وآهل
وفود ملوك الروم وسط فنائه
مخافة بأس او رباء لذائل
فأنت غياث كل حاف وناعل
فتش سالمًا أقصى حياة معمر
حتمل كلها ما بين شرق وغرب باطل

طرفة من أخبار الناصر

مع ابن شهيد^(١)

ذكر ابن بسام أن أبا عامر بن شهيد احمد بن عبد الملك الوزير، أهدى له غلام من الفصارى لم تقع العيون على شبهه فلهمج الناصر فقال لابن شهيد: «أني لك هذا؟» فقال «هو من عند الله» فقال له الناصر: «تتحفونا بالنجوم و تستأنرون بالقمر؟» فاستعذر و احتفل في هدية بعثها مع الغلام وقال «يابنى كن مع جلة ما عشت به، ولو لا الضرورة ما سمحت باك نفسي» و كتب معه هذين البيتين:

أموالى هـذا البدرسار لا فـكم
وللأفق أولى بالبدور من الأرض
فأرضيكم بالنفس وهـى نفيسة
ولم أر قبلـى من بـهجته يرضـى

(١) تجد ترجمته و طرفا من أخباره الممتعة في الجزء الأول من كتاب نفح الطيب من (ص ٢٣٣-٢٢٩) وفي ص ٢٤٦ و ٢٤٧

فحسن ذلك عند الناصر، وأتحفه بمال جزيل وتمكنت
عنه مكانته، ثم إنها بعد ذلك أهدت إليه جارية من أجمل
نساء الدنيا خاف أن ينهى ذلك إلى الناصر فيطلبها ف تكون
قصة الغلام فاحتفل في هدية أعظم من الأولى وبعثها
معها، وكتب له هذه الأبيات :

امولاي هذى الشمس والبدر اولا
تقدمن ، كيما يلتقى القمرات
قران لعمرى بالسعادة ناطق
فقدم منها فى كوتور وجنة ان
فـا لها والله فى الحسن ثالث
وما لك فى تلك البرية ثان

فتضاعفت مكانته عنده، ثم إن أحد الوشاة رفع المملك
أنه بقى في نفسه من الغلام حزاوة وأنه لا يزال يذكره حين
تحرّك الشمول ويقرع السن على تعدد الوصول، فقال للواشى
بذلك : «لانحررك لسانك والا طار رأسك» واعمل الناصر
حيلة في أن كتب على لسان الغلام رقعة منها : «يا مولاي تعلم
أنك كنت لي على انفراد ولم أزل معك في نعيم واني وان

كنت عند الخليفة مشاركاً في المنزل له، محاذير ما يبذو منه
من سطوة الملك، فتحيل في استدعائى منه «وبعثها مع غلام
صغير السن وأوصاه أن يقول من عند فلان وأن الملك لم
يكلمه فقط، إن سأله عن ذلك، فلما وقف أبو عامر على الرسالة
واستيخبر الخادم فعلم في سؤاله ما كان في نفسه من الغلام
وما تكلم به في مجالس المدام، كتب على ظهر الرقعة، ولم
يزد حرفًا :

أمن بعد أحكام التجارب تبقى
لدى سقوط العير في غابة الأسد؟
وما أنا من يغلب الحب قلبه
ولا جاهل ما يدعيه أولو الحسد
فاما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم
يعد الى استئصال واسع به، ودخل عليه بعد ذلك فقال له «كيف
خلقت من الشرك» فقال: «لأن عقلى بالهوى غير مشترك»
فأقام عليه وازدادت محبتة عنه . هـ

سيطرة الدين في زمانه

وكان الناصر مع قوته وصرامته، يخاف الفقهاء ويدار بهم أحياناً، وقد أظهر شيئاً من ضعف العزيمة أمامهم في غير مرة، ولقد جبه القاضي منذر بن سعيد، في أوقات مختلفة، لمناسبات عدده، فاحتمله، ولم يجرؤ على الاقتنصاص منه.

- ١ -

فنـ ماذاك ما حـ كـ وـ عن ابن سعيد البلوطـ هـ (١)، حين دخل على الناصر مـ رـةـ ، وهو في قـ بـةـ جـ عـلـ قـ رـ مـ دـ هـاـ منـ ذـهـبـ وـ فـضـةـ وـ اـحتـفـالـ اـظـنـ أـنـ لـمـ يـصـلـ إـلـيـهـ أـحـدـ مـنـ الـمـلـوـكـ ، فـقـامـ اـبـنـ سـعـيـدـ خـطـيـباـ ، وـالـجـاسـ قدـ غـصـ بـأـرـبـابـ الـدـوـلـةـ ، فـتـلاـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ :ـ وـلـوـ لـاـ أـنـ يـكـونـ النـاسـ أـمـةـ وـاحـدـةـ ، جـعـلـنـاـ أـنـ يـكـفـرـ بـالـرـجـنـ اـبـيـوـتـهـمـ سـةـ فـاـمـنـ فـضـةـ ، وـمـعـارـجـ عـلـيـهاـ يـظـهـرـونـ ، ثـمـ أـتـبـعـ الـآـيـةـ بـمـاـ يـلـيقـ بـذـلـكـ :

(١) ذـكـرـناـ تـرـجـتـهـ فـيـ غـيرـ هـذـاـ المـكـانـ فـيـ صـ(٢٠٩ـ)ـ فـلـيـرـجـمـ

قالوا : « فوجم الملك ، ولم يسعه الا احتمال منذر
لعظم قدره في عالمه ودينه »

— ٢ —

وكتيرأ ما شدد النكير على الناصر ، لا إسرافه في بناء
الزهراء ، وقد دخل عليه يوما وهو مكب على الاشتغال
بالبناء ، فوعظه واشتد في تأنيبه ، فأنشده الناصر معتذرا :
هم الملوك اذا أرادوا نشرها

من بعدهم ، فبأنس البنيان
أو ما ترى المهرمين قد بقيا ، وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه
أضحي يدل على عظيم الشان

— ٣ —

وحضر يوما في الزهراء فأنشد بعض الشعراء قصيدة
للناصر ، منها :

سيشهد ما بقيت انك لم تكون
ضئيفا ، وقد مكنت للدين والدنيما

فباجامع العمود للعلم والتفى
وبالزهرة الزهراء للملك والعليا
فاهتز الفاصل وابهجه واطرق القاضى منذر هنيم ثم أنسد:
يا بانى الزهراء مستغرقا
او قاته فيها ، أما تنهل ؟
الله ما أحسنها رونقا
لو لم تكن زهرتها تذبل ؛^(١)
فاصنطر الفاصل الى مداراته ، وأجابه بقوله : « اذا
هب عليها نسيم التذكاد والحزين ، وسقتهما مدامع الخشوع
فانها لا تذبل » ،
فقال منذر : « اللهم فاشهد أنى بثت ما عندي ، ولم
آل نصحا ! »

(١) ولا بأس من ذكر البيتين التاليين بهذه المناسبة ، اللذين
أنشدما الوزير ابن جهور بعد تقويض ملك بنى أمية في الاندلس ،
حين وقف على قصورهم ، ورأى ذبول الزهراء :
قلت يوماً لدار قوم تقاموا : « أين مكانك العزاز علينا ؟ »
فأجابت : « هنا ، أقاموا قليلاً ثم ساروا ، ولست أعلم أيننا ! »

— ٤ —

وقد أظهر الناصر شيئاً كثيراً من ضعف العزيمة ، بعد
انتصاره على الشقى ابن حفصون ، حين أخلف عليه الفقهاء
الذين اتبواه ؛ وسألوه أن يخرجوا رفات عمر بن حفصون
وابنه من جدتها ، فلم يستطع لكلامهم دداً ، وأذن لهم
 بذلك مضطراً ، فنبشوا أسلادها ، وبعشوا بها إلى قرطبة

حيث صابت

عنایت الناصر بترییة ابنه الحکم

وقد وجه الناصر عنایة خاصة ، إلى ترییة ابنه الحکم الثاني ، أكبر أولاده ، وولى عهده من بعده ، ولم يدخل وسعاً في تهدیبه واختیار صفوہ من أدباء ذلك العصر وعلمائے لثنتیفہ ، حتى انه استدعی أبا على القالی من بغداد لذلك ، فبلغ الحکم في الرقی الفكري شأوا بعيد المدى

منافسة أخيه

وكان له أخ اسمه عبدالله ، وكان لا يقل عنه كثيراً ، في الفروسيّة والعلم والادب وسعة المدارك ، والتعمق في دراسة الفقه والفلسفة والتاريخ وعلم الهيئة ، وما استدلوا به على عالمه ألف بنفسه تاریخاً للعباسین .

* * *

وكانت حوله بطانة سوء ، فأغرته بالعمل في الخفاء على انتزاع الملك من أخيه ، ولی العهد ، وكان أكبر مشجع له على ذلك فقيه ما كر اسمه احمد بن عبد البر ، كان يطمح

إلى الحصول على منصب قاضي قضاء إسبانيا إذا نجح سعيه
قالوا : وكانت أعز حميم للأمير عبد الله ، رجل ذو
قدرة خارقة للعادة يعرف بابن عبدالبر ، وكان يلازم الأمير
ملازمة شديدة ، حتى قيل أنه لم يفارقه قط ، فكان يصاحبـه
في غدواته وروحاته ، ويندر أن يرى عبد الله بغيره ، وكان
هذا الرجل يكتـم في صدره مطامع وأغراضـاً ، فكان يصانعـه
من فوقه ، ويعتـو على من دونه ، ويختـفـى تحت ثيابـ تنبـيـهـهـ
عن الحشمة والوقار ، نفسـاً خبيثـةـ ذات مـكـر ودهـاءـ ، وعزمـ
اـكـيدـ علىـ الـقـيـامـ بـعـطـالـبـهاـ الـخـفـيـةـ ، خـدـعـ الـأـمـيرـ عـبدـ اللهـ ، وـالـقـيـ
فـ روـعـهـ أـنـ أـشـرـافـ قـرـطـبـةـ وـالـاقـالـيمـ يـقـدـرـونـ لـهـ مـيزـاتـهـ
الـكـثـيرـةـ عـلـىـ أـخـيـهـ الـحـكـمـ ، وـيـسـاعـدـونـ عـلـىـ الـخـلـاصـ منـ
ظـلـمـ أـيـهـ مـتـىـ هـمـ بـالـمـناـوـأـةـ ، وـشـرـعـ فـيـ اـسـتـرـدـادـ حـقـهـ الـغـتـصـبـ
فـ زـعـمـهـ ، وـأـمـعـنـ فـيـ التـغـرـيرـ بـهـ فـأـوـهـهـ أـنـ ذـلـكـ الـعـمـلـ نـاجـجـ
وـأـنـ الـوـسـيـلـةـ الـوـحـيـدـةـ لـسـعـادـتـهـ وـخـيـرـهـ وـأـنـ بـذـلـكـ يـضـطـرـ
أـبـاهـ إـلـىـ تـسـلـيمـ الـعـرـشـ إـلـيـهـ

فشل المؤامرة

فأنجذع بذلك عبد الله ، وتمت المؤامرة على قتل الحكم
وحددوا لتنفيذ ذلك ، يوم عيد الأضحى الذي قرب ميعاده
ولكن أمرهم لم يلبث أن انقضى ، فقبض عليهم
الناصر ، ووقف على نوایاهم ، وامر بالفقيه الخادع الشیخ ابن
عبد البر فسجين ، وحكم عليه بالاعدام ، وجعل انقاذه
في يوم عيد الأضحى أي اليوم الذي كان موعد تنفيذ جريمته
ليقتضي منه على فعلته الشفاعة ، ولكن ابن عبد البر قتل
نفسه في السجن في ليلة ذلك اليوم ، لما علم بذلك ، وقال :
” يدی لا يید عمرو ” ، وكان ذلك في سنة ٣٣٨

وطلب الحكم العفو عن أخيه فلم يقبل الناصر ذلك
 وأنفذ فيه العدل مقتدياً الخليفة العادل عمر بن الخطاب ،
ومما ينسى الأمير عبد الله من عفو أخيه ، انتحر في سجنه
كذلك ، ودفن في اليوم التالي

مثلاً من شعر الناصر

— ١ —

ولعل أبدع ما رأيناه من شعره قوله :

لا يضر الصغير حدثان سن إِنَّا الشَّأْنَ فِي سَعْوَدِ الصَّغِيرِ
كم مقيم فازت يداه بغم لم تنه بالركض كف مغير

— ٢ —

وقوله ، وهو تحليل نفسي :

ما كل شئ فقدت إلا عوضني الله منه شيئاً
إني اذا ما منعت خيري تباعد الخير من يديها
من كان لي نعمة عليه فانها نعمة عليها

الحكم الثاني^(١)

٣٦٦ - ٣٥٠

لم يل حكم الانداس أهير عالم كهذا الامير من قبل ،
وان اسلافه - على ارتفاع مواهيبهم العاملية ، وعلى ما كان فيهم
من الرغبة في إغناء مكتابتهم - لم يصل بهم الشغف باقتناة
الكتب النادرة النفيسة الى هذا الحد الذي وصل اليه هيات

الحكم

ففي القاهرة وبغداد ، وفي دمشق والاسكندرية ،
كان له عملاه ، مكلفوون بنسخ الكتب الحديثة والقديمة
وشرائها له ، بالغا ما بلغ ثمنها ، حتى امتلاها فصره واصبح
محضعا لا تقاد تقع العين فيه على غير العاملين من نساخي
الكتب ومغلفيها^(٢) وقد بلغ فهرست مكتبة وحدة

(١) معربة عن كتاب تاريخ مسلمي اسبانيا الدوزي

(٢) قال ابن خلدون : « وجمع في داره الحذاق في صناعة
النسخ ، والمهرة في الضبط والاجادة في التجلييد ، فأُوفى في ذلك كله

اربعاً واربعين كراسة^(١) تراوح اوراق الواحدة منها بين
العشرين والخمسين، ولم يكن بها غير اسماء الكتب وحدتها
دون أن تتناول وصفها أو شرح شيء من محتواها
ويقول بعض المؤرخين ان عدد الكتب باع اربعائة
الف كتاب قرأها الحكم كلها، ولم يقتصر على ذلك بل عاتق
على اكثريها، فكان يكتب على اول الكتاب او آخره
اسم المؤلف ولقبه وجنسيته وقبيلته وتاريخ ميلاده ويوم

واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحده من
قبله ولا من بعده ، الا ما يذكر عن الناصر العبامي بن المستضي
ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى أن يبيع اكثريها في
حصار البربر »

(١) قالوا : « وكان محبًا للعلوم مكرماً لها ، جماعة للكتب
في انواعها ، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله »
وقد روى محمد بن حزم : « ان عدد الفهارس التي فيها
تسمية الكتب ٤٤ فهرسة ، وفي كل فهرسة عشرون ورقة ،
ليس فيها الا أسماء الدواوين لا غير
فأقام العلم والعلماء سوقاً نافقة جلبت اليها بضائعه من كل
مكان »

وفاته وما يعزى اليه من الطرف والنواودر^(١) وكانت

تعلمية قاته ثمينة

وكان الحكم لا يجاري في تاريخ الأدب ، وكانت
مذكرةاته ذات خطر بين علماء الانداس ، وقد لاقت

دواجاً عظيمها

وكثيراً ما كانت تنتهي اليه مؤلفات الفرس وسوريا
قبل أن يقرأها أحد في الشرق

ولم يكدر يبالغه أن أبا الفرج الاصفهاني ، عالم العراق ،
يشتغل بوضع مذكرةات عن شعراء العرب ومعنىهم ، حتى

(١) قالوا : « وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي
بذا لا فيها ما أمكن من الأموال حتى صافت عنها خزائنه ، وكان
ذاغرام بها ، قد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ،
ودق نظره وجد استفادته ، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار
والأنساب أحوذيا نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله »

قال ابن الأبار . « وقلما وجد كتاب من خزائنه الا وله
فيه قراءة او نظر في اى فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف
ومولده ووفاته ، ويأتي من بعد ذلك بغرايب لا تكاد توجد الا
عنده ، لعماناته بهذا الشأن »

ارسل اليه ألف قطعة من الذهب ، راجيا إياه أن يبعث اليه
بنسخة من كتابه ، عقب فراغه من تأليفه ^(١)

ومن ثم امتلاً قلب أبي الفرج الاصفهاني شكرًا
وعرفاً ناصيًّا له ، وأسرع في تابية رغبته ، فارسل اليه نسخة
مضبوطة ، شفهها بـ هدية عدد فيها ما ثر الأُمير ، ومؤلف
في أنساب الامويين ، وتلك هدية جديدة نال جزاءها

* * *

وجلة القول أن نعم الحكم على العلامة ، من أ جانب
وطنيين ، لم تقف عند حد ، فازد حم بهم بلاطه ، وقد شجعهم
وشملهم جميعا بمحابيته ، ومنهم الفلاسفة الذين استطاعوا بفضل

(١) قال ابن خلدون : « وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار
رجالا من التجار ، وإسراب إليهم الأموال اشرائهما ، حتى جلب
منها إلى الاندلس ما لم يتم مدوه ، وبعث في كتاب الأغاني إلى
مصنفه أبي الفرج الاصفهاني ، وكان نسبه في بني أمية ، وأرسل
إليه فيه ألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخة منه قبل
أن يخرجه بالعراق

وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأَبْرَهِي الماليكي في شرح
لختصر ابن عبد الحكم ، وأمثال ذلك »

تلك الحماية أن يتفرغوا لفلاسفتهم غير خائفين عمن المتنطعين
في الدين

* *

ولقد أزهـر كل فرع من فروع العلم في عهد هذا الأمير
الـعالم ، فـتعددت المدارس الأولى المنتجـة ، وأصبحـ كل أهل
الـاندـاس تـقريباً يـقرؤـون ويـكتـبون ، على حـينـ كانتـ أـرفعـ
الـطبقـاتـ فيـ أـورـوباـ المسيـحـيـةـ جـاهـلـةـ ، اذاـ اـسـتـشـنـيـمـاـ رـجـالـ

الـكـهـنـوـتـ

وعـنـيـ بـقـدـرـ يـسـ عـلـمـ النـحـوـ وـالـبـيـانـ فـيـ الـمـارـسـ ، وـكـانـ
الـحـكـمـ بـعـدـ كـلـ ذـلـكـ يـرـىـ أـنـ الـعـلـمـ لـمـ يـبـلـغـ الـدـرـجـةـ الـقـيـ يـصـبـوـ
إـلـيـهـ مـنـ الـذـيـوـعـ وـالـأـنـتـشـارـ ، فـدـفـعـتـهـ عـنـيـتـهـ بـهـذـبـ الـطـبـقـاتـ
الـفـقـيرـةـ إـلـىـ اـشـاءـ سـبـعـ وـعـشـرـ يـوـنـ مـدـرـسـةـ فـ، الـعـاصـمـةـ كـانـ
يـنـفـقـ عـلـىـ مـعـلـمـيـهـ ، وـيـتـلقـىـ فـيـهـ الـفـقـراءـ دـرـوـسـ التـرـيـيـةـ
وـالـتـهـذـبـ بـغـيـرـ أـجـرـ. ١٠٥

حرب الحكم

لما مات الناصر، وتولى الخلافة بعده ولـى عهـدـهـ الحـكـمـ طـمعـ الجـلاـفةـ فـيـهـ أـوـلـ حـكـمـهـ، وـلـكـنـهـ أـسـرـعـ بـغـزوـتـهـ وـقـعـهـمـ، فـقـبـعـواـ مـسـتـذـلـينـ، ثـمـ عـظـمـتـ فـتوـحـاتـ الحـكـمـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ النـواـحـىـ، وـكـثـرـتـ غـنـاءـهـ فـيـهاـ مـنـ الـأـمـوـالـ وـالـسـلاحـ وـالـأـقـوـاتـ وـالـأـنـاثـ

وـفـيـ سـنـةـ ٣٥٤ـ حـارـبـ المـجـوسـ الـمـعـتـدـينـ وـقـهـرـهـمـ وـنـالتـ مـنـهـمـ عـسـاـكـرـهـ فـيـ كـلـ جـهـةـ مـنـ السـاحـلـ، وـمـاـ سـاعـدـهـ عـلـىـ الحـافـظـةـ عـلـىـ مـلـكـهـ، اـنـقـاسـامـ اـمـرـاءـ النـصـارـىـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ، وـقـدـ وـاصـلـ الـعـمـلـ عـلـىـ اـتـسـاعـ مـلـكـهـ فـنـجـحـ وـبـثـ دـعـوـتـهـ فـيـ الـمـفـرـبـ الـأـقـصـىـ وـالـأـوـسـطـ فـنـجـحـتـ وـزـاحـمـتـ دـعـوـةـ الشـيـعـةـ^(١)

(١) قال ابن خلدون : « فأوطا العساكر أرض العدوة ، بن المغرب الأقصى والأوسط ، وتلقى دعوته ملوك زنانه ومغارواة ومكانسة فيبيها في أهملهم وخطبوا بها على منابرهم ، وزاجروا بها دعوة الشيعة فيما يليهم ، ووفد عليه ملوكهم فأجلل صلحهم وأكرم وقادتهم »

تشدد في حمار بـة الخمر

وقد بذل وسعه في ابطال الخمر في مملكته ، وكان قد وصل به بغضها إلى حد أن هم باستئصال شجر العنب من الاندلس ، فلم ينث عن عزمه الا بعد أن أخبروه أن الخمر قد تعصر من غير العنب كذلك

مثالان من شعره

ونكتفى من شعره بالمتاليين التاليين ، فأولهما قوله :
 الى الله اشكو من شمائل متوف
 على ظلوم لا يدين بما دنت
 نأت عنه داري فاستزاد صدوده
 واني على وجدى القديم كما كنت
 ولو كنت أدرى أن شوقى بالغ
 من الوجود ما بلغته لم اكن بذلت

و ثانية لها قوله :

عجبت وقد ودعها كيف لم أمت
وكيف انتهت بعد الوداع بدئ معى
فيما مقلاتي العبرى عليها اسكنى دما
ويا كبدى الحرى عليها تقطعى

المؤشّات في الأندلس

وأما أهل الأندلس فاما كثُر الشعر في قطْرِهِ
وتهذب مناخيه وفنونه وبلغ التَّنْمِيق فيهِ الغَايَةِ . اسْتَحْدَث
الْمُتَّخِرُونَ مِنْهُمْ فَنَاسَمُوهُ بِالْمُوْشَحِ ، يَنْظُمُونَهُ أَسْمَاطًا أَسْمَاطًا .
وأَغْصَانًا أَغْصَانًا ، وَيَكْثُرُونَ مِنْهَا وَمِنْ أَعْارِيْضِهَا الْمُخْتَلِفَةِ
وَيُسْمُونَ الْمُتَعَدِّدَ مِنْهَا بِيَتًا وَاحِدًا ، وَيَلْتَزِمُونَ عِنْدَ قُوَافِ تِلْكَ
الْأَغْصَانِ ، مِنْ تَالِيَّاتِ كُلِّيَّاتِهِ بَعْدَ إِلَى آخِرِ الْقُطْعَةِ ، وَأَكْثَرُ مَا تَنْتَهِي
عِنْدَهُ إِلَى سَبْعَةِ أَبْيَاتٍ . وَيَشْتَمِلُ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى أَغْصَانٍ
عَدْدُهَا بِحَسْبِ الْأَغْرِاضِ وَالْمَذَاهِبِ ، وَيُنْسِبُونَ فِيهَا وَيُمْدِحُونَ
كَمَا يَفْعُلُ فِي الْفَصَائِدِ ، وَيَجْاوزُوا فِي ذَلِكَ إِلَى الغَايَةِ ، وَاسْتَظْرَفُهُ
النَّاسُ جَمْلَةً ، الْخَاصَّةُ وَالْكَافَّةُ ، لِسُوْلَةِ تَنَاوِلِهِ وَقُرْبِ طَرِيقِهِ
وَكَانَ الْخَرْجُ لَهُ بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ ، مَقْدِمُ بْنُ مَعَاوِرَ
الْفَرِبِيِّ ، مِنْ شُعُّرِاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ الْمَرْوَانِيِّ^(١)
وَأَخْذَ ذَلِكَ عَنْهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ^(٢) صَاحِبُ
كِتَابِ الْعَقْدِ ، وَلَمْ يَظْهُرْ لَهُمَا مَعَ الْمُتَّخِرِينَ ذِكْرٌ ، وَكَسَدَتْ

(١) ارجع الى ترجمته في ص (١٨٣) (٢) كان معاصرَ الـناصر

موشحاتها ، فـ كان اول من برع في هذا الشأن ، عبادة ابن القزاز شاعر المتعهم بن صمادح^(١) صاحب المرية^(٢) ١٩٠

* * *

ونحن نختار لحضراتكم بعض أمثلة من أعلى نماذج المoshحات ، مختزلاً بالقليل ، لثقةنا أن أغلب حضراتكم قد اطّلعوا على الكثير منها :

نماذج من المoshحات

فمن أحسن النماذج التي نختارها مoshحة لسان الدين ابن الخطيب المشهورة^(٣) ، وهي قوله :

جادك الغيث اذا الغيث همي	يا زمان الوصل بالانداس
لم يكن وصلك الا حلاما	في الكري او خلسة المختلس

* * *

اذ يقود الدهر اسباب المني	تنقل الخطوط على ما نرسم
زمرة بين فرادى وثنى	مثل ما يدعوا الوفود الموس
والحبا قد جمل الروض سنى	فسنا الا زهار فيه يرسم

(١) كان معاصرأ للمعتمد (٢) مقدمة ابن خلدون

(٣) وقد عارض بها مoshحة ابن سهل

كيف يروي مالك عن انس
يزدهى منه بأبهى ملبس

ودوى النعمان عن ماء السما
فسكساه الحسن ثواباً معلماً

بالدجى ، لولا شمود القدر
مستقيم السير سعد الازر
انه مرأة كالمح البصر
هجم الصبح هجوم الحرس
أثرت فيما عيون النرجس

في ليالى كتمت سر الموى
مال نجم الكأس فيها وهو
وطر ما فيه من عيب ، سوى
حين لذ النوم منا ، أو كما
غارت الشهب بنا ، أو ربها

فيكون الروض قد كن (١) فيه
أمنت من مكره ما نتقيه
وخلال كل خليل بأخيه
يكتسى من غيظه ما يكتسى
يسرق السمع بأذني فرس

أى شيء لا مرى وقد خلصا
نهب الازهار فيه الفرضا
فإذا الماء تزاجى والحسنا
تبصر الود غيور ندما
وتوى الآس ليياوها

يا أهيل الحمى من وادى الغفى
وبقابي سكن أنتم به

وبيافها

ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا
 فأعيدوا عهداً نس قد مضى
 تنقدوا عاذنكم من كربه
 واتقوا الله، وأحيوا مغراً ما
 حبس القلب عليهـ لكم كرماً
 أفترضون عفاءً الحبس؟

* * *

وبقاي فيكم مقترب
 قر أطلع منه المغرب
 شقوة المغربيه، وهو سعيد
 قد تساوى محسناً أو مذنب
 ساحر المقلة، ممسول الامر
 سدد السهم وسي ورمي
 بفؤادي نهية المفترس
 ولعل أبدع ما في هذا الموشح قوله بعد ذلك :

ان يكن جار و خاب الامل
 و فؤاد الصب بالشوق يذوب
 فهو للنفس حبيب أول
 ليس في الحب لمحب ذنوب
 أمره معتمل ممتنع
 في صنوع قد براها و قلوب

حِكْمَ الْاحْظَى بِهَا فَاحْتَمَكَ
 لَمْ يُرَاقِبْ فِي ضَعَافِ الْأَنْفُسِ
 يَنْصُفْ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَلَمَ
 وَيُجَازِي الْبَرَّ مِنْهَا وَالْمُسَى

* * *

وَقَدْ أَبْدَعَ ابْوَ بَكْرَ الْأَيْضَنَ الْوَشَاحَ فِي قَوْلِهِ مِنْ
 مَا تَذَلَّ شَرَبَ رَاحَ عَلَى دِيَاضِ الْأَفَاحِ
 لَوْلَا هَضَبَمِ الْوَشَاحِ إِذَا أَسَى فِي الصَّبَاحِ
 أَوْ فِي الْأَصِيلِ أَضْحَى يَقُولُ
 مَا لَلَّا شَمَّولٌ ؟ لَطَمَتْ خَدَى
 وَلَلَّا شَمَّالٌ هَبَتْ فَالٌ
 غَصَنٌ اعْتِدَالٌ صَنَمٌ بَرْدِي
 مَا أَبَادَ الْقُلُوبَ يَشَى لَمَّا مَسْتَرِيَّا
 يَا لَحْظَهُ رَدَ ثُوَبَا وَيَا لَمَاهَ الشَّنَنِيَّا
 بَرَدٌ غَلِيلٌ صَبٌ عَلِيلٌ
 لَا يَسْتَحِيَّلٌ فِيهِ عَزْ عَهْدٌ

ومن أبدع موشحات عبادة ، الفراز ، هو شحنته التي

فيها قوله :

لا جـرم من لـها قد عـشـقا قد حـرم !

ومـا لا بـأس باختـيـارـه من المـوشـحـات ، قول القـامـسـانـي

من موشحة له :

يا مـذـيـبا مـهـجـتـى كـمـدا فـقـتـ فى الـحـسـنـ الـبـدـورـ مـدـى
يا كـحـيـلا كـلـه اـعـتـمـدا عـجـيـبا ان تـبـرـىـءـ الرـمـدـا
وـبـسـقـمـ النـاظـرـينـ كـسـى جـفـنـكـ السـجـارـ وـانـكـسـرـا
وـقـولـ الشـيـخـ أـثـيرـ الدـيـنـ أـبـيـ حـيـانـ ، من موشحة له :

إنـ كانـ لـيلـ دـاجـ وـخـانـناـ الـاصـبـاحـ
فـنـورـهـاـ الـوـهـاجـ يـغـيـىـ عنـ الـمـصـبـاحـ

سـلاـفةـ تـبـدوـ كالـكـوـكـبـ الـأـزـهـرـ
مـزاـجـهـاـ شـهـدـ وـعـرـفـهـاـ عـنـبرـ
وـحـبـذـاـ الـورـدـ مـنـهـاـ وـانـ أـسـكـرـ

وـفـيهـاـ يـقـولـ فيـ وـصـفـ حـبـيـبـهـ
بـلـحـظـهـ الـمـرـهـفـ يـسـطـوـ عـلـىـ الـأـسـدـ

كسطوة الحجاج في الناس والسفاح
فما ترى من ناج من لحظه السفاح الخ
وقول بعضهم :

هل يصح الأمان من شبيه البدر ؟
وهو مثل الزمان من ثم للغدر ؟
وهي معاصرة الموشحة التي اولها :

ضاحك عن جهان سافر عن بدر
ضاق عن الزمان وحواه صدرى

ومن موشحات ابن بقى قوله :
ما ردنى لابس ثوب الصنادارس
الآخر

في غصون مائس شعاعه عاكس
ضوء البصر الخ
وقوله أيضاً :

خذ حديث الشوق عن نفسى
وعن الدمع الذى همما

* * *

ما ترى شوق قد وفدا
وهما دمعي واطردا
واغتدى قابي عليك سدى ؟

* * *

آه من ماء ومن قبس
بین طرفی والحسنا جما :

* * *

بأبی دیم اذا سفرا
اطلعت از راره قرا
فاحدروه کلما نظرا
فبالحاظ الجفون قسی

* * *

أنا منها ببعض من صرعا الخ

ومن اختاره من موشحة أبي الحسن المريني الجميلة قوله :
في نغمة العود والسلافة والروض والنهر والنديم
أطال من لامني خلافه فظل في نصحه مليم

* * *

دُعْنِي عَلَى مَهْجِ التَّصَبَّابِ
وَلَا نَطَّلَ فِي الْمَنِي عَتَابِ
لَا تَرْجِعْ رَدِي إِلَى صَوَابِ

والفنون يهدى لنا انعطافه اذا هفا فوقه النسم
والروض أهدى لنا قطافه واختال في برده الرقيم
الى ان يقول :

الله عصر لنا تقضي بالسد^(١) والمنبر البهيج

(١) السد هو من متنزهات قرطبة ، وقد اكتشـف شعراً الاندلـسـ من ذـكرـهـ فيـ اـشـعـارـهـ ، وـمـنـ أـبـدـعـ مـاـرـأـيـاهـ لـهـمـ فـيـ ذـلـكـ ، قـوـلـ أـنـيـ شـهـابـ المـالـقـيـ ، يـصـفـ يـوـمـ رـاحـةـ هـذـاـ السـدـ :

ویوم لنا بالسـد، لو رد عیشه

بِعِيشَةُ أَيَّامُ الزَّمَانِ، رَدْنَاهُ

بـكـرـنـالـه ، وـالـشـمـسـ فـيـ خـدـرـ شـرقـهـا

إلى أن أجابت، أذ دعا الغرب دعواه

قطعناء شدوا، واغتباقاً ونشوة

ورجم حديث، لو رقي الميت أحياه !

على منه له من منه تبتغي المني

فَلَمَّا مَا أَحْلَى وَأَبْدَعَ مِرَآهُ :

أُرْدِي ادكارى اليه فرضنا وشوقه داءً يزيج
فـ كم خلمنا عليه غمضًا ولاصبها مسرح أرج

* *

ورد أطّال المني ارتئافه حتى انقضى شربه الـ كريم
الله ما أسرع أحرافه وهكذا الدهر لا يديم :

شدتنا به الأرحا ، والفت نثارها

علينا ، فأضغينا له وقبنناه

لئن بان ، اذا بالآنين لفقدنه

وبالدموع في اثر الفراق حـ كـ يـ زـ اـ هـ

(١) والارحا هي السد الذي يعذنه الشاعر

— ٢ —

مجالس الادب والغناء

وأثرها في الشعر

(قال حضرة الدكتور ضيف ، في احدى محاضراته : « وقد أثرت تلك المجالس في الاندساس تأثيراً عظيماً في المعانى الشعرية ، بسبب ما أوجده من التنافس الشديد بين الشعراء والأدباء ، ولكن الغناء كان قاصراً على تلحين بضعة أشعار عربية مما قاله الشعراء المعاصرون أو المتقدمون ، بل انهم كثيراً ما كانوا يتغذون ببعض ايات جاهلية أو أممية أو عباسية ، ولهذا السبب لم يتعد أثر الغناء زيادة انفاس قليلة لا تختلف كثيراً عن سابقاتها في الشرق ! »)

فالاستاذ يرى أن تلك المجالس أثرت في المعانى الشعرية فهذبها ولكنه يرى من الناحية الأخرى أنها لم تؤثر مطلقاً في طريقة نظم الشعر (أى في أوزانه وقوافيه) -

* * *

فاما أن تلك المجالس قد أثرت في المعانى الشعرية تأثيراً

عظيمها ووصلت بها إلى حد لم تكن تبلغه لولاتها، وأما أنها كانت سبباً في التناقض بين الشعراء والأدباء، مما كان له أكبر الأثر في تهذيب الشعر وابتكار المعانى الجديدة وادخال كثير من الأساليب الرشيقية فيه، فذلك ما لا يشك فيه أحد وحسبك آية على صدق ذلك ما نقله نيكلاسون عن الفزويين في كلامه عن مدينة شلب بالبرتغال - أن قاطنيها جميعاً إلا ماندر - كانوا يقرضون الشعر ويتعاونون الأدب فلو مررت بفلاح واقف وراء محركه وسألته أن ينشدك بضم أبيات لا جاب طلبتلك على الفور مترجملا في أي موضوع تطلب إليه الكلام فيه، وهذا بلا شك من أكبر نتائج تلك المجايس التي كان لها الفضل في الوصول بالبلاد إلى تلك المكانة العالية .

* * *

فأما أن أثر الغناء كان قاصراً على زيادة بعض أنغام خسب، وأما أن الغناء لم يكن له من أثر مطلقاً في طريقة نظم الشعر، وأما أن الغناء كان مجرد لهو وطرب يقصد به حرف الوقت، وأما أن الغناء لم يبعث الانداسيين إلى اختراع نوع جديد في الشعر يتضاءل بالقياس إليه ذلك الأثر الذي

أحد ثراه تلك المجالس في المعانى الشعرية - رغم ما ينطah من أهميتها - فذلك مانسسته يصح الاستاذ المذدر اذا خالفنها فيه وأظهرنا لحضرته اننا نؤمن بعكسه تماماً.

(فإننا نعتقد أن أثر الغناء و مجالس الغناء في دني المعانى الشعرية و تهذيبها ، يتضاعل بجانب تحطيم اكبر قيد رزى به الشعر العربي ، وهو التقىد بمدة اوزان وقواف خاصه لا يتخطتها أحد ، ولا يجسر انسان على الاتقاض عليها ، بل ولا يؤذن له أن يفكر في ذلك - فلما شاع الغناء في الاندلس وافت اهلها في التلاحين والغناء ، استطاعوا ان يرفعوا عن عانفهم ذلك النير التقىل الذى سببه التقليد ، وثم اهتدوا الى اختراع المؤشحات - كما سنبين ذلك في حينه ونثبته بما نعد كافياً لاثباته ، من البراهين التي افتتحنا بصحتها - وليس يستطع أن يقدر اهمية هذا التطور الذى نشأ عن اختراع المؤشحات أو يتبيّن خطورته - الا من تبع الحركة النقدية عند العرب وعرف أن التقليد الاعمى كان رائدها في اغلب الاحداث وان شدة تقاليدهم في المحافظة على محاكاة من تقدمهم من العرب ونقيع أساليبهم في التفكير - قد وصلت الى حد

يدعو الى الحيرة - ولعل اكبر نكبة أصابت الشعر العربي
هي ذلك التقليد الذي سرى اليهم من اعتقادهم الفاسد بأن
الفضل كل الفضل للمتقدم وان العرب الجاهليين قد وصلوا
بـالـشـعـرـ الى درجة ليس بـمـدـهاـ غـاـيـةـ ، وـانـ هـمـ الشـاعـرـ مـنـهـمـ
يـجـبـ أنـ تـنـحـصـرـ فـىـ الـأـنـيـانـ بـشـعـرـ يـحـاـيـ اـشـعـارـهـمـ الـتـىـ انـخـذـوـهـاـ
عـاذـجـ عـالـيـةـ باـغـتـاـ أـعـلـىـ درـجـاتـ الـكـمالـ وـتـسـامـتـ عنـ مـنـتـاـولـ
الـنـقـدـ وـلـوـشـئـاـ الاـفـاضـةـ فـىـ هـذـهـ النـقـطـةـ ، الـتـىـ نـرـاـهـاـ مـنـ اـلـزـمـ
الـاـوـازـمـ لـاـيـفـاءـ ، وـضـوـعـنـاءـ لـفـلـمـاـ وـاـكـنـاـ نـكـفـىـ بـنـظـارـ دـاجـالـيـةـ
سـرـيـعـةـ ، لـفـتـبـيـنـ مـنـهـاـ الـحـدـ الـذـىـ وـصـلـ اـلـيـهـ تـعـنـتـ الـنـقـادـ وـتـضـيـيـعـهـمـ
عـلـىـ الـشـعـرـاءـ ، وـالـعـارـقـ الـتـىـ جـلـأـ الـيـمـاـ بـعـضـهـ مـنـ حـاـوـلـ التـجـدـيدـ
مـنـ الـشـعـرـاءـ ، فـاـذـاـ اـنـتـهـيـنـاـ مـنـ ذـلـكـ شـرـعـنـاـ فـىـ اـثـيـاتـ مـاـ طـالـبـهـ
مـنـ اـلـاسـتـادـ صـيـفـ ، وـهـوـ الـبـرهـنـةـ عـلـىـ اـنـ الـمـوـشـحـاتـ كـانـتـ
نـتـيـجـةـ الـغـنـاءـ ، ثـمـ نـخـتـمـ هـذـاـ الـفـضـلـ بـكـلـامـ جـامـعـةـ نـقـطـافـهـاـ
لـلـهـلـامـهـ اـبـنـ خـلـدـونـ تـعـدـ بـمـتـابـهـ قـادـيـخـ وـجـزـ لـالـغـنـاءـ ، حـتـىـ يـسـمـيـ
عـلـيـهـاـ اـنـ تـلـمـ بـصـورـةـ وـاـضـحـةـ لـحـتـوـيـاتـ هـذـاـ الـفـضـلـ

— ٣ —

تعنت النقاد

ان من يتبع الحركة النقدية عند العرب يجد ها كانت غالباً - ان لم نقل دائماً - ترمي الى التحكم في اذواق الشعراء ووضع قوانين صارمة وقيود شديدة كانت السبب الاكبر في الوقوف بالشعر العربي، وهو في بدايته ، عند الغاية التي وصل اليها العرب الاصدقة - ولقد استبد فقهاء النقاد بأذواق الشعراء فأبوا عليهم أن يخرجوا على أوضاع من سبقهم، وبلغ من تهوس بعضهم أنه حاول حصر أبواب الشعر - ووضع قواعد وقوانين للغزل والحماس والهجاء، إلى آخر ذلك من التعنت الشديد الذي ساقهم إليه تغاليهم في تقليد المقدمين ولن يست أغلب العيوب التي عدوها من أكبر نقائص النظم - إلا حررا من ذلك السجن الضيق الذي حصرهم فيه جماعة النقاد الجامدين - وكان تلك الفترة التي شغلت العرب عن قول الشعر - في عصر ابتداء الاسلام - لأنشغلهم بما هو أعظم من الشعر ، كانت أساساً لذلك التقليد الذي بدأ منذ ذلك الحين، عقب انتهاء تلك المشاغل ، وأخذ ينمو ويزداد حتى

بلغ أشده في العصور المتأخرة

على أن كل زمن لا يخلو من نفوس حرة مفتقدة على
القيود فلا عجب إذن أن نرى في تلك العصور افذاذا قلائل
جداً - حاولوا الخروج على التقاليد القديمة في الشعر ، بكل
وسيلة ممكنة - ومن جملة الوسائل التي جاؤها الكثيرون
منهم نسبة القصائد والمقطوعات إلى من سبقوهم . فقد كان
أحدهم ينحدل الأسائل - بعض الأوضاع^(١) التي يخترعها -
وبذلك يأمن اعتراف النقاد الذين كان يكفيهم للبرهنة على
صححة الشيء ، أن يستشهدوا بهنل واحد من شعر الجاهليين -
وكأنى بأحدهم وقد مل الطريقة العتيقة التي اتبعت في نظم
الشعر ، فحاول ادخال تحوير قليل في أوضاعها ، فلم تساعد له
روح العصر على تقبيله - ووقف جود النقاد حائلاً بينه وبين
افراد ما جاء به - فلنجأ إلى كبار من شعراء الجاهليين هو

(١) وكانوا كثيراً ما ينحدلون الأسائل أبياناً من الشعر بقصد
نأيده قاعدة نحوية جديدة رغبة في التخاص من عن特 ذمة
النحو - وربما جاؤ بعضهم إلى هذه الطريقة ليظهر بهنل الملم
بعدد كبير من قصائد الجاهليين

أمرؤ القيس، فنجله الاً يباب التالية، واطلق عليها اسم الشعر
المسمط، وادعى أنه عثر بها عرضاً، وهي
توهمت من هند معلم اطلال
عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي

مربع من هند خلت ومصائب
يصبح بعثتها صدئي وعوازف
وغيرها هوج الرياح المواصف
وكل مساف ثم آخر رادف
بأحجام من نوء السما كين هطال

وهذه أبيات لا يتردد انسان له ذوق أدبي في أن
يشك في نسبة لها لامرئ القيس على الأقل - بل ربما جزم
بانها ليست له وهو ما نذهب إليه، اظهور الصنعة والتتكلف
فيها وبعدها الشديد عن أسلوبه الذي كاد ينماز به عن سواه

من الشعراء^(١)

(١) وقد ذكر المعري في رسالة الغفران (ج ١ ص ١٠٩) مخالفة متحدة بين امرئ القيس وبين القارح، تنص على
فيها لا أول من نسبة تسيبط آخر دمه دليلاً بعض

وربما جأ بعضهم الى الغناء فاستعان بسلطانه القاهر
على النفوس، واتخذ من النغم الساحر عونا له على ادخال تحوير
آخر في نظم الشعر - رغم أنف الوفاق الجامدين - ومن هذه
الفئة سلم الخاسر المغنی النابه، حين قال في مدح موسى المدادي

موسى الطير غبت بكر

تم انصر المارد

اعتصم ایامسر

وكم قدر ثم غفر

عدل السير باق الآخر

خ-ير وشر نفع وضر

خير البشر فرع مصر

الرواية، وقد جاء فيه:

يَا قَوْمَ اذْهَبُوا إِذَا أَصَابَ الْفَقْرَ

في الفلب، ثم ارتقى فهد بعض القوى

فقد هوی الرجل

بدر بدر والفتخار

لمن غير

* *

ويسمون هذا النوع من الشعر - المقطعم - وسمى كذلك لأنه مقطعلم من الرجز الذي قاله العرب وزنه كما تعلمون (مستفعلن مستفعلن مستفعلن)، ثم تفنن العرب القدماء فيه فاقتصر بعضهم على جزأين منها كقول دريد ابن الصمة يوم هوزان

ياليتني كفت جدع أخب فيها وأضع
فكان من الطبيعي أن يسير سلم الخاسر في هذه الطريق
إلى آخرها وأن يقتصر على جزء واحد من أجزاء الرجز الثلاثة
وهو «مستفعلن» ولكن النقاد كما قلنا لم يكونوا ميالين إلى
التجديف - منها كان طبيعيا - لذلك استعان سلم الخاسر على
ترويج هذا الوضع بقوة تأثير الغناء - ثم تبعه غيره فنظم
أرجوزة من هذا النوع، فقال :

طيف ألم بذى سلم بعد العتم يطوى الأكم الخ

* *

ولا يفوتنا أن نختم هذا الفصل بثل واحد من أمثلة
عديدة يعيينا استقصاؤها - للاستدلال على تنطع بعض
النقاد وتشبيهم بالقديم - وربما تبيّنتم منه السر في تأثير
الزمن الذي اخترعت فيه المؤشحات عن حينه بسبب
اضطهاد النقاد لـ كل فكره مستحدثه وعدم فهم الأكثريه
منهم للغرض الأساسي الذي يرجى اليه الشعر

ابن رشيق والتجديد - ٤ -

ابن رشيق والتجديد^(١)

فهن أدلة سخطهم على الجديد - لا سبب سوى جدته
وحدها - ما نورده على حضراتكم من قول ابن رشيق من
كلام طوبيل نقتطف لكم منه القطعة التالية :
— (« وقد رأيت جماعة يركبون المخمسات والمسمطات
ويكثرون منها

(١) ابن رشيق القيرواني

المتوفى سنة ٤٥٦ هـ

اميء الحسن ابن رشيق وكنيته أبو العباس، وموطنه القيروان
وأصل أبيه مملوك رومي من موالي الأزد كان صائغاً في بلدة
الحمدية، فعمره أبوه صنعته
شفف ابن رشيق بالآدب فرحل إلى القيروان واتصل بخدمة
صحابها، وعلا شأنه
ولما خربها العرب، انتقل إلى صقلية وأقام بجازار إلى أذمات
وهو مؤلف كتاب عمدة الذي يعد بحق من أنفس الكتب
العربية - وابن رشيق من أقرب النقاد إلى الاعتدال والحرية
وابعدهم عن التقليد

ولم أر متقدماً حاذقاً صنعاً شيئاً منها، لأنها دالة على عجز
الشاعر وقلة قوافيها وضيق عطنه
ما خلا أمراً فييس في الفصيدة التي نسبت إليه (١)
وما أصحح له)

* * *

أى والله! هكذا فلي يكن النقده الصائب! وهكذا فلي يكن
التفهّم والتشبّث بأذيال القدماء والبعد عن فهم الغاية السامية
التي خلق الشعر من أجلها! لم ير ابن رشيق متقدماً صنعاً
شيئاً من الخمسات والمسهّفات . وهذا وحده سبب كافٍ
عندده للسخط عليها والحط من قيمتها والافتئام بعدم
صلاحيتها، فعيّبها كل عيّها في نظر هذا الناقد الفذ هو أن
الأوائل الفادرين الذين جعل الله النبوغ وصواب النظر
ووفور العقل وفقار عليهم - لم يخترعوا بشيء من هذه الأوضاع -
ولو أنهم سبقوا إلى اختراعها لحسنات ولما تردد ابن رشيق
في قبولها والإعتراف بعزاها الجليلة
وأغرب من ذلك أن هذا الناقد الكبير لا يستحق

(١) هي التي ذكرنا بعضها في (ص ٢٥١)

أن يصرح في كتابه أن من أكبـر أسباب سخطه على هذه
الأوصـاع الجميلة التي نعـدـها خطوة في سبيل رقـةـ الشـعـرـ
وـتـدرـجـهـ فيـ طـرـيقـ الـكـمالـ .ـ إنـهـ تـدلـ عـلـيـ عـجـزـ الشـاعـرـ وـقـلـةـ
قوـافـيهـ وـضـيقـ عـطـنـهـ !! !ـ اـذـنـ فـالـشـعـرـ فـيـ نـظـرـهـ هـوـ نـوـعـ
مـنـ المـبـاهـةـ وـالـقـتـدـارـ عـلـىـ صـيـدـ القـوـافـيـ الشـارـدـةـ .ـ وـلـيـسـ
مجـالـاـ لـشـرـحـ الـخـواـجـ (ـالـيـ بـيـدـهـاـ وـضـوـحاـ)ـ قـلـةـ الـقـيـودـ فـيـ
الـنـظـمـ ؟ـ وـاـلـكـنـ حـذـارـ اـنـ نـنـسـيـ أـنـ اـمـرـأـ الـقـيـسـ يـشـدـ
عـنـ هـذـهـ الـقـاعـدـةـ فـيـ نـظـرـ اـبـنـ رـشـيقـ وـاـضـرـابـهـ .ـ لـاـنـهـ يـرـتـابـ
فـيـ نـسـبـةـ تـلـكـ الـقـصـيـدـةـ اـلـيـهـ .ـ وـلـوـ أـنـهـ تـحـقـقـ مـنـ اـنـهـ قـاتـلـهـ
لـكـانـ لـهـ شـأـنـ آـخـرـ فـيـ اـسـتـحـسـانـهـاـ ،ـ وـلـمـ صـعـبـ عـلـيـهـ أـنـ يـتـامـسـ
فـيـهـ مـزـايـاـ أـخـرـىـ .ـ لـاـ يـصـعـبـ عـلـيـنـاـ أـنـ تـكـهـنـ بـهـاـ .ـ تـسـيـغـ لـهـ
قبـولـ هـذـاـ النـوـعـ

وـاـذـاـ وـصـلـ اـبـنـ رـشـيقـ إـلـيـ هـذـاـ الـحـدـ مـنـ التـنـطـعـ مـعـ
ما اـشـهـرـ بـهـ مـنـ التـبـحـرـ فـيـ النـقـدـ وـسـعـةـ الـاطـلـاعـ عـلـىـ كـلـامـ
الـعـربـ ،ـ وـمـعـ ما نـعـرـفـهـ مـنـ أـنـ اـبـاهـ مـلـوكـ روـمـيـ مـنـ موـالـيـ
الـازـدـ ،ـ وـهـوـ مـاـ يـجـعـلـهـ أـقـلـ مـنـ غـيـرـهـ تـعـصـيـاـ لـآـرـاءـ الـعـربـ
الـقـدـماءـ .ـ فـاـ ظـنـكـ بـالـحـدـ الذـيـ يـصـلـ إـلـيـهـ تـنـطـعـ سـوـاـهـ مـنـ

النقد الجامدين الذين وصل العمى ببعضهم الى حد أن
يسمع البيتين من الشعر فينطق اسانه بمدحها والثناء عليها -
ثم لا يكاد يسأل عن قاتلها فيجد لها الصاحب ، حتى ينتقض
على حكمه في الحال ، ولا يستحي أن يقول له : «أي والله
إن أثر التشكيف فيها اظاهر (١) »

(١) انظر الى شكوى ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٢٦) وهو من احرار نقاد المشارقة ونابغتهم ، ومن اساطير نقاد بغداد - من الطريقة القلبيدية التي يسير عليها نقاد العرب . قال : « فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشهور السخيف لتقديم قائله ويضمه موضع متاخره - ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه ورأى قائله - ولم يقهر الله الشعر والمعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم بل جعل الله كل قديم منهم حديثا في عصره وكل شريف خارجيأ في أوله فقد كان جرير والفرزدق والاخطل يهدون محدثين ، وكان أبو عمر بن العلاء يقول : « لفدت نبغ هذا الحديث وحسن ، حتى لقد همت بروايتها » ثم صار هو لاء قد ماء عنه - بعده العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم ما نبعنا كالخزبي والعتابي والحسن ابن هانئ

سلطان الغناء

وإذا وصل تعنت النقاد في الشرق الى هذا الحد،
وذكرنا ما يدناه من قبل في احدى المحاضرات السابقة من
اندفاع الاندلسيين في تقليد الشرقيين الذين أخذوا - هم
الآخرون - بلاغة العرب الأقدمين نوذجاً عاليًا لا يقبل
التحوير ولا يخضم لقانون النقد. فقد يسهل علينا اذا
استوعبنا ذلك أن نتصور بسهولة أن جمود النقاد في الاندلس
لم يكن ايقل عن جمود النقاد في الشرق، بل ربما زاد - وأذن
فكيف نعمل اختراع الموشحات في الاندلس مع ما يدناه
من تعنت النقاد؟ وكيف تقبلها الوسط الذي كان متآمراً
بأراء النقاد الجامدين؟

فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرنا له، وأندنا
عليه به، ولم يضمه عندنا تأثر ذاته ولا حداثة سنه كما ان
الرديء اذا ورد علينا المتقدم أو الناشر، لم يرفه عندنا
شرف صاحبه ولا تقدره ا.هـ

ان نظرة واحدة تلقي بها الى سلطان الفناء القاهر
الذى تفأب على تفوذ النقاد وتعتمد، فبها الجواب الصادق
عن هذا السؤال (١) فقد استعان الاندلسيون بسلطان الفناء
وقوة النغم الساحر على ارغام النقاد الجامدين على قبول تلك
الأنواع الجديدة التي طالما عارضوها بكل شدة)

* * *

رأيتم في احدى المحاضرات السابقة الى أى حد وصل
تقدیس الاندلسيين لزرباب الموسيقى وكيف أنهم رفعوه
إلى مكانة ليس بعدها زيادة لستزيد (١) حتى وصل :
إلى منزل يشتاقه كل سيد ويقص عن ادراكه المتناول
وقد استيقظنا من ذلك في حينه ، استيقظنا في مهمن ،
أحدها وهو اخاص بوضعه هذا الفصل ؛ هو شغف
الأندلسيين وافتئاتهم بالفناء الى حد لا ينالى اذا قلنا انه ربما
زاد على افتئان الغربيين به في هذه الأيام
ولا جرم ان نوع الانسان بالفناء أمر طبيعي لا يستطيع
أن يتخاص منه الا من اوى جبلا غير جبلا البشر ، بل إن

(١) ارجع الى ص (١١٣ - ١٢٠)

بعض الحيوانات يتأثر به كالجمل والمحصان مثلاً - بل زعم
بعض المتنزيين جداً من العلماء المعاصرين لنا في أمريكا أن
الجماد أيضاً قد يتأثر به . فإذا ما وجد الجماد راقباً من الملك
على هذا الفن وتنشيطه لذويه - فإنه بما فيه من حب طبيعى
للفناء ، وبما فيه من تقليد أعمى لما يحبذه الملك - حتى ولو كان
مخالفاً لطبيعته - يندفع في تحبيذه اندفاعاً لا مثيل له :

فإذا زدنا على ذلك ما كان بين الغرب والشرق من المنافسة
في كل شيء تقريباً ، ثم ذكرنا أيضاً أن زریاب كان تلميذ الاستاذ
الذابح اسماعیل الموصلی وان اسحق هذا قد رأى فيه منافساً
خطراً فهدده بالوعيد مرة وأغراه باللين أخرى ليغادر
الشرق إلى بلاد الاندلس - لما رأه من اقبال الخليفة العباسی
عليه ، فكان لذلك أكبر الأثر في نفس زریاب الطموحة ، فسعى
للتفوق على استاذه ، وساعدته الفرصة التي أناحت له منافسته
في بلاد الغرب . وإذا ذكرنا ما تلقى به زریاب من ضروب
التشجيع الذي لم يكن يحلم به من قبل ، ومن الهيمنة التامة
على الاذواق ، والتصرف في نفوس الناس كما يشاء - ثم أضفنا
إلى ذلك نبـوغه واستعداده العظيم للتفـوق في هذا

على كل معاصريه في الشرق والغرب - وذكرنا بجانب ذلك
ما في طبيعة الاندلسيين من حب الغناء بسبب موقع اقليمهم
النادر - نقول -

اذا وعينا كل هذه الاعتبارات لم نستغرب فقط ماوصل
اليه سلطان الغناء على النفوس في بلاد الاندلس - ولم يدهشنا
مانواه من انتشار مجالس الغناء في كل جهة من جهاتها حتى
أصبح شرف الفلاح به وهو وراء المحراث لا يقل عن واع
الامراء به بين الموالي والدساين

* * *

ومى أقررنا ذلك فقد أدركنا السر في تلاشى سلطة
النقاد الجامدين وضياع نفوذهم العظيم الذى طالما اخذهوه
وسيلة للاستبداد باذواق الشعراء، ولم نستغرب السبب فى
ضياع سلطانهم الذى تضاءل أمام سلطان الغناء الفاهر الذى
خضم الجميع لتأثيره حتى النقاد - ومن هنا يسمى علينا
ادراك السبب فى اختراع المؤشحات فى الاندلس

- ٦ -

أثر الغناء في الشعر

الغناء هو السبب الأول في اختراع الشعر

فلا عجب اذا كان هو السبب أيضاً في اختراع الموشحات :

* * *

يرى أكثر المؤرخين أن السبب الأول الذي دعا العرب إلى نظم الشعر هو حداوهم للأبل. قالوا: «وكما زال العربي يغنى انطرب ناقته، فيسهل عليهما قطع المفازات الشاسعة واجتياز المهام الترامية . وببدأ العرب بنظم عدة آيات قصيرة تتفق اعاراتها وانفاسها مع سير الأبل وحدائهما» واستدلوا على ذلك بعدة آيات يطابق توقيعها سير الأبل

وروى بعضهم أن السبب الأول في نظم الشعر هو أن مضر بن نزار بن محمد سقط عن بعيره فانكسرت يده فجمل يقول «ياداه . ياداه» وكان من أحسن الناس صوتاً . فاستوست الأبل وطاب لها السير - قيل : «ولملل الهزات الأربع المترابطة في سير الناقة ارشدته إلى ايقاع حداه على

اجزاء رباعية فكان من الحماء الرجز وهو أول بحور الشعر .
وما زالت الاوزان تترقى شيئاً فشيئاً »

و وربما صاغوا الشعر أولاً بعبارات قصيرة تحفظ
ونتناول على سبيل الْمِثَالِ الحكيمه ونحوها . والظاهر
أنهم قضوا أجيالاً والنظم عندهم على سبيل الْمِثَالِ . حتى
اتفق لبعضهم أن جمله شطرين مسجوعين في مثل واحد
أو مثلين متألفين فرأى في ذلك رذنه ، فترنم به ، وأخذه عنه
الناس وجعلوا يتغزونه في حدودهم وانشادهم وراء إبلهم ، والغناء
لسان طبيعى ، فاعجب بهم رنة القافية والوزن ، فزادوه شطراً
وشطرين أو أكثر على قافية واحدة ، وهو الرجز في أبسط
أحواله ، وظلوا دهراً طويلاً يقول شاعرهم من الرجز البدائيين
أو الثلاثة . اذا هاجت به قريحة الشعر لفاخرة أو مشائعة
أو منافرة . وكانوا كلما نبغ قيدهم نابغة أدخل في النظم
تحسيينا ^(١) ، حتى اذا جاء المهاهل قصد الفصائد وجاء بعده
امروء القيس فانتن فيها وأطاحها وبلغت نهضة العرب أشدتها
في الجاهليه في أيام مهلهل وابن اخته امرىء القيس . وقد

(١) تاريخ الحمدن الاسلامي ج (٣) ص (٢٣)

اهتدى بعض المستشرقين الى بعض ألغام العرب وشرحها
في محاضرة له، القاها في نادي الموسيقى - فيما سمعت - على ملا
من اباء مصر والفرنجية . وبين لهم طريقة انشاد العرب
للشعر وتغنيهم به . ثم تطرق الى الكلام على معلفة
امرأة القديس فصورها لاصحاصرين ، ثم أمر بها فغنتها على
دستايرها فئة من الموسيقيين أعدوها لهذا الغرض خاصة
ذلك ما رواه لي صديق أديب ، يجيد الفناء ويحسن
التوقيع . وقد أكمل أن جميع الحاضرين خرجوا مقتضعين
بأن ذلك النغم كان بلا ريب النغم الذي تغنى به امرأة القديس
وغيره من الجاهليين ل مشابهته التامة لداء الابل ومطابقته
لسيرها

وقد تمكن صديقي - لحسن الحظ - من ضبط ذلك
النغم وحفظه ، وأسمعنيه ، فأخذته عنه منذ ذلك الحين -
ولا أكذبكم يا سادة أنه نغم لا يملك الإنسان نفسه -
وقت سماعه - من الجزم بأنه لم يخلق إلا ليوقع على سير
الابل وحدائهما - وكثيراً ما تغنىت به لنفسي تخيل الي - دعم
رداءة صوتي - أني راكب جلا وانني أحدهم !

* * *

وبعد ، فـأى مـيـزة لـاـشـعـر عـلـى النـثـر إـلاـ مـيـزة الـموـسـيقـية
الـى يـحـدـهـا الـوـزـنـ . إـلاـ مـيـزة الـاتـسـاقـ الـذـى تـحـدـهـ الـقـافـيـةـ ؟
ولـإـلـاـ فـأـهـىـ الـفـائـدـةـ مـنـ وـجـودـ هـذـيـنـ الـقـيـدـيـنـ فـىـ الشـعـرـ ،
وـقـدـ تـعـامـونـ مـاـيـةـ طـلـبـاهـ مـنـ العـنـاءـ وـالـجـهـدـ ، وـمـاـ قـدـ
يـجـرـانـ إـلـيـهـ مـنـ تـحـوـيرـ بـعـضـ الـأـفـكـارـ إـلـيـ أـرـادـهـ الشـاعـرـ
أـوـبـتـرـ بـعـضـ الـمـعـانـىـ إـلـىـ رـامـ الـأـفـصـاحـ عـنـهـ . مـمـاـ لـيـزـبـهـ عـنـهـ
إـلـاـ عـرـفـانـ بـاـنـ النـغـمـ سـيـسـدـ ذـلـكـ الفـرـاغـ ، وـيـزـبـدـ عـلـىـ ذـلـكـ تـلـكـ
الـحـلـةـ الـبـدـيـعـةـ إـلـىـ يـفـرـغـهـ عـلـىـ الشـعـرـ . ذـلـكـ هـوـ مـاـ أـفـهـمـهـ
مـنـ وـجـودـ ذـلـكـ الـقـيـودـ الشـدـيـدـةـ فـىـ الشـعـرـ الـعـرـبـيـ . ذـلـكـ
الـقـيـودـ إـلـىـ بـدـأـ الـأـنـدـاسـيـمـوـنـ بـتـحـطـيمـ بـعـضـهـاـ . وـآنـ لـهـاـ
أـنـ تـحـطـمـ جـمـيـعـاـ وـآنـ تـلـقـىـ بـلـأـ رـجـمـةـ وـلـأـ شـفـقـةـ . وـأـىـ اـنـقـاعـ
لـلـأـنـسـانـ بـالـوـزـنـ وـالـقـافـيـةـ إـذـاـ كـانـ الـفـرـضـ هـوـ سـرـدـ الشـعـرـ
بـعـدـ ذـلـكـ كـمـ كـانـ سـرـدـ النـثـرـ ؟

الشكوى من القافية

قد يمترض علينا أحدهم بأن النثر المسلح قد اخترعه العرب من غير أذن يفكرون واحد منهم في أن يتغنى به . وهو اعتراض وجيه نقره على أهميته ، ولكننا نسألة أيضاً : « وما الفائدة من تسجيحه أذن ؟ أليس ذلك اسرافاً دعا إليه فضاء الوقت ؟ (١) »

(١) وقد حل صديقى الاستاذ سيد افندى ابراهيم هذا الاعتراض على أبسط وجه فقال « كان الباعد الاول الذى دعا العرب الى نظام الشعر هو الغناء (حداء الابل) وبعده من طوبل نهى ذلك الباعد واصبح الشعر معتبراً بنفسه دون نظر الى أصله ثم خطوا العرب خطوة اخرى فأنشأوا اكلاماً مقفى خالياً من الوزن وهو النثر المسلح ، وقد اكتفى الكهان من اصتماره - ولقد حاول بعض الشعراء فيما بعد أن يزيد قيوداً جديدة على الشعر غير القيود الأولى ، فالتزم فيه مالاً يلزم ومنهم ابو الملاء الذى تغلى في لزومياته في اتباع قيود منها النفس والزهاء بها . وهذا دليل على أن القيود الأولى التي كان الباعد إليها الغناء ، نسيت تماماً

على أن الشكوى من القافية عامة في أغلب العصور، وقد حاول بعض أفراده من العرب أن يتم رداً عليهم فلما حوا كثيراً في ترغيب الناس إلى ذلك - ومن ذا الذي يدرى إلى أي حد كانت تصل البلاغة العربية لو حطم ذلك القيد الثقيل (القافية) في ابتداء الدولة الاموية مثلاً؟ لا شك أن حدوث ذلك كان معناه فتح باب الرقي على مصراعيه وانفاسح الشعر العربي للاغراض المختلفة التي انفع لها اخوه الشعر الغربي في هذه الأيام . ولكن القافية وحدتها كانت من اكبر النكبات التي وقفت حائلاً دون رقى الشعر العربي إلى الحد الذي وصل إليه الشعر الغربي ، كما أنها كانت سبباً في انقراض الشعر القصي الطويل الذي نجده في لغات الغرب التي سلك أصحابها كل سبيل يؤدي إلى تسييل النظم - وهذا رأى يشاركتنا فيه الكثيرون من أحرار الفكررين وانا

واعتبرت من مستلزمات الشعر بعد أن زال السبب الذي كانت لازمة من أجله - والا فما هي فائدة في للتزام هذه القيود الثقيلة حتى في شعر الفلسفة والحكم؟ وهو في نظرنا تعليلاً وجيه لا تتردد كثيراً في قبولة

موردون هنا بعض ما قيل في هذا الصدد من السخط على القافية
قال الأديب البستاني من كلام طوبيل في مقدمة
الإيادة ص (١٠١) :

«رب من ترجو به دفع الأذى عنك يأتيك الأذى من قبله»
«فقد يأتي الضر من حيث يرجى النعم . فان اتساع»
«القوافي في الملغة العربية من جملة أسباب التضييق على»
«الشعراء . اذ مها طال الشاعر باعا فلا يأتي على عدد»
«معلوم من الأبيات حتى يكاد يستنزف القوافي السائحة».
«ولهذا كان من المستحيل نظم الالوف المؤلفة على قافية»
«واحدة . وهذا من جملة أسباب ضعف الشعر القصصي»
«في العربية، واذا فرضنا وجود قافية تتسم مثل هذا المجال»
«فالاذن تعل توالي النغمة الواحدة لا طيب الا لحان ا. هـ»

* * *

وقال الاستاذ العقاد في هذا الصدد ما نقتطف لكم
منه ما يلي :

«ولا مكان للريب في أن القيود الصناعية التي»
«أشرنا إليها ستجري عليها أحكام التغيير والتنقية فان

«أوزاننا وقوافينا أضيق من أن تنفسح لأغراض شاعر»
«تفتحت مغالق نفسه وقرأ الشعر الغربي فرأى كيف»
«ترحب أوزانهم بالآلات وأصيص المطولة والمقاصد المختلفة»
«وكيف تلين في أيديهم القوالب الشعرية فيود عونها»
«مala قدرة اشاعر عربي على وضعه في غير النثر . الایرى»
«القارىء كيف سهل على العامة نظم القصص المسماة»
«وللاحمن الضافية الصعبية في قوافهم المطلقة ؟ ولیت»
«شعرى بم يفضل الشعر العامي الشعر الفصيح الا بثيل»
«هذه المزية؟؟؟ الى أن قال «وما كانت العرب تذكر القافية»
«المرسلة ، فقد كان شعراؤهم يتتساهلون في التزام القافية»
كما في قول الشاعر :

الا هل ترى ان لم تكون أم مالك
بملأ يدى ان الكفاء قليل
رأى من دقيقته جفاء وغاظة
اذا قام يبتاع الفلوصن ذئب
فقال : «أفلأ واترك الرجل انى
بها كة والعاقبات تدور»

فَبِيَدِنَا هِيَشْرِي رَحْلَهُ قَالَ قَائِلٌ
لَمْنَ جَلَ رَخْوَ الْمَلَاطِ نَجِيبٌ
وَكَقُولُ غَيْرِهِ :

بَنَاتٍ وَطَاءَ عَلَى خَدِ الْأَلِيلِ لَا يَشْكُفُ عَمَلاً مَا أَنْقَبَ
وَقَوْلُ الْآخِرِ :

جَازِيَةٌ مِنْ صَنْبَةِ بْنِ أَدِ كَأْنَهَا فِي دَرْعِهِ الْمَنْعَطُ الْخَ
وَبَعْضُ هَذِهِ الْفَوَافِ ، كَمَا تَرَاهَا ، قَرِيبَةٌ مَخَارِجُ الرُّوِيِّ
وَبَعْضُهَا تَبَاعِدُ مَخَارِجُهُ . وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حَالَةٍ مِنَ الْبَدَاوِةِ
وَالْفَطْرَةِ لَا تَسْمَعُ لِفَيْرِ الشِّعْرِ الْغَنَائِيِّ بِالظَّهُورِ وَالْإِنْتَشَارِ
وَكَانُوا لَا يَمْانُونَ مَشَةَةً فِي صَوْغِ هَذِهِ الْأَشْعَارِ فِي قَوْلِهِمْ
فَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى اطْلَاقِ الْقَافِيَّةِ ، وَلَا سِيمَا فِي شِعْرٍ يَعْتَمِدُ فِي
قَائِرِهِ عَلَى رَتْهِ الْاوْسِيَّةِ ، وَجَاءَ الْمَرْوَضِيُّونَ فَمَدُوا ذَلِكَ
عَيْبًا وَسَمُوهُ نَارَةَ بِالْأَكْفَاءِ وَتَارَةَ بِالْأَجَازَةِ أَوِ الْأَجَارَةِ ، لِقَلْةِ
مَا وُجِدَ مِنْهُ فِي شِعْرِ الْعَرَبِ . فَلَمَّا اتَّقَلَّتِ الْأَغْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ
إِلَى أَقْوَامٍ سَلَانَفُهُمْ وَحَالُهُمْ أَمِيلٌ إِلَى ضَرْوبِ الشِّعْرِ الْأُخْرَى
أَعْتَسَرُوا الْفَوَافِ عَلَى أَدَاءِ أَغْرَاصِهِمْ وَلَمْ تَشْعُرْ آذَانُهُمْ بِهِذَا
الَّذِي كَعَدَهُ الْمَرْوَضِيُّونَ عَيْبًا فِي الْقَافِيَّةِ . فَاحْتَمَلَتْ لِغَتُهُمْ

المحرفة وقوافيهم المتقاربة . ما لم تحتمله أوزان الجاهالية
وقوافيها ، على أن مراعاة القافية والنغمة الموسيقية في غير
الشهر المعروف عند الافرنج بـ *شعر الغناء* (Lyric) فضول
وتقيد لا فائدة منه ١ . ٥)

* * *

ومتى أفردنا ذلك فقد أدركنا أهمية اختراع الموشحات
وعرفنا خطرها العظيم . واي خطر أجل واكبر نفعا من
تحطيم ذلك القيد الذي رزى به الشعر العربي ؟

* * *

وفي هذا الكفایة الآن في الاستدلال على الشكوى
من القافية ، وعلى فضل الغناء وأثره في نظم الشعر نفسه
وتحويره واصناعه

- ٨ -

موشحة ابن المعز^(١)

ولو لم يخترع الاندلسيون هذا النوع المسيء
بالموشحات ، لاخترعه الشرقيون ، فقد كان حتماً أن يؤودى
الفناء ومجاسه في الشرق ، إلى نفس هذه النتيجة التي انتهت
إليها في الاندلس .

وفي موشحة ابن المعز الرائعة التي سنسردها على
حضرائكم ، أكبر دليل على صحة ما نقول ، فقد أنشأ ابن
المعز تلك الموشحة الفذة ، في القرن الثالث الهجري - أي

(١) ابن المعز

ولد سنة ٢٤٩ - وتوفي سنة ٢٩٦

ابنه عبد الله بن المعز ولقبه أبو العباس ، تحزب له جماعة
من الأراك وخلعوا المقتدر سنة ٢٩٦ وبایعوا ابن المعز وسموه
المرتضى بالله ولكنهم لم يلبثوا في الخلافة إلا يوماً وليلة ، فقد تحزب
 أصحاب المقتدر وتغلبوا على أعدائهم ابن المعز وأعادوا المقتدر
إلى دسته ، فاختفى ابن المعز في دار بعض التجار ، فقبض عليه
وخرق من ليلته ودفن بخربة بجوار داره .

في نفس القرن الذي اخترع فيه مقدم بن معافر الفرييري
موشحاته في الانداس^(١)

(١) كان مقدم بن معافر مخترع الموشحات في الانداس من شعراء الامير عبد الله بن محمد ، أى كان معاصرًا لابن المعز ، وليس لدينا الآن ما نرجح به أسبقية أحد هما عن الآخر في اختراع هذا الفن الجليل ، على أننا لا نستبعد أن تكون روح ذلك الصراري أوحت إلى أحدهما بهذه الفكرة ، هي نفسها التي أوحت للأخر بها فقد كان الاهتمام إلى الموشحات أمرًا طبيعيًّا ، ونتيجة لازمة لما يقتضيه تطور الفناء ورقته ، ويتطلبها الافتتان فيه من زيادة الألحان وتنوعها ، وثم يزداد الشعور بنقص تلك الألحان المصطلحة عليها ، عن سد هذا الفراغ الشديد ، فيندفع الناس إلى زيادة أوزان الشعر ولا يقفون به عند الحد الذي وتف عنده أسلفهم :

ونحن نرجو أن يساعدنا الوقت على تحقق هذه الظاهرة الهامة وتحقيقها - رغم ندرة المصادر التي يرجع إليها في هذا الموضوع

* * *

ولعل أغرب ما نذكره بهذه المناسبة ، اغفال مؤرخي الآداب جيئاً ، ذكر هذه الموشحة التي قالها ابن المعز ، كأن هذا الحادث ١٨ - نظرات

واليمكم موشحة ابن المعتز :

أيها الساقى اليك المشتكي ! قد دعو ناك وان لم تسمع :

* * *

ونديم همت في غرته

وبشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الكأس اليه ، واتكى وسقاني أربما في أربع

الجليل ، الذى ترك أوضح أثر في البلاغة العربية ، أقل خطأ
من اهتمام ابن المعتز بالمحسنات البديعية .

ماذا ؟ بل من ذلك البيت السخيف ، الذى لم يفت مؤرخاً
منهم ، أن يستشهد به ، دليلا على ابداع ابن المعتز ، ولو أنصفوا ،
لعدوه من هناته ، والبيت هو قوله :

وبذا الهلال كزورق من فضة قد أتقنته حولة من عنبر !

* * *

ومن نكد الدنيا على شاعر خل كابن الرومي أن يلجهه العوز
والفاقة إلى مدح هذا البيت السخيف ، وأكباد معناه التافه ،
والظهور بالعجز النام عن محاكاة هذا النشيد المتكلف ، تلقاءاً
لقائله ، لسمو منزلته ، ورفعة جاهه !

ما لعینی عشیدت بالنظر ؟
أنكِرت بعْدَكَ حنوة القمر
وإذا ما شئت ، فاسمع خبرى :
عشیدت عینای من طول البکا
وبکی بعضی علی بعضی معی !

غصن بان مال من حيث التـوى
مات من يهواه من فرط الجوى
خفق الاحشاء موهون الفوى
كلما فكر في البين بكى وبجهه ! يبكي لما لم يقمع !

لیس لی صبر ، ولا لی جلد
یا القومی عذلوا واجتمهدوا !
آنکروا شکوای مما اجد
مثـل حـالـی حقـه آنـیـشـتـیـکـی : کـدـ الـیـاسـ ، وـذـلـ الطـمـعـ :

كبد حري، ودمع يكف
يذرف الدمع ولا ينذرف
أيها المرض عما أصف!

قد نما جي بقاي وزكا لاتقل في الحب إنى مدعى^(١)

(١) وقد قلده ابن بقى في هذه الموشحة فقال:
غلب الشوق بقلبي فاشتكي الم الوجد فابت ادمى

* * *

أيها الناس فوادي شــغــف
وهو من بني الهوى لا ينصف
كم اداريه ودمعي يــكــف
أيها الشــادــنــ من عــلــكــا بــســهــامــ الــاحــظــ قــتــلــ الســبــعــ

بدرتم تحت ليــلــ أغطــشــ
طالع في غصنــ بــانــ منــتشــ
أــهــيفــ الفــدــ بــخــدــ اــرــقــشــ
ســاحــرــ الطــرــفــ وــكــمــ ذــاـفــتــكــا بــقــلــوــبــ الــاســدــيــنــ الــاــضــلــعــ

* *

كيف كان الغناء

سببا في اختراع المؤشّحات

عرفنا أن اليماءث الأول الذي دعا العرب إلى قول

أی دیم رمتہ فاجتنیا

وأنثى يهتز من سكر التعب

كتفاصيـب هـزه دـيـح الصـبا

عقلت: هب لی با حبایی، صلکا و اطرح آسباب هجری و دع

10

قال : خدى زهرة مذ فوفا

جردت عینای میفاما رهفا

حـذرـاً مـنـهـ بـاـنـ لـاـ يـقـطـفـاـ

• 8 •

ذاب قابی فی هوى ظبی غریر

وجهه في الدجن صبح مستدير

وَفَوْادِي بَيْنَ كَفِيْهِ أَسْـير

لم أجد للصبر عنه مسلكاً فانتصارى باستكاب الادم
ولكن شتان بين الموشحتين شتان!

الشعر واروعه، بل هما عاديان جداً . ولم يكن تأثيرهما على الرشيد ليبلغ ذلك الحد، لو لا الغناء وترجيع الا صوات مراراً، بحيث لا تنتهي القينة من غناها، حتى يكون معناها قد تكون من نفس الخليفة وأصبح مختلطًا بلحنه ودمه لجلال الغناء ودقّة تصويره وتجسيمه لأضال المعانى وأحققرها، كما يجسم المجرم أصغر الاشياء لعين الرأي . وما انتهت القينة من أيام غناها حتى قال الرشيد لنفسه ”نعم اني عاجز . اني عاجز ،“ وذكر سلطان البرامكة وقوه نفوذهم فـ كان ذلك سبباً في القضاء عليهم

* * *

ولما شاع فن الغناء في الاندلس وعاد الشعر الى طريقة الطبيعية الأولى مل الناس تكرار الانغام التي نقلوها عن أسلافهم فتعلموا الى ادخال بعض تحسينات على الشعر وأوضاعه وزادت حاجتهم الى دفع شيء من هذه القيود التي رذى بها الشعر العربي . واـ لكن التعلميد الذي أظهرنا لفراـنكـكم أثره الشديد في نفوسهم ونظرهم الى العرب السابـقـين نظر النـمـيـذـ الى استاذـهـ وقفـافـيـ وجـوهـهمـ زـمنـاـ

طويلاً . ثم ماذا كان ؟ تغلبت طبيعة الرق وسلطان الغناء على تلك العرافيل ، فاندفعوا بحراً وقوه في تحطيم اكبر قيد كان له أشنع الار في تأثر الشعر العربي . نهى به ذلك النظام الخاص الذى اتبعه أسلافهم في طريقة النظم ، وهو أن يتقيدوا بخمسة عشر بحراً فلا ي HIDون عنها ولا يتخطونها بحال ما ، وليس لهذا التطور العظيم من سبب سوى الغناء :

— ١٠ —

كانت الموشحات مما يتغنى به

وقد ارتاب حضرة الدكتور ضيف في أن الموشحات كانت مما يتغنى به ، وطلب اليه أن تأتى بمثل نستدل به على ذلك . واناموردون هنا الحكاية المائية، مجذزتين بها عن سواها لضيق المقام ، قال ابن خلدون في مقدمته : « و كان في عصرها ^(١) أيضاً الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة ^(٢) - ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت ، صاحب سرقسطة ، فألفى على قيامه موشحة :

جرر الذيل أيا جر وصل الشكر منك بالشكر
فطرب المدوح لذلك ، فلما ختمها بقوله :
عقد الله راية النصر لأمير العلا أبي بكر
قالوا : « وما طرق ذلك التاجين سمع ابن تيفلويت ،
حتى صاح : « واطرباه » وشق ثيابه وقال : « ما أحسن مبادأة

(١) يعني في عصر ابن بقي والبطليوسى

(٢) انظر إلى قوله صاحب التلاحين المعروفة

بـه وما خـتـمـتـ وـحـافـ الـإـيـانـ المـفـلـظـةـ لـأـيـشـيـ اـبـنـ بـاجـةـ إـلـىـ
دارـهـ إـلـاـ عـلـىـ الـذـهـبـ (١)ـ نـخـافـ الـحـكـيمـ سـوـءـ الـعـاقـبـةـ فـاحـتـالـ
أـنـ جـعـلـ ذـهـبـاـ فـيـ نـعـلـهـ وـمـئـىـ عـلـيـهـ (٢)ـ
حـسـبـنـاـ هـذـاـ مـثـلـ لـنـسـتـدـلـ بـهـ عـلـىـ أـنـ الـغـنـاءـ فـيـ الـمـوـشـحـاتـ
كـانـ اـمـرـاـ مـأـلـوفـاـ)ـ وـهـوـ فـيـ نـظـرـنـاـ اـمـرـ يـتـرـفـعـ عـنـ الجـدـلـ
وـالـتـشـكـكـ وـإـذـ نـظـرـةـ وـاحـدـةـ بـادـنـىـ تـأـمـلـ إـلـىـ نـسـقـ الـمـوـشـحـاتـ
وـطـرـيـقـةـ إـنـشـأـهـاـ،ـ كـفـيـلـةـ بـاقـنـاعـنـاـ أـنـهـاـ لـمـ تـخـاقـ إـلـاـ يـتـغـيـرـ بـهـاـ.

* * *

وـلـ بـأـسـ أـنـ تـخـتـمـ هـذـهـ الـمـحـاـضـرـةـ بـكـامـةـ جـامـعـةـ شـامـةـ
لـابـنـ خـلـدـونـ تـعـدـ بـيـانـةـ الـلـامـةـ وـجـزـةـ بـتـارـيخـ الـغـنـاءـ وـهـىـ الـكـامـةـ
الـيـ وـعـدـنـاـ حـفـرـاـتـكـمـ بـهـاـ فـيـ أـوـاـلـ هـذـهـ الـمـحـاـضـرـةـ حـتـىـ يـسـهـلـ
عـلـيـنـاـ إـلـخـ وـرـجـ بـصـورـةـ وـاضـحـةـ عـنـ مـحـتـوـيـاتـ هـذـاـ الفـصـلـ

(١) المعنى تافه ميج قد امك طول التكرار والشروع في
السر في كل هذا الالهاب ؟ ليس لهذا من سبب سوى روعة
الاخان وجمال التوقيع وحسن صوت المغني ، والا فانا نستبعد
ان يصل عقل صاحب مرقى علة من السخف الى حد ان يؤثر فيه
هذا المعنى وأشباهه دون أن يكون لهذا سبب آخر !

(٢) مقدمة ابن خلدون

— ١١ —

الغناء

قال ابن خلدون من فصل عقده على الغناء نقتطف لكم منه ما يلي :
« هذه الصناعة (١) هي تاجين الاشعار الموزونة ، بتقطيع
الاًصوات على نسب منتظمة معروفة ، يوضع على كل صوت منها
توقيعاً عند قطعه ، فيكون نفمة ، ثم تؤلف تلك النغم بعضها
إلى بعض ، على نسبة متعارفة ، فيبلغ مسامعها لأجل ذلك التناوب
وما يحدث عنه من السكينة في تلك الاًصوات »
إلى أن قال بعد كلام طويل :

« واذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث في العمران اذا
توفر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي ثم إلى الكمال وتفنوا ،
فتتحدث هذه الصناعة ، لانه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع
حاجاته الضرورية والمهوبة من المعاش والمنزل وغيره ، فلا يطلبها
إلا الفارغون عن سائر احوالهم تفنة في مذاهب المذوذات ،
وكان في سلطان الريح قبل الملة منها بحر زاخر في امصارهم
ومدنهم ، وكان ملوكهم يتذدون بذلك ويولون به ، حتى لقد
كان للملوك اهتمام بأهل هذه الصناعة ولم يمكث في دولتهم ،

(١) أي صناعة الغناء

وكانوا يحضورون مشاهدتهم ومجامعهم ويفتنون فيها ، وهذا شأن العجم طذا المهد في كل افق من آفاقهم ومملكة من ممالكهم - وأما العرب فكان لهم أولاً في الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام في تلك الأجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً بالفائدة لا ينطف على الآخر ويسموه البيت ، فتلاميذ الطبع بالتجزئة أولاً ، ثم يتناوب الأجزاء في المقاطع والمبادئ ، ثم بتاتدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليهم ، فلم يجروا به ، فامتاز من كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره ، لأجل اختصاصه بهذا التناسب ، وجعلوه ديواناً لاً خبارهم وحكمهم وشرفهم ، ومحكماً لقراءتهم في صحة المعانى واجادة الاساليب ، واستمروا على ذلك وعلى هذا التناسب الذي من أجل الأجزاء المتحركة والساكن الحروف كما هو معروف في كتب الموسيقى ، الا انهم لم يشعروا بما سواه لأنهم حينئذ لم ينتبهوا علماً ولا عرفو صناعة وكانت البداوة أغلب نحاتهم ، ثم تغنى الحداة منهم في حداء ابلهم ولفتیان في فضاء خلواتهم فترجموا الاصوات وترنوا ، وكانوا يسمون الترم اذا كان بالشعر غناء ، واذا كان بالتمليل أو نوع القراءة تغييرآ ، بالغين المعجمة والباء الموحدة ، وعلموا ابو اسحق الزجاج بأنما تذكر بالغابر ، وهو البق ، أي بالآخرة ،

وربما ناسبوا في غنائم بين الفئات مناسبة بسيطة كما ذكر ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره ، وكانوا يسمونه السناد ، وكان أكثر ما يكون منهم في الخفيف منه ، الذي يرقص عليه ويُشَي بالدف والمزمار ، فتطرّب ويستخف الحلوم ، وكانوا يسمون هذا الهزج وهذا البسيط كله من التلاحمين ، وهو من أوائلها ولا يبعد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم ، شأن البساط كلها من الصنائع

* * *

ولم يزل هذا شأن العرب في بداويمهم وجاهليتهم ، فلما جاء الإسلام واستولوا ، على ممالك الدنيا ، وحازوا سلطان العجم وغلبوا عليهم عليه ، وكانوا من البداوة والفضاضة على الحال التي عرفت لهم ، مع غضارة الدين وشدة في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش ، فهجروا ذلك شيئاً ما ، ولم يكن المذود عندهم إلا ترجيع القراءة والتترنم بالشعر الذي هو دينهم ومذهبهم ، فلما جاءهم الترف ، وغلب عليهم الرفعة بما حصل لهم من غناء الأم ، صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ

وافتلق المغنوون من الفرس والروم ، فوقعوا إلى الحجاز ، وصاروا موالى للعرب ، وغنوا جديداً بالعمردان والطناير ، والمازف والمأمير ، وسمع العرب تلحينهم لل拉斯وات ؛ فلحنوا عليها أشعارهم ، وظهر بالمدينة نشيط الفارسي ، وطويس وسائل

وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق ، وانتشر منها إلى غيرها وكان الموصليين غلام أبيه زرياب ، أخذ عنهم الفناء فأجاد ، فصرفوه إلى المغرب غيره منه ، فلتحق بالحكم (١) بن هشام ابن

(١) وقد أتاه نعي الحكم وهو في طريق الذهاب اليه،

نظر الی (۱۱۵ ص)

عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس ، فبالغ في تكريمه ، وركب
للقائه ، وأُنسى له الجواز والافتاءات والجريات (١) ، وأحله
من دولته وندعائه بـكأن ، فأورث الاندلس من صناعة الغناء
ما تناقلوه إلى أزمان الطراائف ، وطها منها باشبيلية بحر زاخر ،
وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد المدورة بأفريقيا والمغرب ،
وانقسم على امصارها ، وبها الآن منها صباة ، على تراجـم
عمرانها ، وتذاقص دولها . اه »

(١) ارجع إلى (ص ١١٣)

الازجال

() « ولما شاع فن التوشیح في أهل الانداس^(١) ، وأخذ به ابجدهو راسلاسته وتنمیق کلامه وترجمه ابتدائه ، نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ، ونظموا طریقتہ بلغتهم الحضرية من غير أن يلزموا بها اعراباً ، واستحدثواه فأسموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناصبهم الى هذا الهدى فباءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة ، قالوا : وأول من أبدع هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قzman ، وإن كانت قيامت قبله في الانداس ، لكن لم يظمر حلها ، ولا انسبكت معانها ، واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه ، وكان له المثلمين ، وهو امام الرجالين على الاطلاق »

قال ابن سعيد : « ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بمحواضر الغرب^(٢) »

(١) ابن خلدون

(٢) نشاً ابن قzman بقرطبة ، وكان كثير التردد على اشبيلية

* * *

واليكم بعض أمثلة من أعلى نماذج الزجل :

(١)

قال قاسم ابن عبود الرياحى في ختام زجل له :
ما أُعجب حدّيَّى إِش هدا الجنون ؟
نطلب وندر أَمْرًا لا يَكُون ؟
وكم ذا نهون أَمْرًا لا يَهون ؟
واش مقدار ما نصبر بعد الحبيب ؟
دب اجمعني مَعْوَد عاجلاً قريب .

وقد وصلت شهرته إلى حد أن عده الناس في الزجل كالمتنبي في الشعر، وذاعت ازجاله حتى رویت ببغداد، حيث لقيت نجاحاً أكبر من نجاحها بمحواضر المغرب، كما قال ابن سعيد.

* * *

ثم جاء عبدالله المعروف بمدغليس، بعد ابن قzman هذا ؟
فكان خليفة بحق، وقد زادت شهرته حتى عد في الزجل كابي تمام في الشعر.

وانما شبه ابن قzman بالمتنبي ومدغليس بأبي تمام لالتفات الاول الى المعنى والتفات الثاني الى اللفظ.

(٢)

وقال بعضهم :

يا حادى العيس ازجر بالطایا زجر
وقف على منزل احبابي قبيل الفجر
وصيبح في حيهم : « يامن يريدا لاجر !
ينهض يصلى على ميت قتيل المهر ! »

(٣)

وقال آخر :

عني الى كفت ادعكم بها باتت
تروى النجوم ، وبالتسهيد اقتات
وأسهم البين صابتي ولا فاتت
وسلوبي - عظم الله أجركم - ماتت

(٤)

وقال رابع :

لى دهر بعشق جفونك وسنة يين
وأنت لاشفقة ولا قاب يلين

إلى أن يقول في ختام زجله :
خلاق الله النصارى للغزو^(١) وأنت تغزو قلوب الماشقين

(٥)

وما اختاره ابن خلدون ، من زجل أهل مصر القاهرة ،
وأحسن في اختياره كل الاحسان ، قول بعضهم في ذلك العصر
هذا جراحي طرياً والدماء تنضج
وقاني يا أخيما في الفلا يرث :
قالوا : «ونا خذ بتارك» قلت : «ذا أفتح !»

* * *

« وقد عم فن الزجل في الاندلس ، حتى كان العامية
ينظمون فيه بطريقتهم العامية في سائر البحور الخمسة
عشر^(٢) »

(١) وهذا المعنى يمثل لكم نفسية أهل هذا العصر ، وروحهم
المشتتبعة بالغزو والجهاد . (٢) ابن خلدون

هشام الثاني^(١)

و حاجبه المنصور^(٢)

خلف الحكم الثاني^(٣) لولاية الحكم من بعده ، ولد في الحادية عشرة من عمره ، وهو هشام الثاني^(٤) الذي انتقل إليه لقب الخلافة ، في حين كانت تدير دفة سياسة الحكومة امه صباح ، و حاجبه الشديد الطموح والأثرة ، محمد بن أبي عامر ، الذي كان ملك أسبانيا الحقيقي

(١) معربة عن كتاب الاستاذ نيكالسون .

(٢) امهه محمد بن عبد الله بن أبي عامر ، وكنيته أبو عامر ، ولم يتلقب بهذا اللقب «المنصور» الا فيما بعد ، حين استتب له الامر ، وحصر السلطة في يده ، كما سيمر بك وأصله من المدينة المروفة بالجزيرة الخضراء ؛ من قرية من أسمائها تسمى طرش على نهر وادي آروا

(٣) مات الحكم الثاني اثر اصابة فلج أذنته الفراش والحت عليه حتى أودت به في سنة ٣٦٦ هـ

(٤) ولّى هشام الملك في سنة ٣٦٦ ومات في سنة ٤٠٣ هـ

* * *

ومها حدثنا في تلك الوسائل التي نرض بها إلى مكانته الرفيعة ، ومها قيل عن سوء معاملته لذلك الخليفة التعمس (هشام) الذي تعمد المنصور قتل مواهبه العقلية وقضى عليه أن يعيش مبعداً عن الناس ، في عزلة كعزلة الرهاب ، فان من الحال أن نذكر عليه أنه ساس البلاد بـ حكم ونبيل ، وأنه كان سياسياً محظياً ، كما كان جندياً عظيماً !

* * *

ولقد لقب نفسه « بالمنصور » فلم يجرؤ أحد أن يذكر عليه جدارته بهذا اللقب ، أو يعده من قبيل ولوع الكسالي بالفخار الكاذب ، وحسبك دليلاً على أحقيته به ، أنه كان يقود جيشه لغزو المسيحيين مرتين في كل عام ، وأنه ملا القلوب ذعراً منه ورعباً ، فلم يخسر غزوة واحدة من غزواته التي أربت على الخمسين (١) !

* * *

(١) حدث المؤرخون أنه غزا نحو ست وخمسين غزواً في حياته ، لم تنكس له فيها راية ، ولا فل له جيش .

ولما مات المنصور في سنة ١٠٠٢ م^(١) كتب راهب مسيحي في سجل مذكراته الذي كان يقييد فيه الحوادث ، الجملة التالية ، تعليقاً على خبر موته : « وقد دُفِنَ في الجحيم ! »

أما المسلمين ، فنقشوا على قبر بطاطم البيتين التاليين :

آثاره تنبئك عن أوصافه حتى كأنك بالعيان تراه
قال الله لا يأنى الزمان بذهله أبداً ولا يحتمي الشغور سواه

« ا . ه »

(١) سنة ٣٩٤ هـ . بعد سبع وعشرين سنة من ملوكه .

كيف وصل المنصور الى الملك؟

— ١ —

وفوده الى قرطبة

وفد المنصور الى قرطبة شاباً ، فوجده عذراً يه الى تحصيل
العلم والأدب وحفظ الحديث ، فبرع في ذلك كلّه ،
وتفوق على اقرانه

— ٢ —

تعلمه بالسيدة صبح (١)

ووْلَمْ اقْتَدِدْ دَكَانَا عَنْدَ بَابِ الْقَصْرِ ، يَكْتُبُ فِيهِ لَمْ يَعْنِ
لَهُ كَتْبُ مِنَ الْخَدْمِ وَالرَّافِعِينَ إِلَى السُّلْطَانِ ، إِلَى أَنْ طَلَبَتْ
السَّيِّدَةُ صَبْحٌ ، مَنْ يَكْتُبُ عَنْهَا ، فَعَرَفَهَا بِهِ مَنْ كَانْ يَأْنِسُ
إِلَيْهِ بِالجلوسِ مِنْ فَتَيَّانِ الْقَصْرِ ، فَتَرَقَى إِلَى أَنْ كَتَبَ عَنْهَا ،
فَاسْتَحْسَنَتْهُ (٢) ،

(١) هي أم الخليفة هشام المؤيد وقد مر ذكرها في ص (٢٩٢)

(٢) ابن سعيد

تلر جه في المناصب

”فنبهت عليه الحكم، ورغبت في تشريفه بالخدمة،
فولاه قضاة بعض الواضع، فظهرت منه نجابة، فترقى الى
الزكاة والمواريث باشباعيلمه
وتمكن في قلب السيدة بما استمالها به من التحف
والخدمة، ما لم يتمكن لغيره^(١)،
ومما زال يرتفع شأنه، وينبه ذكره، حتى نقله الحكم
من خطة القضاة إلى وزارته

طه و حم الى الملك

ولبث يتحين الفرص ، حتى توفي الحاكم الثاني ،
وبويع هشام الثاني الملقب بالمؤيد ، وخيف انتقاض الامور
فتقىدم المنصور لهذا الامر الجلل ، وضمن اصبع سكون

(۱) ابن سعید

الحال ، واستقرار الملك لا بذها ^(١) فآمدته بالمال الكثير ،
الذى اسْتَهَالَ به الحمد إليه

- 6 -

استبداد بالسلطان

(١) بدأ المنصور بقتل المغيرة أخي الحكم المرشح لامرءه، في نفس الليلة التي تولى فيها هشام المؤيد، بعدها بأوّل يوم بعض رؤساء القصر، الذين خشوا أن يزاحهم أحد في الرئاسة اذا ولّ الامر

غير هشام الصغير
(٢) ابن خلدون

() حق انه منم الوزراء من الوصول اليه الا في النادر من الايام ، يسلعون وينصرعون .

(٤) قالوا : « نعم تجبره لرؤساء الدولة ومن حانده وزوجه » ، فقال

أقطار الأندلس كلها ، ولم يضطرب عليه شىء

اثر المنصور في الأندلس

— ١ —

محق العصبية

أظهر المنصور من ضروب الحزامة والدربة مادانت له به
أقطار الأندلس كلها ، فلم يضطرب عليه شىء منها في أيام
حياته ، لدهائه وحسن سياسته ، وقوه شخصيته
ولعل أكبر عمل قام به في توطيد الأمر بالأندلس ،
هو استئصاله تلك العصبية المقوية التي كانت ضاربة
أطهاها في الأندلس ^(١)

عليهم وحطتهم عن مراتبهم ، وقتل بعضًا ببعض ، كل ذلك عن
أمر هشام وخطه وترقيعه ، حتى استأصلهم وفرق جموعهم ، «
وملا خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة ، رجع
إلى الجند ؛ فاستدعى أهل المدورة من رجال زناه والبرارة ،
فترتب منهم جندا ، وأصطنع أولياء » ^(١)
« وكان عرب الأندلس يعتزون بالقبة -ائل والمشائر

— ٤ —

بناء مدينة الزاهرة

ولا يسعنا أن نغفل الاشارة إلى تلك المدينة العظيمة
”الزاهرة“، التي بناها نفسه، ونقل إليها خزائن الاموال
والأسلحة^(١)

والبطون والأفخاد، إلى أن قطع ذلك المصنور بن أبي عامر
الداهية، الذي ملك سلطنة الأندلس، وقصد بذلك آثريتهم،
وقطع التمامهم وتعصيهم في الاعتداء.

وقدم القواد على الأجناد، فيكون في جند القائد الواحد
فرق من كل قبيل.

فانكسرت عادة الفتن والاعتزاء بالأندلس، الاماجأة على
غير هذه اه. » المقرى

(١) وقد حدث المؤرخون أذ، قعد على سرير الملك، وأمر
أن يحيى بتحية الملوكي، وتسمى منذ ذلك الحين بالحاجب المنصور،
ونفذت الكتب والخطابات والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له على
المذاابر باسمي عقب الدعاء لل الخليفة الذي حرم من كل سلطة ولم
يبق له من رسوم الخلافة كثراً من الدعاء على المذاابر، فقد استأثر
المنصور دونه بكل شيء حتى كتب اسمه في السكة والطارر.

ولعم بالغزو

ولقد بلغ به حبه الشديد للغزو، حدّاً قل أن نرى له مثيلاً
في سواه، فقد بلغ عدد غزواته ستاً وخمسين غزواً، كما
قدمنا^(١) فزع منه نصارى الأنجلترا، واشتد بهم الرعب
حتى لفبوا بعطرقة الغضب الالهى كارواه دوزي في الفصل
الذى عربناه لحضراتكم في محاضرة سابقة^(٢)

* * *

وفي الكامة التالية - إلى تنقلها عن كتاب المعجب
ما يزيدكم اقتناعاً بذلك ، قال :

” وفتح فتوحاً كثيرة ، ووصل إلى معاقل قد كانت
امتنعت على من كان قبله ، وملاً الأنجلترا غنائم وسبباً من
بنات الروم وأولادهم ونسائهم ، وفي أيامه تغلى الناس
بالأنجلترا فيما يجهرون به بناتهم من الشياط والحل والدرر ،
وذلك لرخص أثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغبون في
بناتهم بما يجهرون به مما ذكرنا ، ولو لا ذلك لم يتزوج

(١) ارجع إلى ص (٢٩٣) - وفي رواية أخرى ٥٢ غزواً

(٢) ارجع إلى ص (١٠٣)

أحد حرة !، قال : « بلغنى أنه نودى على ابنة عظيم من عظامه الروم بقرطبة ، وكانت ذات جمال رائع ، فلم تساوا كثراً من عشرين ديناراً عامرية »،

مثال من صرامته

قالوا : « وقد اتتهت هيبة المنصور بن أبي عامر »، وصبطه للجند ، إلى غاية لم يبلغها ملك قبله ، فـ كانت موافقهم في الميدان على احتفاله ، مثلاً في الأطراق ، حتى إن الخيل لتمثيل أطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والجمحة »،

* * *

« ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سله بعض الجند بأقصى الميدان - لهزل أو جد ، بحيث ظن أن لحظ المنصور لا يناله - فقال : « علي بشاهر السيف »، فمثل بين يديه لوقته ، فقال : « ما حملك على أن شهرت سيفك في مكان لا يشهر فيه إلا عن اذن ؟ »، فقال : « أني أشرت به علي صاحبي مغداً ، فدلق من غمده ! »،

فقال : « إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى ! »، وأمر به
حضرت عنقه بسيفه ، وطيف برأسه ، ونودى عليه بذنبه

مثال من فطنته

قدم بعض التجار ومعه كيس فيه ياقوت نفيس ،
فتجرد ليسبح في النهر ، وترك السكين - وكان أحمر - إلى
ثيابه ، فرفعته حداة في مخالبها ، فجرى تابعاً لها وقد ذهل ،
فتقى لغات في البستانين ، وانقطعت عن عينه ، فرجع متراجعاً
فشكى ذلك إلى بعض من يأنس به ، فقال له : « صف
حالك لابن أبي عامر »

فتماطف في وصف ذلك بين يديه ، فقال : « ننظر
إن شاء الله في شأنك »، وجعل يسمى دعى أصحاب تلك البستانين
ويسأل خدامها عن ظهر عليه تبديل حاله ، فأخبروه أن
شخصاً ينقل الزبل ، اشتري حماراً ، وظهر من حاله ما لم
يكن قبل ذلك

فأمر بجيشه ، فلما وقعت عينه عليه قال له : « أحضر
السكين الأحمر » فتملاك الرعب قلبه وارتعش ، وقال :

” دُعْنِي أَتَ بِهِ مِنْ مَنْزِلِي ، ”

فوكل به من حمله الى منزله وجاء بالكيس وقد نقص منه ما لا يقدر في مسيرة صاحبه ، فجبره ودفعه الى صاحبه فقال : ” وَاللَّهِ لَا حَدْثَنَ فِي مَشَارقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا أَنْ أَبْنَى عَامِرٍ يَحْكُمُ عَلَى الطَّيْوَرِ ؛ وَيَنْصُفُ مِنْهَا ، ”
والنفت ابن أبي عامر الى الزبال وقال له : ” لَوْ أَتَيْتَ بِهِ أَغْنِيَةَكَ ، لَكُنْ تَخْرُجَ كَفَافًا لَا عَقَابًا وَلَا ثُوابًا ^(١) ، ”

نَفَاثَ بِصَيْرَتِهِ

” وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ ، إِذَا أَرَادَ أُمْرًا مِنْهَا ، شَادَرَ أَرْبَابَ الدُّولَةِ الْأَكَابِرَ ، مِنْ خَدَامِ الدُّولَةِ الْأَمُوَيَّةِ ، فَيُشَيرُونَ عَلَيْهِ بِالْوَجْهِ الَّذِي عُرِفَوْهُ ، وَجَرَتِ الدُّولَةُ الْأَمُوَيَّةُ عَلَيْهِ ، فَيُخَالِفُهُمْ إِلَى الْمَنْهَاجِ الَّذِي ابْتَدَعُهُ ، فَيَقْضُونَ فِي أَنفُسِهِمْ بِالْهَلاَكِ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكُوكُمْ ، وَالْمَهِيمُ الَّذِي اخْتَرَعْتُمْ ، فَتَسْفَرُ الْعَافِيَةُ عَنِ السَّلَامَةِ التَّامَّةِ ، الَّتِي افْتَضَاهَا سُعْدُهُ ، فَيُكْثِرُونَ التَّمْجِيبَ مِنْ مَوَارِدِ امْوَارِهِ وَمَصَادِرِهَا ^(٢) ”

(١) ابن سعيد (٢) نفح الطيب

شعوره بجلد

واعمل أهـ ما يسترعى نظر الباحثين ، من مزايا المنصور
 شعوره بجـله ، فقد صحـه هذا الشعور من عـد حدائـه ،
 وكان له في رفعتـه أـكـبر أـثر ، فـشـبـعـه عـلـيـهـ وـوـاجـهـهـ
 الشـدـائـد ، وتـذـلـيلـ العـقـبـاتـ الـىـ اـعـتـرـضـتـهـ فـيـ سـبـيلـ نـهـوـصـنـهـ
 وـكـانـ المنـصـورـ كـانـ يـحـسـ فـيـ نـفـسـهـ اـحـسـاسـاـ خـفـيـاـ ، بـسـعـودـ
 جـدهـ وـنـبـاهـةـ شـأـنـهـ فـيـ مـسـقـبـلـ أـمـرـهـ ، وـكـانـ كـانـ يـشـعـرـ تـامـاـ
 أـنـ الزـمـانـ لـاـ شـكـ مـحـالـفـهـ ، وـأـنـ الـظـرـوفـ بـلـاـ رـيـبـ سـتـعـيـفـهـ
 عـلـيـهـ بـلـوـغـ اـرـبـتـهـ ، فـكـانـ لـهـ مـنـ ذـلـكـ الشـعـورـ الـخـفـيـ قـوـةـ هـاـثـلـةـ
 سـعـقـتـ اـمـامـهـ كـلـ اـعـتـبارـ !

* * *

وليس أدل على ذلك من الحـكاـياتـ الـثـلـاثـ التـالـيـةـ ،
 الـتـيـ تـعـلـمـهـ أـوـلـاهـاـ وـثـانـيـتـهـاـ ، وـهـوـ فـيـ بـدـءـ حـيـاتـهـ ، يـحـلـمـ بـالـسـيـطـرـةـ
 وـالـحـكـمـ ، أـبـعـدـ مـاـ يـكـوـنـ عـنـ الـوـصـوـلـ إـلـيـهـاـ ، وـلـكـنـهـ
 يـرـاهـمـ دـرـغـمـ ذـلـكـ - قـابـ قـوـسـيـنـ مـنـهـ أـوـادـنـيـ ، وـيـشـعـرـ تـامـاـ
 أـنـهـاـ فـيـ مـقـنـاـوـلـ يـدـهـ بـعـدـ قـلـيلـ ، وـتـشـتـدـ بـهـ الثـقـةـ إـلـيـ حـدـأـنـ

يحدث بعض أصدقائه بما يقع له في ذلك ، بل إلى حد أن يفكر في تعيين من يصلح للمفاسد ، وهو ناشئٌ
يطلب العلم

وزراه في الحكاية الثالثة - وهو في أيام رفعته بعد أن
حالفة الجلد وتم له الأمر - واثقا من دوام مخالفته الزمان له ،
مطمينا إلى جده ، ساخرا بكل شؤم يصادفه ، ليقيمه من
تغلب سعاده على كل عقبة تهتز ضنه

- 1 -

حَكَىْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ اسْحَاقَ التَّمِيمِيِّ ، قَالَ :

”كان محمد بن أبي عامر نازلاً عندى في حجرة فوق
بيتى ، فدخلت عليه فى بعض الليالي فى آخر الليل ، فوجده
قاعدًا على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلت
عنه ، فقلت له : ”ما أراك نمت الليلة ؟ ” قال : ”لا ؟ ”
قلت : ”فما أسررك ؟ ” قال : ”فكرة عجيبة ! ” قلت :

وَوْفَهَا كَنْتَ تَفْكِرُ ؟ ، قَالَ : وَوْفَكَرْتَ إِذَا أَفْضَى إِلَيْهِ
الْأَمْرِ وَمَا تَمَّ مُحَمَّدُ بْنُ بَشِيرٍ الْقَاضِي ، بَنْ أَسْتَبْدَلُهُ ، وَمَنْ
الَّذِي يَقُولُ مَقَامَهُ ، بَجَلَتِ الْأَنْدَلُسُ كَلَّا بِخَاطِرِي ، فَلِمَ أَجَدَ
إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا ، قَلَتْ : وَوْلَعْلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ السَّاِيمُ ؟ ، قَالَ :
وَوْهُوَ وَاللَّهُ هُوَ ! لَشَدَّ مَا اتَّفَقَ خَاطِرِي وَخَاطِرَكَ ^(١) ،

- ٢ -

وَإِلَيْكُمُ الْحَكَمَةُ الثَّانِيَةُ

كَانَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ ^(٢) يَوْمًا جَالَ سَاعَةً مَعَ ثَلَاثَةَ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ
طَلَبَةِ الْعِلْمِ ، فَقَالَ لَهُمْ : وَلِيَخْتَرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ خَطَّةً أَوْ آيَةً
إِيَّاهَا إِذَا أَفْضَى إِلَيْهِ الْأَمْرِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : وَوْتَوَلِينِي قَضَاءَ
كُورَةِ دِيَةٍ - وَهِيَ مَالَفَةُ وَاعْمَالُهَا - فَانْهَى يَعْجِبَنِي هَذَا التَّيْنُ
الَّذِي يَحْبِبُهُ مِنْهَا ، وَقَالَ الْآخَرُ : وَوْتَوَلِينِي حِسْبَةُ السُّوقِ ،
فَانِي أَحَبُّ هَذَا الْاسْفَنجَ ، وَقَالَ الْثَالِثُ : وَوْإِذَا أَفْضَى إِلَيْكُمْ
الْأَمْرُ ، فَأَمْرُ أَنْ يَطَافُ بِي قَرْطَبَةَ كَلَّا عَلَى جَمَارٍ وَوَجْهٍ
إِلَى الذَّنْبِ وَأَنَا مَطْلِبٌ بِالْعَسْلِ ، لِيَجْتَمِعَ عَلَى الذَّبَابِ وَالنَّحْلِ ^(٣) ،

(١) المَعْجَبُ (٢) الْمَعْجَبُ

(٣) « وَافْتَرَقَا وَاعْلَى هَذَا ، فَلَمَّا أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَيْهِ كَانَ تَنْفِي ،

- ٣ -

واليكم الحكایة الثالثة^(١)

قيل له مرة : « ان فلانا مشئوم ، فلا تستخدموه ! »
فقال : « اف لسعد لا يغطى على شؤمه^(٢) »

مثال من تأملاتي

وكان كثير التأمل ، شديد الخوف على هذا الملك العظيم الذي بذل قصارى وسعه في ثبيت دعائه ، أفر تذهب به عواصف الفتنة بعده ، وكأنه كان على ثقة أن سيل الفوضى الجارف - الذي وقف أمامه سدا منيعا ، فانقضت البلاد من طغيانه ، بحكمة وشدة أيده ، سوف لا بد يغيرها دنعة واحدة ، بعد مدحاته بقليل ، ومن أمثلة هذه التأملات التي كانت تشغل رأسه أحيانا ، ما يرويه لنا المفرى في القطعة التالية :

بلغ كل واحد منهم أهزيته على نحو ما طلب «

(١) نفع الطيب (٢) قالوا : « فامستخدموه ولم ينزله من شؤمه
الذى جرت به العادة شيء »

يكون خرابك على يديه عن قريب؟»

فقال له بعض خاصته : « ما هذا الكلام الذي ما سمعناه
من مولانا فقط ؟ وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق به مثله
شغف البال به ؟ »

فقال : « والله لترون ما قلت ، وكأني بمحاسن الزاهرة
قد محيت ، ورسومها قد غيرت ، وبيانها قد هدمت ونحنيت
وبخزائنهما قد نهبت ، وبساحتها قد اضرمت بنار الفتنـة
وأنهبت ^(١) »

(١) ولقد صحّت نبوءة، وحقّقت الأيام صدق حدّوسه، قال الحاكي : « فلم يكن إلا أن توفي المنصور، وتولى المظفر - ولم تطل مدة - فقام بالأمر أخوه عبد الرحمن الملقب « بسنجول » فقام عليه المهدى والعامرة ، وكانت منهم عليه وعلى قوله الطامة -

أثر البلاحة في نفسه

وكان المنصور ككل عربي، تهزم البلاغة، ويملك نفسه الجواب الحاضر، وربما كان ادل مثل نسواقه على ذلك، الحكاية التالية:

- 1 -

«كان بقرطبة على عهد المنصور ، فـى من أهل الادب
قد رقت حاله في الطاب ، فـى تعلق بكتاب العمل ، واختلف
إلى الخزانة حتى قــلد بعض الأعمال ، فـاستهمـلـكـ كثـيراـ من
المـالـ ، فـلـماـ ضـمـ إـلـىـ الحـسـابـ ، اـبـرـزـ عـلـيـهـ ثـلـاثـةـ آـلـافـ دـيـنـارـ
فـرـفـعـ خـبـرـهـ إـلـىـ المـنـصـورـ ، فـأـمـرـ باـحـضـارـهـ ، فـلـماـ مـثـلـ
بـيـنـ يـدـيهـ ، وـلـزـمـ الـاقـرارـ بـماـ يـرـزـ عـلـيـهـ ، قـالـ لـهـ :
«يا فـاسـقـ ماـ الـذـيـ جـرـأـكـ عـلـىـ مـالـ السـلـطـانـ تـنـتـهـيـهـ ؟ـ»
فـقـالـ : «ـقـضـاءـ غـابـ الرـأـيـ ، وـقـرـ أـفـسـدـ الـاـمـانـةـ ؟ـ»

وانقرضت دولة بنى حامر ، ولم يبق منهم آمر :
 كان لم يكن بين الحجوف الى الصفا أنيس ، ولم يسمه بـ كـه سامر
 بـلى ! نحن كـنا اهـلـها ، فـأـبـادـنا صـرـوفـالـليـالـيـ والـجـدـوـدـالـعـواـزـ

فقال المنصور : « والله لا جعلناك نتكللا لغيرك ، ليحضر
كبل وحداد »

فاحضر ، فكبل الفى ، وقال : « احملوه الى السجن ،
وأمر الضابط بامتحانه والشدة عليه ، فلما قام أنساً يقول :
أواه ! أواه ! وكم ذا أرى أكثراً من تذكار أواه
ما لا مرىء حول ولا قوة الحول والقوة لله
فقال المنصور « ردوه » فلما ردوه ، قال « أئنلت ألم
قلت ؟ »

قال : « بل فلت » فقال : « حلوا عنه كبله » فلما حل
عنه ، أنساً يقول :
أما ترى عفو أبي عامر لا بد أن تتبعه منه
كذلك الله اذا ما عفا عن عبده أدخله الجنة
فأمرباطلاقه ، وسوغ ذلك المال ، وأبرأه من التبعية فيه (١)

مثال من بلاغته

نوجز من نثره

المنصور والرمادى

ونتهز هذه المناسبة ، لنعرض على حضراتكم مثلاً من
 نثره ، تبينون منه القمة التي وصلت إليها بلاغته ، ونسك
 القلم عن التعاليق عليه رغبة في توخي الإيجاز الذي يضطرنا
 إليه ضيق الوقت ، واليمك يساق الحديث :

قال المنصور للرمادى الشاعر المشهور :

«كيف ترى حالك معى ؟»

فقال : « فوق قدرى ودون قدرك !

فأطرق المنصور كالغضبان ، فأنسل الرمادى ، وخرج
 وقد ندم على ما بدر منه ، وجعل يقول : « أخطأت والله ،
 ما يفلاح مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كان ضرني لوقلت
 له : « انى بلغت السماء ، وتنفطقت بالجوازاء ، وأنشده :

متى يأت هذا الموت لم يلف حاجة

لنفسى الا قند قضيت قضاهما

لَا حُولَّ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ! »

ولما خرج كان في المجالس من يحسده على مكانه من المنصور ، فوجد فرصة ، فقال : « وصل الله لمولانا الظفر والسعد ، إن هذا الصنف صنف زور وهذيان ، لا يشكون نعمة ، ولا يروعن إلا ولا ذمة ، كلاب من غالب ، وأصحاب من أخصب ، وأعداء من أجدب ، وحسبيك منهم إن الله جل جلاله يقول فيهم : « والشمراء يتبعهم الغاوون » إلى آخر الآية ، فالابتعاد منهم أولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم : ما ظنك بقوم ، الصدق يسْتَحْسِنُ الْمُنْهَمْ ؟ »

* * *

رفع المنصور رأسه ، وقد اسود وجهه وظهر فيه الغضب المفرط ، ثم قال :

ما بال قوم يشرون في شيء لم يستشاروا فيه ، ويسيئون الأدب بالحكم فيما لا يدركون أيرضي أم يسخط ؛ وأنت أيها المنبعث للشر دون أن يبعث ! قد عاملنا غرصنك في أهل الأدب والشعر عامة ، وحسدك لهم ، لأن الناس كما قال الفائق :

من رأى الناس له فضلاً عليهم حسدواه
وعرفاً غرضك في هذا الرجل خاصة ، ولسننا ان
شاء الله نبلغ احداً غرضه في أحد ، ولو بلغناكم بلغنا في
جانبكم ، وانك ضربت في حديد بارد ، وأخطأت وجه
الصواب ، فزدت بذلك احتقاراً وصغاراً ، واني ما اطرقت
من خطاب الرمادي انسكاراً عليه ، بل رأيت كلما يحمل
عن الأقدار الجليلة ، وتهجّمت من تهديه له بسرعة ، واستنباطه
له على قوله من الاحسان الغامر ، ما لا يستنبطه غيره
بالكثير !

والله لو حكمته في بيوت الاموال ، لرأيت أنها
لا ترجع ما تكلم به قلبه ذرة

* * *

وایاكم أن يعود احد منكم الى الكلام في شخص قبل
أن يؤخذ معه فيه ، ولا تحكموا علينا في أوليائنا ، ولو ابصرت
عنة التغير عليهم ، فانا لا تغير عليهم بغضنا لهم ، وانحرافاً
عنهم ، بل تأدبيها وانسكاراً !

فانا من نريد ابعاده ، لم نظهر له التغير ، بل نتبذه

مرة واحدة ، فإن التغير إنما يكون لمن يراد استبقاءه ،
ولو كنت مائلاً السمع لـ كل أحد منكم في صاحبه ، لتفرقتم
أبدى سبباً وجوبت أنا مجازة الاجرب
واني - وقد اطلعتم على ما في صميري ، فلا تعدلوا
عن مرضاتي ، فتجنبوا سخطي بما جنيدتموه على انفسكم »

* * *

قالوا : ثم أمر أن يرد الرمادي ، وقال له : « أعد على
كلامك ! » فارتاع فقال : « الامر على خلاف ما قدرت ،
الثواب أولى بكلامك من العقاب » فسكن لقائيسه وأعاد
ما تكلم به ، فقال المنصور : « بلغنا أن النهان ابن المنذر
حشى فم النابغة بالدر ، لـ كلام استحسن منه ، وقد أمرنا
لـك بما لا يقصـر عن ذلك ، ما هو أـنـوه واحسن عائـدة ،
وكتب له بـمال وخلـع وموضـع يتعـيش منه

* * *

ثم رد رأسه إلى المتكلـم في شأن الرمادي ، وقد كاد
يغوص في الأرض - لو وجد - لشدة ما حلـ به ، عمـا سمع
ورأـى ، قال : « والعـجبـ من قـومـ يقولـونـ : « الـابـتعـادـ منـ

الشعراء اولى من الاقتراح » نعم ! ذلك لمن ليس له مفاخر
يريد تخليلها ، ولا أياً يدي برغب في نشرها ، فأين الذين
قيل فيهم :

على مكثريهم رزق من يعتريهم
وعند المقلين السماحة والبذل

وأين الذي قيل فيه :
انما الدنيا أبو دلف بين مبداه ومحضره
فإذا ولـي أبو دلف ولـت الدنيا على أثره
أماكن في الجاهلية والاسلام أـ كرم من قيل فيه
هذا القول ؟ بـلى ! ولكن صحبة الشعراء والاحسان لهم
أحيـت غابر ذـكرـهم ، وخصـبـتهم بـمـفـاخـرـ عـصـرـهم ، وغيـرـهم لمـ
تخـلـدـ الـامـدـاحـ ماـ نـزـهـمـ ، فـدـئـرـ ذـكـرـهمـ ، وـدـرـسـ نـخـرـهمـ (١) ،

مثالان من شعره

أما شعره ، الذى عثرنا به ، فلا يتجاوز بعض أيام قال
بعضها مفتخرًا بعصمته ، وبعد هرقى همته ، وقال بعضها
الآخر فى إظهار طموح نفسه الى ملك مصر والنجاز

- ١ -

أما أولها فقوله :

رميت بنفسي هول كل عظيمة
وخارطت ، والحر الكريم يخاطر
وما صاحبى الا جناف مشيع
وأسمر خطى ، وأيضاً باور^(١)
فسدت بنفسي أهل كل سيادة
وفاخرت ، حتى لم أجد من أفالخ

(١) لعل خير من أبدع في هذا المعنى ، هو عمرو بن سراقة الهمданى ، في ميميته المتأججة بنار الحماس ، حين يقول :

متى تصحب القلب الذكي ، وصار ما
وأنقا حيا ، نجتنبك المظالم !

— ٢ —

وَثَانِيَهَا قُوله :
مَنْعُ الْعَيْنِ أَنْ تَذُوقَ الْمَنَامَا
جَبَّهَا أَنْ تُرَى الصِّفَةُ وَالْمَقَامَا
لِدِيُونَ بِالشَّرْقِ ، عِنْدَ أَنَاسٍ
قَدْ أَحْلَوْا بِالْمُشْعَرِينَ الْحَرَاما
أَنْ قَضُوا هَانَلُوا الْأَمَازَ ، وَإِلَّا
جَعَلُوا دُونَهَا رَقَابًا وَهَامَا
عَنْ قَرِيبٍ تَرِي خَيُولَ هَشَامَ^(١)
يَبْلُغُ النَّيلَ خَطُوهَا وَالشَّامَا

(١) يَعْنِي جَيْشَ هَشَامَ الثَّانِي ، الْخَلِيفَةِ الصُّورِيِّ

عاذ ج

من مجالسِ الأدبِ و مجالسِ الالهِ و في الانداسِ
في زمانِ المنصور

« وكان للمنصور مجلسٌ في كلِّ

« أسمواه بجتعم فيه أهلُ العلمِ»

« لمناظرٍ يحضرُه ما كانَ»

« نمة يابقر طبةِ المحبِ»

لعلَّ أصدقَ مرآةً يستجلِي بها الإنسان صورةَ عصرِ
من المصور، هي تلك المجالس، وما قد يدور فيها من الحوارِ
والملحِ، ففيها يرى الإنسانُ بنفسِه عاداتِ القومِ وآخلاقِهم،
ومن ثناياها يلمحُ وجهةَ تفكيرِهم وطريقةَ محادثتهم، ويشاهدُ
الناحيةَ التي تتجهُ إليها عقولُهم، والنقطةَ الرئيسيةَ التي يدورُ
عليها محورُ مناقشاتهم وجدلِهم، وربَّ عبارةٍ واحدةٍ، يفوته
بها أحدهم دون تخرجٍ، وعلى غيرِ عمدٍ، تدلُّها على قابليةِ الوسطِ
في ذلك العصرِ، أو نفورِه لمبدأً اجتماعيًّا هاماً، غفل المؤرخون

عن ذكره، أو أهملوا الاشارة اليه

* * *

ولقد كرأن الأدب هو أصدق مرآة للنفوس، وأن
قرطبة كانت نحوى في ذلك الزمان صفوۃ أدباء الاندلس،
 وأن الملوك والأمراء كانوا لفروط عنایتهم بالادب. يضمون
إلى مجالسهم، خير ما نحویه هذه الصفوۃ الراقيۃ من أساطير
الادباء والعلماء الذين انجبوهم ذلك العصر الزاهر، والذين كانوا
قدوة جمود الأدباء في ذلك العصر، وكانت مجالسهم المعین
الذى تستقى منه الحركات العلمية والادبية والاخلاقية،
ومني أفرزنا ذلك أدركنا خطورة هذه المجالس، وأهمية
المناقشات التي كانت تدور فيها.

* * *

ونحن نسرد على حضرة فکم بعض نماذج لتمالك المجالس،
محاولين جهداً، أن نرسم، صورة فاصحة، من الصور
المشرقة بالحياة التي شاهدتها في ذلك المسر الزاهي الذي
اعتزت به الاندلس، واعتزز به الأدب العربي
ونجتزيء في هذه اللمامة السريعة، بأمثلة ثلاثة منها،

مسكين عن التعليق عليها - كما امسكنا عن التعليق على
غيرها من قبل ، رغبة في تحرى الابحاج الشديد
على ان مجال القول ذو سعة ، ونحن فلو شئنا أن نطلق
لأنفسنا العنوان في مناقشة كل ما نأني به وتحليله ، لطال بنا
القول وضيق الوقت عن ايفاء موضوع واحد من المواضيع
الكثيرة التي أخذنا أنفسنا بالكلام عنها ، فلنكتف بهذه
العلالة الآن :

- ١ -

مجلس أدب

كيف امة حنوا صاعدا

جلس المنصور يوما^(١) وعندہ أعيان مملکته
ودولته من أهل العلم كالزیدی والعاصمی وابن العریف وغيرهم
فقال لهم المنصور : « هذا الرجل الوافد علينا ^(٢) یزعم

(١) نفح الطیب (٢) یعنی ابا العلاء صاعدا وسيمر بك

ترجمته بعد قلیل

أَنَّهُ مُتَقَدِّمٌ فِي هَذِهِ الْعِلْمَوْنَ، وَأَحَبُّ أَنْ يَتَعَجَّلَ، فَوَجَهَ إِلَيْهِ،
فَلَمَا مَتَّهُ بَيْنَ يَدِيهِ، وَالْمَجْلِسُ قَدْ احْتَفَلَ، خَبَلَ، فَرَفِعَ الْمَنْصُور
مَحْلَهِ، وَأَفْبَلَ عَلَيْهِ وَسَأَلَهُ عَنْ أَبْنَى سَعِيدِ السَّيِّدِيَّافِيِّ، فَزَعَمَ
أَنَّهُ لَقَيَهُ وَقَرَأً عَلَيْهِ كِتَابَ سَيِّدِيَّوْيِهِ

فَبَادَرَهُ الْمَاصِيَّ بِالْسُّؤَالِ عَنْ مَسْئَلَةِ مِنَ الْكِتَابِ،
فَلَمْ يَحْضُرْهُ جَوَابُهَا، وَاعْتَذَرَ بِأَنَّ النَّحْوَ لِيْسَ جَلِّ بِضَاعَتِهِ
فَقَالَ لِهِ الزَّيْدِيُّ : « فَمَا تَحْسَنُ أَيْمَانُ الشَّيْخِ ؟ »
فَقَالَ : « حَفْظُ الْغَرِيبِ » قَالَ : « فَمَا وَزْنُ اُوْاقِ ؟ »
فَضَحِّكَ صَاعِدٌ وَقَالَ : « أَمْثَلِي يَسْأَلُ عَنْ هَذَا ؛ أَنَّمَا
يَسْأَلُ عَنْهُ صَدِيقُ الْمَكْتَبِ ! »

فَالَّذِي الزَّهْرِيُّ : « قَدْ سَأَلَنَاكَ، وَلَا نَشَكَ أَنَّكَ تَجْهِلُهُ »
فَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَقَالَ : « أَفْعَلُ وَزْنَهُ »
فَقَالَ الزَّيْدِيُّ : « صَاحِبُكُمْ مُمْخَرِقٌ ! »

* * *

وَقَالَ لِهِ صَاعِدٌ : « إِخْالُ الشَّيْخِ بِضَاعَتِهِ الْأَبْنِيَّةِ ! » فَقَالَ
لَهُ : « أَجَلٌ » فَقَالَ صَاعِدٌ : « وَبِضَاعَتِي أَنَا حَفْظُ الْأَشْعَارِ »

ورواية الاخبار ، وفك المعنى ، وعلم الموسيقى ! «
قالوا : « فناظره ابن العريف ^(١) فظهر عليه صاعد
وجعل لا يجري في المجلس كلها ، إلا أذشد شعرا شاهدا ،
وأني بمحكایة تجاذبها »

— ٢ —

مجلس آخر

بداهة صاعد ^(٢)

كان صاعد بين يدي المنصور ، فاحضرت اليه

(١) سيمبر بك بعد قليل شيء من مناقضات ابن العريف مع
صاعد ، تبين منه المنافاة الشديدة التي كانت بينهما ، والحق
الذى كان يضمره كل منها للآخر

(٢) ترجمة صاعد

ابنه صاعد بن الحسن الربعي ، وكنيته أبو الملا ، وأصله
من الموصل ، وقد تعلم في بغداد ، واستمر بها حتى تبحر في اللغة
والآداب ، ثم ورد على المنصور ابن أبي عامر سنة ٣٨٠ ، في أيام
امارته ، فأراد المنصور أن يعنفي به آذار أبي على القالي ، فلم يجد

وردة في غير وقتها لم يستثن فتح ورقها، فقال فيها صناعه
مرنجلا :

عند هذه ما يرتفع بها ، وأعرض عنه أهل العلم ، وقد حوا في علمه
وعقله ودينه ، ولم يأخذوا عنه شيئاً ، لفلة الثقة به .

وقد ذكر ابن إسَامَ أَنَّ الْأَنْدَلُسِيِّينَ دَحْضُوا كِتَابَهُ «الْفَصُوصُ»
الَّذِي أَفْهَمَهُ الْمُنْصُورُ - وَنَحَا بِهِ مُنْحِيَ كِتَابَ النَّوَادِرِ لِلْقَالِيِّ - وَأَنْهُم
غَيْدُوهُ فِي النَّهَرِ ، وَذَكَرَ الْمَرَاكِشِيُّ صَاحِبَ كِتَابِ الْمَجْبُ وَالْمَقْرِيِّ
وَغَيْرَهَا ، هَذِهِ الْحَكَايَةُ بِرَوَايَاتٍ أُخْرَى ، أَشَهَرُهَا أَنَّهُ دَفَعَ الْكِتَابَ
لِلْغَلَامِ بَعْدَ تَعَامِهِ ، فَعَبَرَ فَزْلَتْ قَدْمَ الْغَلَامِ بِهِ - وَهُوَ يَمْرِ نَهَرٍ
غَرْبَةً - فَسَقَطَ هُوَ وَالْكِتَابُ فِي النَّهَرِ

قالوا: ففرح ابن العريف بذلك وقال سرّي جلا بحضوره المنصور:
قد غاص في البحر كتاب الفصوص

وهكذا كل ثقيل يغوص :

فضحك المنصور والحاضرون ، ولكن ذلك لم يرجع صاعدا ،
فقط - ألم :

حاد الى معدنه انا توجد في قعر البحار الفصوص

* * *

وكان السبب في تأليفه هذا الكتاب، لأن المنصور أراد كتاب التواحد للقال، فاً كد له صاعداً أن في قدرته أن يُؤلف

أنتك أبا عامر وردة يذكرك المسك أنفاسها
كمذراء أبصراها مبصر فغطت بأكمامها رأسها

كتابا خيرا منه ، وقال له : « إن أراد المنصور أمليت على كتاب
دولته كتابا أرفع منه وأجل ، لا أورد فيه خبرا مما أورده أبو
علي ! » فلما أذن له المنصور بذلك جلس بجامع « الراحلة » على
كتابه « الفصوص » حتى أكمله
قالوا : فتنبه أدباء ذلك الوقت فلم تعر فيه كلة صحيحة
عنهـم ، ولا خبر ثبت لـهم ! »

* * *

ولقد أحسن ابن بسام كل الأحسان ، وتوخي شرعة الانصاف
والعدالة ، في تعليقه على هذا الخبر ، حين قال : « ما أظن أحدا
يمجتري على مثل هذا ! وإنما صاعدا اشتربت أن لا يأتني إلا بالغريب
غير المشهور ، وأعوانهم على نفسه ، بما كان يتفق به من الكذب ! »

* * *

وقد صدق ابن بسام ، فان اندفاع صاعد في الاجابة على كل
سؤال ، من غير تدبر ولا اعمال روية ، قد كافه عنا غالبا
 جداً ، هو عدم تحري الصدق في قوله وروايته ، وثم قلت ذقة
لانداسين به ، وعزفوا عن علمه

* * *

فسر بذلك المنصور ، وكان ابن العريف حاضرا ، فسده
وجرى إلى مناقضته ، وقال المنصور : هذان البيتان لغيره

وكيف يشق الاندلسيون بكلام رجل هو أسرع الناس بديهية
في ادعاء الباطل ، يكذب لأقل مناسبة حتى لا يرمي بالقصور أو
غلة الاطلاع ،

أمثلة من أكاذيبه

(١)

فن أكاذيبه العديدة ، ما أجاب به المنصور حين سأله يوما
عن الحنبشار ، فقال له : « هو حشيشة يعتقد بها اللبن بعادية الأعراب ،
وفي ذلك يقول شاعرهم :

لقد عقدت محبتها بقلبي كا عقد الحليب بحنبشار !
وقد اشتهر هذا البيت حتى أصبح مثلاً يقتدر به أكثر
الأدباء ، كلما عنت لهم مناسبة تذكرهم به !

(٢)

وقدم له المنصور يوماً طبقاً فيه تمر ، وسأله عن التمر كل في
كلام العرب ، فاجابه بغير احتراس : « يقال تمر كل الرجل تمر كل
إذا التف في كسايه ! »

* * *

وقد أنسد نيهما بعض البغداديين بمحضر نفسه ، وها عندي
على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور : « أرنيه » خرج

(٣)

وأتوا إليه مرة بكراريس بيضاء ، جمعوها في مجلد ، وأزالوا
جذتها حتى ترمي القدم ، وترجم عليه : « كتاب الذكى تأليف
أبي على الغوث الصنعاوى »
فترأمى إليه صاعد حين رأه - وجعل يقبله ويقول : « أى والله
قرأت به بالبلد الفلافي على الشيخ أبي فلان »
فأخذه المنصور من يده . خوفاً أن يفتحه ، وقال له : « ان
كنت قد قرأت به كما تزعم فهلا متحتوى ؟ »
فقال : « وأبلىك ! لقد بعد عهدى به ولا أحفظ إلا ذمنه
 شيئاً ، ولكنك به متحتوى على لغة منثوره ، لا يشوبها شعر ولا خبر
فقال له المنصور : « أبعد الله بذلك ! فارأيت أ كذلك منك »
وأمر باخراجه !

* * *

وقد سجا صاعد كثيراً من معاصريه وجيئه ، ولم يلتفت
ما قيل فيه من الهجاء ، قوله بعضهم :
اقبل هديت أبالملاء نصيحتى بقبوطا ، وبواجب الشكر
لا تهجون أسن منك ، فربما تهجو أباك وأنت لا تدرى :

ابن العريف ، وركب وحرك دابته حتى أتى مجلس ابن
برد ، وكان أحسن أهل زمانه بديهة ، فوصف له ما جرى ،
فقال هذه الأبيات ودس فيها بيتي صاعده :

عشوت الى قصر عباسة وقد جدل النوم حراسها
فالفيقا - وهي في خدرها وقد صرخ السكر أناسها -
فقالت «أسار على هجعة ؟ » فرمي كاسها
ومدت يديها الى وردة يحاكي لك الطيب انفاسها
كمذراء ابصرها مبعرا فنقطت يا كامها راسها
وقالت خف الله لا تفضحن في ابنة عمك عباسها
فواليت عنها على غفلة وما خنت نامي ، ولا ناسها
فطار ابن العريف بها ، وعلقها على ظهر كتاب بخط
محرى ، ومداد أشقر ، ودخل بها على المنصور
فاما رآها اشتد غيظه ، وقال للحاضرين :
«غدا امتحنه ، فان فضحة الامتحان اخر جمه من البلاد
ولم يبق في موضع لي عليه سلطان ! »

فاما أصبع ، وجه اليه ، فاحضر ، واحضر معه جميع
الندماء ، فدخل بهم الى مجلس محفل ، قد أعد فيه طبقا عظيما

فيه سقايف مصنوعة من جميع الذواوير، وضung على السقايف
أدب من ياسمين في شكل الجواري ، وتحت السقايف بركة
ماه قد القى فيها اللاتي ، مثل الحصباء ، وفي البركة حية تسبيح
فاما دخل صاعد ورأى الطبق ، قل له المنصور :
« ان هذا اليوم ، اما أأن تسعد فيه معنا واما أأن تشقى
بالضد عندنا ، لأنه قد زعم قوم أن كل ما نأى به دعوى
وقد وقفت من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ، ما توهمت
أنه عمل ملك مثله ، فان وصفته بجميع ما فيه ، علمت صحة
ما تذكره »

فقال صاعد بديهية :

أبا عامر ! هل غير جدوك واكف ؟
وهل غير من عادك في الأرض خائف ؟
يسوق اليك الدهر كل غريبة
واعجب ما يلقاه عندك واصف
وشائع نور ، صاغها هامر الحيا
على حافتها عبر ورفارف

ولما تناهى الحسُن فيها ، تقابلت
عليها بأنواع الملاهي الوصائف
كمثل الظباء المستكنة كنسا
تظلمها بالياسمين السقايف
وأعجب منها أنهن نواذير
إلى بركة صمت إليها العرائف
حصاها اللالى ، سائح في عبابها
من الرقش مشئوم التعبانين زاحف
ترى ما تراه الحسن في جنباتها
من الوحش ، حتى يدنون السلاحف

* * *

قالوا : « فاستغربت له يومئذ تلك البديةة » في مثل
ذلك الموضع ، وكتبها المنصور بخطه «
وكان إلى ناحية من تلك السقايف سفينة فيها جارية
من النور تجذب بعجاذيف من ذهب لم يرها صاعد ، فقال
له المنصور : « أحسنت ! إلا أنك اغفلت ذكر المركب
والجارية ، فقال الوقت »

وأعجب منها غادة في سفينة
مكللة تصبو إليها الماءف
إذا راعها موج من الماء تتفى
بسكانها ، ما إن ذرته العواصف
متى كانت الحسناه ربان مركب
تصرف في يديها المحاذف
ولم تر عيني في البلاد حدائقه
تنقلها في الراحتين الوصائف
ولا غرو ان ساقت معاليك روضة
وشتها ازاهير الربى والزخارف
فأنت امرؤ ، لو دمت نقل مقالع
ورضوى ، زوتها من سطاك نواسف
إذا دمت قولًا ، أو طلبت بديمة
فـ كـ لـ كـ لـ له ، إـ نـ يـ لـ حـ دـ كـ وـ اـ صـ فـ
قالوا : « فأمر له المنصور بـ ألف دينار ومائة ثوب ،
ورتب له في كل شهر ثلاثة دينارا ^(١) »

(١) نفح الطيب

- ٣ -

مجلس ثالث

مناقضة صاعد مع ابن العريف في حضرة المنصور

ونتهز هذه المناسبة فنختار من الأمثلة الكثيرة التي
أثبتت حضور ذهنه وقوته عارضته ، حكايته مع ابن العريف
بحضرة المنصور ، وقد رواها ابن سعيد . وخلاصتها أن ابن
العريف دخل يوما على المنصور ، وعنده صاعد ، فأنسده -
وهو بالوضع المعروف بالعربية - من أبيات :

فاللهـ امرية تزهى على جمیع المباني
وأنت فيها كسیف قد حل في غمدان
فاظهر صاعد المنصور أن في استطاعته أن يرتجل
خیراً من هذا الشعر الذي اعده ابن العريف وروى فيه ،
فطلب منه المنصور أن يفعل ، ليظهر صدق دعواه ، فقال
من غير فكرة طولية :

يا ايها الحاجب المـ تلى على کیوان

ومن به قد تناهى خوار كل يعاني
العامريه أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريدة ما بين أهل الزمان
ثم مرف الشعر الى أن قال في ختام الآيات :
فدم بدى الدهر فيها في غبطة وأمان
فأعجب المنصور بيداهته وقال لابن العريف : «مالك
فائدة في مذاقضة من هذا ارجحاته ، فكيف تكون رويته ؟»
فأجاب ابن العريف : « إنما ازطه وقرب عليه المأخذ
احسانك ! »
فقال له صاعد : « يفهم من هذا أن قلة احسانه اليك
أسكتتك وبعدت عليك المأخذ ! »
ففتح حات المنصور وقال : « غير هذه المنازعه اليق
بأدبكما ! »

مودج من مجالس الله

مجلس انس ورقص

« كان صاعد اللغوى كثيرا ما يمدح بلاد العراق بجلس
النصرور ويصفها ويقر ظها ، فـ كتب الوزير عبد الملك ابن
شيمد^(١) الى النصرور في يوم برد ، بهذه الايات :

(١) عبد الملك ابن شهيد هو والد الوزير أبي عاصي أحمد ابن شهيد، وابنه هذا هو الشاعر المشهور الذي تقدم ذكره وطرف من أخباره في ص (٢١٤)

(٢) يعني أبا العلاء صاعداً وقد صرذ ذكره وزرجهته في ص(٣٢٢)

فأمر باحضار من جرى رسمه من الوزراء والنديماء ، وحضر
ابن شهيد في محفة ، لنقرس كان يعتاده ، وأخذوا في شأنهم ،
فأر لهم يوم لم يشهدوا منه له ، ووقت لم يعهدوا نظيره
وطأ الطرب ، وسموا بهم حتى تهاج القوم ورقصوا ، وجعلوا
يرقصون بالنوبة ، حتى انتهى الدور إلى ابن شهيد ، فأقامه
الوزير أبو عبد الله بن عباس ، فعمل يرقص ، وهو متوك
عليه ، ويرتجل ، ويومي إلى المنصور ، وقد غلب عليه السكر :

هـ كـ شـ يـ خـ اـ قـ اـ دـ السـ كـ رـ اـ كـ
قـ اـ مـ فـ اـ مـ دـ هـ اـ كـ اـ كـ
لـ مـ يـ طـ قـ يـ رـ قـ صـ هـ اـ مـ سـ تـ بـ تـ قـ
عـ اـ فـ هـ اـ نـ هـ زـ هـ اـ مـ نـ فـ رـ دـ اـ
مـ نـ وـ زـ يـ رـ فـ يـ هـ مـ رـ قـ اـ صـ هـ اـ
أـ نـ اـ لـ وـ كـ نـ تـ كـ اـ تـ عـ رـ فـ نـ
قـ رـ قـ هـ الـ اـ بـ رـ يـ قـ مـ نـ صـ اـ حـ كـ اـ
قـ اـ لـ لـ اوـ : « وـ كـ انـ حـ اـ ضـ رـ هـ ذـ لـ كـ
حـ سـ نـ اـ دـ رـ دـ ةـ سـ رـ يـ هـ اـ (١) فـ لـ مـ اـ رـ اـ يـ اـ بنـ شـ هـ يـ دـ يـ رـ قـ صـ قـ اـ مـ اـ

(١) وكان يُعرف بالفكير ، وكان ابن شهيد استحضره

إلى المنصور :

من ألم المرض الذي كان يمنعه من الحركة ، قال : « الله درك يا وزير ! ترقص بالفأمة وتصلى بالقاعدة ؟ »
فضحلك المنصور وامر لابن شهيد بمعال جزيل ولسائر
الجماعة وللبيهادى (١) »

(١) المفرى

وذلك أنهم - بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة - وقع في أيديهم
آلاف المسيحيين من كل جهة فتحوها. فعاش أولئك المسيحيون
في كنف المسلمين . وأحسنت الحكومة معاملتهم ومنحهم
الحرية الدينية، وكثيراً ما رفعتهم إلى مناصب عالية في الجيش
وفي بلاط الملك . فاعتنق كثير منهم الخضارة الإسلامية
وافتتح لها افتتاحاً، حتى رأينا «القارو» كاهن قرطبة في أواسط
القرن التاسع الميلاد يولول في أوائل ذلك العصر شاكياً من
ابناء دينه انكبا بهم على مطالعة أشعار العرب واساطيرهم
وهيامهم بدراسة كتابات لاهوتى المسلمين وفلسفتهم -
لابقصد تفنيدها - بل رغبة في التعبير عن خواجهم بأسلوب
عربي رشيق وصحيح -

شكوى الفارو

وكان القارو يتسائل قائلاً : «أني يتح لإنسان في
هذه الأيام أن يقابل واحداً من ابناء جذتنا يقرأ التفاسير
اللاتينية للكتاب المقدس ؟؟ ومن ذا الذي يدرس منهم
فصول الانجيل وسير الانبياء والخوارق ؟؟ وأحسن قراءة ؟
ان كل الشبان المسيحيين ذوى الواهب ، لا يعرفون إلا

العربية وإلا كتابات العرب ، فهم يقرءونها ويدرسونها
بحواس بالغ مفتقدها - كما انهم ينفقون المبالغ الطائلة من النقود
لافتتاحها في مكتابتهم . وترأهـ - أني وجـدوا - يذيعون ان تلك
الادـاب جـديـرة بالاعـجاب ، فـاذا تجاـوزـت عن ذـلـكـ وأخـذـتـ
تحـدـيـمـ عـنـ الكـتبـ المـسيـحـيـةـ اـزـوـرـ جـانـبـهـمـ ،ـ وـأـجـابـوكـ
بـاحـتـقـادـ - «ـ إـنـهـاـ اـسـفـارـ لـاـ تـسـتـحـقـ الذـكـرـ !ـ »ـ وـاحـسـرـتـاـ
عـلـيـهـمـ !ـ اـقـدـ نـسـىـ المـسـيـحـيـوـنـ لـغـقـهـمـ ،ـ حـتـىـ لـيـفـدـرـ العـثـورـ -ـ بـيـنـ
الـآـفـ مـنـاـ -ـ عـلـىـ فـرـدـ يـسـتـطـيـعـ اـنـ يـحـرـرـ اـلـىـ اـحـدـ اـصـدـقـائـهـ
رـسـالـةـ لـاـتـيـنـيـةـ بـأـسـلـوبـ لـاـ بـأـسـ بـهـ -ـ عـلـىـ حـيـنـ تـرـىـ الـعـدـدـ
الـجـمـ قـادـرـاـ عـلـىـ الـإـبـانـةـ عـمـاـ فـيـ نـفـسـهـ بـأـسـلـوبـ عـرـبـيـ خـلـابـ ،ـ
وـعـلـىـ حـيـنـ تـرـىـ حـذـقـهـمـ فـيـ قـرـضـ الشـعـرـ الـعـرـبـيـ قدـ وـصـلـ اـلـىـ
حدـ فـاقـوـاـ مـعـهـ الـعـرـبـ أـنـفـسـهـمـ ،ـ ١٥ـ

وـمـهـاـ يـكـنـ فـيـ كـلـامـ هـذـاـ الـكـاهـنـ مـنـ الـمـفـالـاـةـ فـهـاـ يـتـرـفـعـ
عـنـ الجـدـلـ وـالـتـشـكـكـ ،ـ أـنـ التـهـذـيبـ الـاسـلامـيـ قدـ أـخـذـ
بـأـلـبـابـ الـمـسـيـحـيـ بـنـ الـاسـبـانـ ،ـ كـمـ اـفـتـنـ بـهـ اليـهـودـ الـذـيـنـ خـدـمـواـ
الـشـعـرـ وـالـفـلـسـفـةـ بـعـسـاـعـدـهـمـ الـعـدـيـدـةـ وـكـتـابـهـمـ الـتـيـ
اـنـشـئـوـهـاـ بـلـغـتـهـمـ وـبـأـغـةـ اـبـنـاءـ عـمـهـمـ «ـ الـعـرـبـ »ـ

أما المولدون والصابئون من الأسبانيين الذين اعتنقوا
الدين الإسلامي فقد استقر بواهاما بعد أجيال قليلة
ومن هؤلاء نبغ أشهر من ازدان بهم الأدب العربي

— ٣ —

شعر العرب الأسبانيين

وقد كان للشعر العربي في أدواراً على وجه الاجمال
نفس الخصائص التي رأيناها في الشعر المعاصر له في الشرق
فإن الأوزان المصطلحة عليها والقيود التي لم يستطع أساطين
بغداد وحلب أن يحرروا أنفسهم من ربقة لها ظلت بمحاذيرها
في قرطبة وأشبيلية

وكما تأثر الشعر العربي في الشرق بالآداب الفارسية
فقد تأثر في إسبانيا كذلك باتحاد الأدباء والساميين
واندماجهم شيئاً فشيئاً - فكان ذلك سبباً في ادخال عناصر
جديدة ظهرت في آدابها

ولعل امتنع ميزات الشعر الإسباني هي ذلك الوجودان
العاطفي الرقيق الذي يندر وجود مثله في النسيب ، والذي
ظهر كثيراً في أغانيهم عن الحب ، وهو وجdan لا يقتصر

على تصوير فروسية القرون الوسطى ، بل يتخذه ذلك إلى حد أن تحسبه احساساً جديداً بمحاسن الطبيعة التي جملته ! ولهذه الميزة سهل فهم ذلك الشعر على السكثرين من الآردين الذين قد لا يسهل عليهم تفهم روح العلاقات أو قصائد المتنبي

وقد كان يكون من المتع - لو لا صيق المقام - أن فترجم هنا بعض قصائد وصفية فاتنة مما جمعه المنتخبون ، على أن أغفال ذلك لا يحزننا كثيراً فقد نقل اليانا شاخ عدة مجاميع من أبدع المترجمات في كتابه المسمى «شعر العرب وفنونهم في إسبانيا وصقلية » poeise und kunst der araber in spanien. and Sicilien.

وقد روينا القزويني عن مدينة شلب (Shilb) بالبرتغال أن من أحدى عجائبها تلك الحقيقة التي أقرها أفراد لا يحصون وهي قوله : « وكان من مدنهم مثل شلب ، قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعاني الأدب ، ولو مررت بالفلاح خلف فداته وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما افترحت عليه وأى معنى طلبت منه (١) »

(١) ارجع إلى ص (٢٤٥)

- ٤ -

الاغانى الراحة

وكان من بين تلك الاغانى الدرجة فنا الزجل^(١)
والموشحات^(٢) وهما ضربان محبوبان ، وكلادها مبتدع في
اسبابانيا ، ووسمعها معروف وانشاؤها متجانس . ويتركب
أغلب هذه الاغانى والاصناع الدارجة ، من العامية الرقيقة
غير المقيدة بقواعد اللغة^(٣)

وأول من رفع الزجل الى مرتبة الادب هو ابن
قزمان ، في سنة ١١٦٠ ميلادية .

ومما نقل اليانا من مخلفات الامويين بالأندلس ، نرى
أن شغفهم بالشعر والموسيقى والبلاغة الراقية ، قد زاد حتى
عن حبهم القرآن^(٤)

(١) ارجع الى ص (٢٨٨)

(٢) ارجع الى ص (٢٣٣)

(٣) ارجع الى ص (٢٨٨)

(٤) ارجع الى ص (٤٠)

٢

عَنْ أَيْدِيهِ مِنْ حِفْظٍ

- ١ -

إِلَى أَيِّ حَدٍ بَلَغْتُ !

* * *

قال الوزير أبو بكر ابن وزير أبي مروان عبد الملك :
« بينما أنا قاعد في دهليز دارنا وعندى رجل ناس سخ امرته
ان يكتب لي كتاب الاغاني . فجاء الناس سخ بالكراديس التي
كتبتها فقلت له : « أين الاصل الذى كتبت منه لاقابل معك
به ؟ » قال : « ما أتيت به معى » فبيدهما أنا معه في ذلك اذ دخل
الدهليز علينا رجل بد الهيئة ، عليه ثياب غاية ظلة ا كثراها
صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير اتقان لها ، خسبته
لما رأيته من بعض سكان أهل البادية ، فسلم وقدم . وقال :
« يا بني ! استاذن لي على الوزير أبي مروان » فقلت له هو نائم

هذا بعد ان تكانت جوابه غاية التكاليف - حملني على ذلك
نزوة الصبي، وما رأيت من خشونة هيئة الرجل، ثم سكت
عني ساعة وقال : « ما هذا الكتاب الذي بآيديكما ؟ » فقلت
له : « ما مسمؤ الملك عنه ؟ » قال : « أحب أن أعرف اسمه فاني
كنت أعرف أسماء الكتب » فقلت « هو كتاب الأغاني فقال
إلي أين بلغ الكتاب منه قلت : « باغ موضع كذا »
ووجهت الحديث معه على طريق السخرية به والضحك
على قالبه، فقال : وما لكاتبك لا يكتب ؟ قلت : طابت منه
الاصل الذي يكتب منه لاعارض هذه الاوراق ، فقال لم
أجيء به معى ، فقال يا بني خذ كراريسك وعارض . قلت :
بماذا ؟ وأين الاصل ؟ قال . كنت أحفظ هذا الكتاب في
مدة صبائى . فنبسمت من قوله . فلما رأى تبسمى قال :
يا بني امسك على . فأمسك عاليه وجعل يقرأ . فوالله إن
أخطاً واوا ولا فاء . هكذا نحو كراسين . ثم أخذت له
في وسط السفر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سوء .
فاشتد عجبي ، وقت سرعا حتى دخلت على أبي فأخبرته الخبر
ووصرفت له الرجل ، فقام كما هو من فوره لا يرافق على نفسه

وأنا بين يديه، وهو يوسعني لوما حتى ترامي على الرجل
وعانقه، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول: «يا مولاي! اعذرني،
فوالله ما أعلمى هذا الخلف إلا الساعة» وجعل يسبى
والرجل يخفض عليه ويقول: ما عرفني . وأبي يقول . هبه
ما عرفك فاعذره في حسن الادب؛ ثم أدخله الداروا كرم
مجلسه وخلال به ، فتجدها طويلاً، ثم خرج الرجل وأبي بين
يديه حافيا حتى بلغ الباب وأمر بدارته التي يركبها فاسر جت
وحلف عليه ليركبها ثم لا ترجع إليه أبداً . فاما انفصل قلت
لأبي : من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم؟ فقال لي .
اسكت ! وبحكم هذا أديب الاندلس وسیدها في علم
الادب . هذا أبو محمد عبد الجيد بن عبدون ، أيسره محفوظاته
كتاب الأغاني ، وما حفظه في ذكرا خاطره وجودة قريحته ^(١) اهـ

* * *

أتينا بهذه الحكاية الطويلة الممتعة، الحافلة بكثير من
عادات العرب وكيفيات تقديرهم للادب والادباء، لنتبين
منها ما يلي :

أولاً_ عنابة الوزراء وأرباب السلطان بالادب ورجاله؛
ووضعهم أيام في المكان الأول من الاجلال والرفعة ، وقد
اطنعت الحكامة في وصف ذلك

ثانياً - اهتمام الاندلسيين الشديد بمقابل كتب الشرق
ونسخها لفهم فائدتها . ولهـ مد يزيدكم اقتناعاً بهذا الرأى
ما سمعتموه في حينه من الحكم الثاني وعناته الفائقة الحدود
باقتناء الكتاب النفيسة وجلبهـ من اقصى بلاد الشرق حتى
لقد بادر بشراء كتاب الاغانى قبل ان ينشر في الشرق نفسه (١)
ثالثاً - شغف الاندلسيين بالاكتشاف من المحفوظات

الى حد يصعب تصديقه على من لم يدرس العرب دراسة جيدة، فان من لا يعرف المنزلة العالمية التي وصلت اليها مملكتات العرب في الشرق^(٢) لا يستطيع تصديق هذه الحقيقة لأنها تتعارض مع الاتا^(٣)

دابعاً - كان يكفي لاعتبار الانسان أدبياً أن يكون

(١) ارجع الى ص (٢٢٧ و ٢٢٨)

(٢) ميمور بلك شيء من ذلك في (ص ٣٤٧ - ٣٤٩)

(٣) سیمیر بک طرف من ذلک في (ص ٣٥٠)

ذا محفوظ كبير . كما كان يكفي للمقارنة بين أدبيين أن يمرف
أيهما كثُر محفوظاً من صاحبه . وهو عندم بلا ريب
الأَجدر بالفضل والاجلال . كذلك كانوا يفعلون وكذلك
كان يفعل العرب الشرقيون من قبلهم^(١)

(١) وحسبك دليلاً على صحة ذلك ما امتلأت به كتب
الادب من الحكايات المدهشة التي استشهدوا بها على تفوق العرب
في الحفظ ، والى القارئ عدّة أمثلة هي قليل جداً من كثير جداً
من أشباهها :

(٢)

روى الأَصمعي أن فتياناً جاءه وألى أبي ضمضم بعد العشاء ،
فقال لهم : « ما جاءكم يا خبراء ؟ » قالوا : « جئناك نتحدث »
قال . كذبتم ! بل قلتكم : كبر الشیخ وبلغته (أجهدته) السن ،
عسى أن نأخذ عليه سقطة »

* * *

فأنشدتهم مائة شاعر هم أميرهم عمرو ، قال الأَصمعي : « فعددت
وخلف الأَحمر فلم تقدر على أكثر من ثلاثة ! »
وقد عاق ابن قتيبة على هذا الخبر بقوله : « هذا ما حفظه
أبو ضمضم ، ولم يكن بأَرْوَى الناس »

وهكذا كان يشجعهم ملو كهم واولو الامر فيهم على

(٢)

واستدل مؤرخو الأدب على سعة حفظ الخوارزمي وغزاره
مادته ، بحكاية مع الصاحب ابن عباد حين قصده وهو بأرجان ،
فلما وصل إلى بابه ، قال لا أحد حجبه : « قل للصاحب على الباب
أحد الأدباء ، وهو يستأذن في الدخول » فدخل الحاجب وأخبره
أن الصاحب لا يقبل إلا من يحظ نحو ستة عشر ألف قصيدة ،
فقال له الخوارزمي : ارجع اليه وقل له : « هذا القدر من شعر
الرجال ألم من شعر النساء ؟ »

قالوا : فدخل الحاجب ، فأعاد عليه ما سمع ، فقال الصاحب
« هذا يكون أبا بكر الخوارزمي ! » وأذن له في الدخول فدخل
عليه فعرفه وانبسط له !

(٣)

ولنجزئ بالفطمة التالية التي نقتطفها من فصل ممتع كتبه
الأديب البستاني في مقدمة الالياذة عن الحفاظ ، قال :
« وأما مبلغ الذاكرة عندهم (العرب) فهذا لا ينوقف شيء في
أخبار اليونان والرومان والأفرنج ، وفي أخبارهم ما لو حذف
منه شيء كثير ، لربما باقيه على رويات اليونان قد يفهم وحدنهم »
إلى أن قال :

الإِكْتَارُ مِنَ الْحَفْظِ حَتَّى وَصَلُوا فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ إِلَى حَدٍ

« فَا بِاللَّهِ لَوْ مَعَمْتُ مَا ذَكَرُوا عَنْ غَرَائِبِ حَافِظَةِ جَمَادِ الرَّاوِيَةِ
اَذ امتحنه الوليد بن يزيد ، ووكل به من يسمع انشاده ، فأنشد
تباعاً الفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهلية ، أو لو قيل لك .
ان الا صمعي كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة كاملة ، ما خلا
القصائد والمقاطعيم ، وأخبار العرب ، بدوهم وحضرهم »
وهذا قول - منها أنس فيه من المبالغة - لا يخلو من صحة
بعضها كاف لاثبات ما توحيناه »

ولم يقل البستاني ان الذاكراة عند العرب مما لا يفوقه شيء
في اخبار اليونان والرومان والأفرنج ، الا بعد أن أتي لك ببعض
أمثلة صادقة تتبين من خلالها تفوق تلك الامم في الحفظ . ومن
تلك الأمثلة التي استشهد بها ما نقله من رأي الكسندر شداز كوش
الذى ورد في ص (٥٥٩) من الجزء الثالث عشر من مجلة العالمين
وهو قوله : Revue des deux Mondes

« ان حفاظ الهمج يتلوون لك من شعر شعراً لهم ما لا تصدق
أن ذاكراة تعييه لـ كثرة ، فقد يظل المنشد يتغنى باشعار الشهنشمة
(وهي اليادة الفرس) نهاراً كاماً « وما أدركم بيتأ يقال في نهار
إلى أن يقول :

« وقد ذكر كتاب الأفرنج كثيرين من عنوا بحفظ كتاب
أو منظومة ، فما ليثروا أن أدركم بما ينتجهم كما كولي (Macaulay)
الذى أنشد نصف منظومة ماتن الانكليزية في الفردوس الغابر » اه

يد عولل الحبرة والدهشة ^(١)

(١) فقد أكثر ملوك الاندلس من اقتراح حفظ كتب
بعينها، وخصوصاً من يفعل ذلك بجروائز مالية، فاشتد اقبال الناس
على تنفيذ رغباتهم طمعاً في ذلك، وثم وصل حفاظ الاندلس إلى
درجة لا تقل عمّا وصل إليه حفاظ المشرق.

* * *

حدث المراكشي صاحب كتاب المعجب، مخبراً عن أستاذه
أبي جعفر أحمد بن يحيى الحميري المتوفى سنة ٦١٠، وكان قد حضر
عليه بقرطبة في سنة ٦٠٦هـ. فقال:
«كان أبو جعفر آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس،
لزمه نحراً من سنتين، فرأيت أروى لشعر قديم ولا حديث
ولا أذكör بمحكاية تتعاقب بأدب أو مثيل سائر أو بيت نادر أو
صحيفة مستحسنة منه، أدرك جلة مشائخ الاندلس، فأخذ عنهم
علم الحديث والقرآن والآداب، وأعاشه على ذلك طول عمره
وصدق محبتة، وافتراض شغفه بالعلم».

قال لي ولده عاصم، وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي
الطيب فرئت علي أو أكثرها، فألفيتها شديدة الصحة؛ فقلت
لقد كتبتها من أصل صحيح، وتحيرت في نقاومها، فقال: «ما يذكرنـ

- ٢ -

ابن عبدون والاً صمعى

على أننا لو رجعنا الى أنفسنا قليلاً ، وذكرنا الأجلال
والحفاوة المذين لقيها الأصممعى مثلاً من الملوك ، لادركتنا
أن فكرة الاكتشاف المحفوظ ، ليست غريبة في الاندلس
فقد كانت بنفسها في المشرق ^(١)

وبعد ، فن هو الأصممعى ؟

أليس هو آدب أدب في الشرق ! فإذا لم تشاً أن تعد

أن يكون أصل أصح من الاصل الذي كتبته منه » فقلت : « أين
هو ؟ » فقال لي : « عن يمينك » فعلمت أنه يزيد الشيخ ، فقلت :
« ما على يميني إلا أستاذ ! » فقال لي : « هو أصلي ، والماء ملائمه
كتبته ، كان يدعى من حفظه » فجعلت أتعجب ، فسمم الاستاذ
حديثنا ، قال نفت اليها وقال : فيم إنما ؟ فأخبره ولده بالخبر ، فلما
رأى تعجبه ، قال : « بعيد أن تفلاحوا ! يتعجب أحدكم من حفظ
ديوان المتنبي ؟ والله لقد أدركت أقواماً لا يعذر من حفظ كتاب
صيبيو به حافظاً ، ولا يرون مجتهداً ! »

(١) ارجع الى ص (٣٤٧ - ٣٤٩)

مسرفاً، فلت هو من أساطير ادباء الشرق ! ثم ما هي ميزته
على سواه ؟ وما هي الموهبة النادرة التي أحلته ذلك المكان
الأول بين اساطير الادب ورجاله الاخذاد ؟ أهي آراءه
القيمة وانتقاداته الثمينة ؟ أم هي انه كان ذا مذهب خاص في
الادب كذهب عبد القادر الجرجاني أو مذهب تين أو
غيرهما ؟ أم هي أنه تفرد بين رجال البلاغة بعصرية جباره
كانت سبباً في نقل الشعر من مكانه وتقديره البلاغة العربية
خطوات واسعة ، وتطور الافكار من حالة الى حالة ؟
اللهم لم يكن واحداً من هؤلاء ، ولم تكن شهرته
العظيمة لسبب من هذه الاسباب ، فان تاريخ الرجل ينبعنا
أنه لم يكن ذاراً خاص في الأدب العربي ولا في سواه ،
ولكنه كان رجلاً يمتاز عن غيره بأن من أيسر محفوظاته
كذا من آلاف القصائد والاراجيز ، تلك هي أهم موهبه
فإذا طلبت من تاريخه أكثر من ذلك لم تعد بعثائل ، فلقد
تقرأ كل أحاديثه واخباره فلا تجد فيها ما يشعرك حتى بأنه
مفكر غير عادى !

كذلك كان ابن عبدون صورة مصغرة للاصمعي ، فإذا

كنا أخطأنا في تقديره وكان هو أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ ، فَهُوَ
صورة تامة لِلأَصْمَعِي ، فَإِذَا زادَتْ رِتْبَتِهِ فَهُوَ صَوْدَةٌ مَكْبُرَةٌ
لَهُ ، وَهُوَ بَعْدِ كُلِّ هَذَا دُجُلٌ رَأْوِيَّةٌ ، مَلَأَ حَافِظَتِهِ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ
لَمْ يَفْكِرْ فِي اِنْقَادَغَيْهِ مِنْ سَبِيلِهِ^(١)

— ٣ —

أثر الحفظ في الشعر العربي

وَإِنَّا لِنَسَائِلُ أَنفُسَنَا إِلَّا زَ، وَحَقَّ لَنَا ذَلِكُ: أَئْنَا شَغَلتُ
الْحَافِظَةَ بِعِثْلٍ هـ ذـ السـفـرـ الـكـبـيرـ الـذـىـ بـلـغـ عـدـدـ أـجـزـائـهـ
وـاحـدـاـ وـعـشـرـ بـنـ مـجـلـداـ مـنـ أـكـبـرـ الـمـجـلـدـاتـ أـيـقـىـ ثـمـ شـىـءـ
يـذـ كـرـ الـمـفـكـرـةـ وـ الـخـيـلـةـ وـغـيـرـهـماـ ؟ـ ثـمـ مـاـذـاـ يـبـقـىـ بـعـدـ مـنـ
شـخـصـيـةـ الشـاعـرـ الـتـىـ اـنـدـجـتـ كـلـ الـانـدـماـجـ فـيـ أـرـواـحـ مـنـ
سـبـقـهـ^(٢) ... ! لـاـشـىـءـ لـاـشـىـءـ !

(٢) يحضر ما بهذه المناسبة قول الاستاذ الامام محمد عبد الله، حين بلغه ان اديباً امس تظاهر مختار الصحاح، فأجاب: «حسناً جداً . لفديك عندي نسخة اخرى من نسخ هذا الكتاب!»
(١) ولا نفس ان اغلب من سبقوه قد كانوا كذلك

متهدى الهمجات ، لأن ملوكهم تكونت من المخواطرات !

* * *

اذن فليس بعجب أن يعجز ذلك الشاعر عن ابتكار
شيء جديد أو اتجاه طريق خاصة في التفكير، فإن تكوينه
لا يساعد على ذلك ، وإذا كنا نعتقد أن الإنسان قد يقرأ
كتابا من كتب الأدب أو صحيفـة من الصحف فيعاقـ
بذهنه بعض أساليب يستعملها من غير أن يشعر بذلك ،
أفلا يجوز لنا أن نفهم السر في تشابه الشعر العربي وتقارب
معانيه وأغراضه - إن لم نقل تطابقـها في اغلب القصائد -
ثم أولاً نستطيع أن ندرك بعد السبب الاكبر في وقوف
الشعر العربي نحو عشرة قرون وعدم انتقاله من مكانه انتقالاً
يدعو إلى الغبطة ؟ - لقد طالما احتار الإنسان في تعليل تلك
النكبة التي أصابت الشعر العربي فأرهقتـه ، ولطالما حاولـنا
الوصول إلى تعليل معقول نهتمـى به إلى السر في اتفاقـ
أساليب شعراء العربية - على الخصوص - وسبـب ثلاثةـ
شخصيةـ لهم جميعـا إلا الشاذـ منهمـ الذي قد لا يتجاوزـ عددهـ أصابـعـ
اليد الواحدة ، بالرغمـ من أنـ الشعرـ العربيـ كلـهـ تقريباـ شـعـرـ
وـجـدـانـيـ أيـ شـعـرـ عـاطـفـيـ تـجـلـيـ فـيـهـ شـخـصـيـةـ الشـاعـرـ وـاضـحةـ

لكل ناقد خبير - ولكن هذه الحكاية وأشباهها الكثيرات ،
التي نتبين منها عنایة العرب الفائقة الحدود بالا كثار من
المحفوظ ، وقول أحد أدباءهم :

احفظ تقل ما شئت - ان الكلام من الكلام :
كل ذلك يحيط لنا اللثام عن السر في تأثر الشعر العربي ،
ويعلل لنا السبب في تلاشي شخصية شعراء العرب بل فنائهما
في اغلب قصيدهم

* * *

ولا يحق لنا أن ننسى أن كثرة المحفوظ تدعوا إلى م坦ة
الأسلوب ، ولكنها من ناحية أخرى تدعوا إلى فناء الشخصية
وقتل المفكرة فتلا - ولو أنهم كانوا يحفظون فينتقدون
ما يحفظونه انتقادا يظمر صادق الأدب من زائفه لم يبقى ثمة
أمل كبير في انتقال الشعر العربي وتدريجه في سبيل الكلام ،
ولكن أني يكون ذلك وقد أخذوا ما حفظوه عن أسلافهم
غاذج عالية وأمثلة من مثل الكلام الذي تسمو عن مستوى
النقد ، كما تلقفوا بجانب ذلك عدة أحكام على الشعراء
والآباء لا تدل على اصلة فكر مطلاقا :

* * *

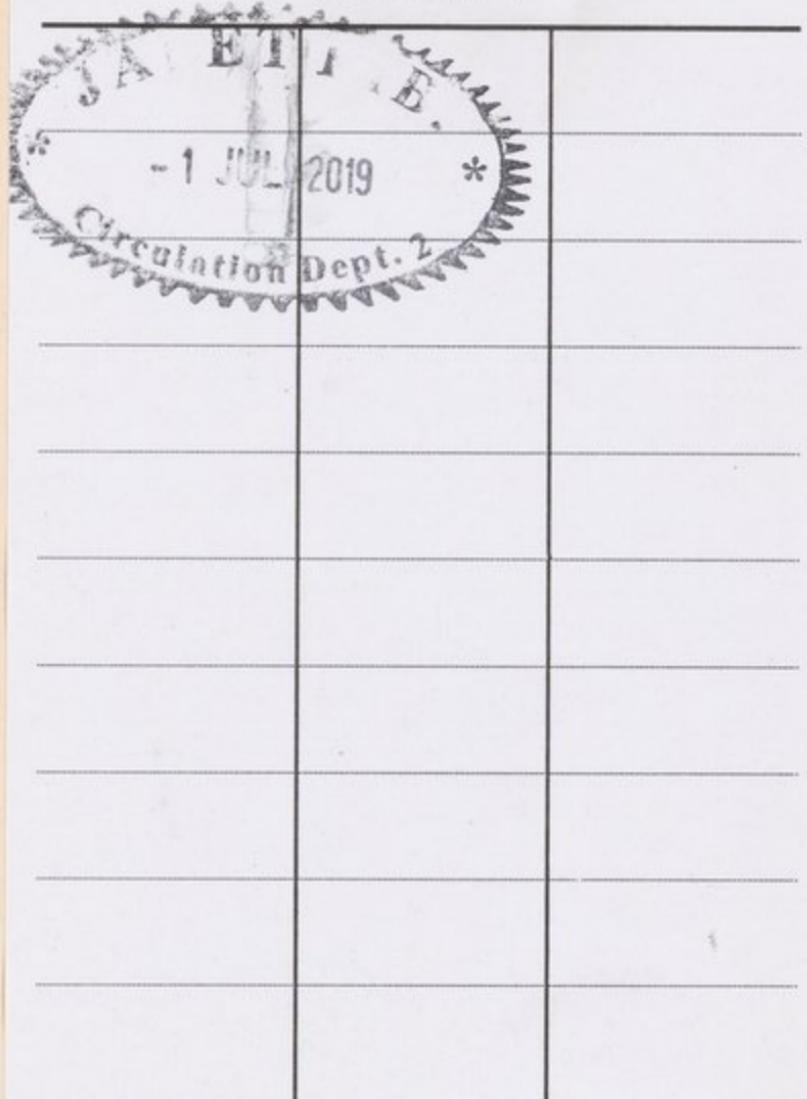
ذلك في نظرنا - داء عياء استحكم فيه فرجع ٢٢
القهقري ، ونكينا في الشعر العربي والبلاغة العربية . ولو
أتيح لها افراد قلائل على شاكلة عبد الفاهر الجرجاني
وعبد العزب الجرجاني ، لعرفوا كيف ينتقلون بالبلاغة العربية
إلى المكان الذي وصلت إليه بلاغة الغربيين في هذه الأيام !

الخطأ والصواب

في الكتاب عدة أخطاء ، طبعية قليلة وقعت سهوا ، ولا
نحسبها تخفي القارئ ، ولكن لا يسعنا أن نغفل التنبيه على ما يلي :

صحيفة سطر	خطأ	صواب
٥	الناصر	الداخل
٧	الحادي عشر	التاسع
٩٤	الرابع	الخامس
٤	٣٥٩	٤٥٩

DATE DUE



American University of Beirut



892.709
K23nA

General Library

